

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الثاني



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧ / ٢٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم. هذا هو الجزء الثاني من كتاب «الأدب المُثَمّن» أقدمه بين يديك وكلي أمل، ورجاء.. آمل بأنك قد وجدت في الجزء الأول ما حاز على رضاك عني.. ورجاء بأن تجد في هذا الجزء ما يجلب حسن قبولك لما أعرضه فيه من موضوعات. هي جهد المقل.

المؤلف

أحمد عبد الله الدامغ



الوطـــن

الوطن جزء من حياة المواطن. وحُبّهُ دليل على صدق الانتماء.. وقد قُرِنَ حب الوطن بالإيمان وبحب اللغة.. واعتبر التفريط في أي منها معنى للضياع وانعدام الشخصية وذوبانها.. ورجل بلا وطن أشبه ما يكون بالشجرة التي اجتثتها الرياح وتركتها تتدحرج في كل اتجاه، أو كريشة سقطت من جسم غراب محلق في جو السماء.

ومن لا يرى لوطنه حقاً عليه فليس بمواطن حقيقي، وإنما هو مستقر فيه كاستقرار تلك الريشة التي سقطت من جسم الغراب وهو يطير في الهواء.

ومن ينكر حق الوطن فهو أقل من مستواه الإدراكي من الحيوان.. لأن الحيوان كما نعرف يحن إلى موطنه والمكان الذي تربىٰ فيه.. والذين يتعاطون البيع والشراء في الحيوانات وخاصة الإبل، يعرفون مدى حقيقة حب الحيوان لموطنه. أعرف أن الذي يشتري الإبل في الزمن السابق يسأل بائعها بقوله: أين ولدت؟ وفي أي ناحية تربت؟ وربما أخذ وصفاً دقيقاً للمكان الذي نشأت فيه لأن الإبل كثيراً ما تنزع وتنفرد من جملة الأذواد على حين غفلة من الرعاة فتتجه نحو مراتع طفولتها. وإذا لم يجد البحث عنها فيما هو قريب من مراعي الرعاة اتجه مشتريها نحو مكانها الذي ولدت فيه وعاشت في مرابعه فيجدها هناك.. وفي هذا كفاية على التدليل بأن الذي لا يأبه بوطنه أقل شأناً من الحيوانات.. وقد ذكرت قصة مثيرة عن حب الحيوان لوطنه في كتابي «بين بيتين» تحت عنوان: «الظبي.. وبقرة عقيل يقيمان الدليل على حب الوطن» وفيها ما يعزز هذا القول.



والحكماء والكتاب والأدباء والشعراء يجددون في كل مناسبة الحث على حب الوطن. ويظهرون تفاخراً بصدق الانتماء إليه... ووطن كوطني فيه هبط الوحي، وفيه قبلة المسلمين، وقبر سيد المرسلين، ومسجدين من ثلاثة المساجد التي تشد إليها الرحال، جدير بأن ينطلق بوصفه قلم الكاتب ولسان الشاعر.. وقصيدة معالي الدكتور إبراهيم محمد العواجي هي أحدث ما قيل في تمجيده. والتي منها قوله:

وطني هذا الذي أخاف عليه
من رياح الزمان والأطماع

سطع الحق في سماه قوياً
يغرس الحب في نيوب الأفاعي

يتساوى على ثراه غنيّ
وفقير وسيد بالرعاع

فغدا الكون في حماه بهيجاً
وحدة العدل والإخاء المشاع

وطني هذا الذي أفاخر فيه
كان ما زال مصدر الإشعاع

الحضارات في يديه وشوم
شامخات بوجه كل خداع

والرسالات من مداه بدأن
وانتهين وظل للحق راع

وطني هذا الذي عشقت نداه
كان.. ما زال موئل الإبداع

○○○○○

هل هذا الرضوخ من قلّه؟!

يقف الإنسان العربي في عصرنا هذا أمام الأحداث المؤلمة التي تجتاح كثيراً من مناطق العالم بما فيها الوطن العربي، فلا يرى إلّا ما يجعله في حيرة من أمره.. فهو أينما ينظر يمنة أو يسرة يرى اضطراباً يهز الكيان. ويسمع نداء يخفق له الجنان. وصراخاً يتردد صداه في النفس بالأحزان.. ولهول ذلك الاضطراب المستمر. تتحوّل الحيرة عنده إلى بؤس وأسى. حينما ينسل من موقفه ويذهب بعيداً عن مناطق الصراع الدامي ثم يلقي نظره إلى الوراء فيجد أنه ترك خلفه فئة من قومه تعيش عيشة كلها ألم وعذاب فيقع بين براثن الحزن على ما أصاب قومه من القتل والتشريد، وما يلاقونه من أنواع الآهات، وما يصب فوق رؤوسهم من ألوان العذاب، وما يتجرعونه من تعاسة وشقاء على يد عدو شدَّتْ من أزره يد ظالمة قد دفعتها المصالح المادية وحب النفوذ إلى دعمه، بل إلى حمله على ممارسة البغي والعدوان، فازداد حقد ذلك العدو المباشر وأخذ يروي ظمأه بدم القتلى والمشردين.

ولو تأملنا بشيء من العقلانية في أسباب تمادي ذلك العدو في البطش لبرز أمامنا سؤال يقول: هل من قلة اضطهد بنو قومنا؟. وفي أسرع من البرق تأتي الإجابة: ليس من قلّة.. ويعقبها بنفس السرعة استفهام يقول: لماذا إذن؟ والجواب على هذا يتشعب ويلقي ظلاً على مساحة شاسعة يستوطنها الإنسان العربي الذي فتّ في عضده الخلاف وجعله لا يلتفت التفاتة حقيقية وصادقة إلى فئة من بني قومه تعاني ما سبق وصفه من العذاب.. ولو قابل شعور أصحاب الأقلام والشعراء المشحون بالتضجر عمل عسكري زادهُ الإيمان بالله والعزيمة على

استرداد الأرض لحلّ أمراً وفك أسراً ورد حقاً مضاعاً وضعضع كيان يهود.

وأحدث ما سطره الشعراء من عبارات مثيرة تدعو إلى لم الشمل والوقوف في وجه العدو صفاً واحداً هذه الأبيات التي نظمها الشاعر السعودي عبد الرحمن صالح العشماوي.. وفيها يقول:

يا بني أمتي جراح اليتامى
قتلت في فمي نشيد الصّفاء

ورمتني من الأسى في محيط
فأمامي موجٌ. وموج ورائي

لا تلوموا قصائدي حين تبكي
فهي مقطوعة من الأحشاء

يا بني أمتي. بكاء حروفي
لو فطنتم إليه أسماء بكاء

لو جمعنا قصائد الحزن فينا
ومزجنا بها عيون الرّثاء

واستعدنا متيَّماً حين يبكي
وروينا قصائد الخنساء

ما شفينا قلوبنا في زمان
بيع فيه الأطفال بيع الإماء

ربّ عوناً على مصائب قومي
فإليك اللجوء في البأساء

○ ○ ○ ○ ○

ابتهـــال

يفيض قلب كل مسلم، وتشرئب نظراته من إطلالة خلف رؤوس بنان كفيه اللتين يرفعهما عند تضرعه إلى الله ليرى أفقاً غير محدودة تسبح فيها ابتهالاته ودعواته التي يدفعها توجه صادق إلى الله تعالى.

وتختلف أساليب التعبير في الطلب وعبارات الترجي من شخص إلى آخر، لكنه يجمعها نبع إيمان يصب في محيط واحد.

والابتهالات والتوجهات يكون لها مواسم تتفجر فيها وتسبح متدفقةً بمنسوب أكثر في أيام وشهور معينة من السنة.. ومن تلك المواسم شهر رمضان المبارك ذلك الشهر الذي يستشعر فيه قلب كل مسلم القرب من الله حيث تتحد فيه عبارات موسمية مع عبادات مستمرة، فالصوم وقراءة القرآن وصلاة التهجد تنضم فيه إلى الصلوات الخمس مع نوافلها فيزداد قلب المسلم نوراً على نوره الإيماني المستمد من ملازمة العبادة المفروضة..

ومن تلك المواسم العشر الأول من شهر ذي الحجة، واليوم التاسع والعاشر من شهر المحرم، وغير ذلك من المواسم التي تغمر نفس المؤمن وتملي عليه البوح بما يخالجه من استبشار بفعل التقرب إلى الله في تلك المواسم.

والابتهالات التي يطلقها الناس في تلك المواسم لا تنحصر في كلمات معدودة وإنما هو دعاء يأتي به المبتهل كيف شاء وفي أي قالب تعبيري لا يخرج في معناه عن تمجيد الله وتعظيمه.. وما ينظمه الشعراء في تلك المناسبات الطيبة العطرة أكثر من أن يحصى.. والشاعر الأمير



عبد الله الفيصل آل سعود واحد من مئات الشعراء الذين يغتنمون تلك الفرص فيعبرون عما بداخل نفوسهم من توجهات ورجاءات وإعلان شكر لله في ابتهالات شعرية عطرة.. وتلك أبيات من قصيدة طويلة له عنوانها «إلى الله»:

إلهي يا رباً عبدتك طاعة
وتقوى وإيماناً بأنك تعبد

إليك فؤادي خاشعاً وجوارحي
إذا سرت أو وقفت أو أتهجد

وما دمعت عيناي إلّا توسلاً
وشكراً لنعماك التي لا تحدد

ومنها قوله:

إلهي بعد الذنب جئتك راجياً
حنانك يا من تستعان وتقصد

وأسألك الغفران رفقاً بأضلع
من الخوف نار الذعر فيها توقد

دعوتك يا ربي لتَغفر زلتي
وما أكثر الزلات حين تعدد

فما أنا معصوم ولا أنا قاصد
تحديك يا من طوعه الأمس والغد

ذنوبي وإن كانت كثاراً فأدمعي
على توبتي عنها تنمُّ وتشهد

○○○○○

أرملة زوجها حي!!!

لقد صوّر الشاعر السعودي يحيى توفيق في قصيدة طويلة تبلغ أربعين بيتاً نشرت في العدد ٩٢٢٤ من جريدة الندوة السعودية بتاريخ ٢٦ صفر ١٤١٠هـ قصة فتاة تزوجت من شاب كان فارس أحلامها، وقد حققت بزواجها منه صدق ظنها به حيث سارت الأمور بحياتهم الزوجية على خير ما يرام، وأحسن ما يتوقع مدة ثلاث سنوات، قالت عنها تلك الفتاة:

عشنا ثلاثة أعوام وعاش معي
قلبي السعيد بما يلقاه في بشر

ولكن ما الذي حدث لذلك الوئام؟.. لقد ساء صفوه وتحول من نعيم إلى جحيم لم تعد تطيقه تلك الفتاة التي فرشت أرض بيت زوجها بالحب والحنان، وملأت قلبه سعادة وهناء.

أُسْقَىٰ وأشرب كأس الحب من يده
وأجمع الليل في عينيه والبدر

حتى أتاه رفاق السوء ذات ضحى
في يوم عيد لأمر ساء من أمر

راحوا به وفؤادي كاد يتبعه
لسهرة في خضم الليل والبحر

وماذا فعلت له تلك الرفقة السيئة الخلق والأخلاق؟ لقد سهلوا له كل أمر وفعل شائن، وهيؤوا له كل ما يكفل لهم بقاءه بينهم من

مخدرات وغيرها حتى صار واحداً منهم، تقول: أو بالأصح يقول يحيى توفيق على لسانها:

أغووه ـ بالله قل لي ـ كيف طاوعهم
ولم يكن في غواة «الشمِّ» والخمر

إنها رفقة السوء تفعل الأفاعيل المدمرة، فهم أناس قد تورطوا في الفساد وأدمنوا المخدرات إدماناً لم يستطيعوا التخلّي عنه فغبطوا من لا يعرفها بل حسدوه، فأخذوا يُزَيّنون فعل السوء لكل من يعرفون ومن لا يعرفون حسداً من عند أنفسهم، وطمعاً في إغراق الناس فيما غرقوا فيه من شر وبلاء.

ورفقة الشر إن أدمنت صحبتهم
لا بد أن تألف الإغراق في الشر

وتصور تلك الفتاة حالة زوجها وما آل إليه من ضياع وتدهور شقيت هي به:

أمسى حطاماً سقيماً هائماً قلقاً
في شقوة النفس لا يصحو من الخدر

ثم تصور حالتها وما مسها من ضُرّ بسبب انحرافه الذي أصبحت معه كالأرملة، فهو يعيش معها بجسمه، أما عقله وروحه التي كانت تعهد فيها الرجولة والإباء فقد ماتت وقضت عليها أنواع المخدرات، تقول:

وبت أرملةً زوجي يعيش معي
الروح قد رحلت والجسم في حجري

والحقيقة أن الشاعر السعودي يحيى توفيق قد وفق أيما توفيق لنظم تلك القصيدة التي عالج بها مشكلة هي من أخطر المشكلات وأشدها ألماً وأعظمها فتكاً بالمجتمع الذي تجد لها فيه مكاناً بين أفراده وجماعاته.



برنامج بقية العمر

تمضي الحياة بالإنسان مضيّاً يصل به إلى السن التي لا تتفق طبيعتها والسن الشبابية التي تركب آمالاً تصول وتجول في ساحات الطموح الدنيوي فتذلل في سبيل الوصول إلى الهدف الذي تنشده كل عقبة.. وتجتاز كل حاجز يعترض طريقاً فيه تحقيق لأمنيتها.. وتطير نحو كل أفق ترف فوق رباه وتحت سمائه بارقة السعادة لتنعم بوافر عيشه وتستقر تحت نعيم أمنه.. ولكن هناك مرحلة من العمر تكمن في زواياها عوامل تكبح انطلاقة تلك الآمال العراض.. وتستوقف بقوة كبحها نشاط كل إنسان ما زال يمارس الحياة المتعددة الجوانب والاتجاهات.. وهي بالإضافة إلى ذلك ـ وأعني المرحلة ـ تمثل بحكم وضعها الزمني بداية التوجه إلى نقطة النهاية.

ولعل ما بعد الستين من عقود هي بحبوحة تلك المرحلة.. والذي يحسن التكيف مع عوامل الزمن ويلبس لكل عقد لبوسه هو ذلك الشخص الذي يضع بحكمته برنامجاً لبقية عمره حتى لا يسأم من الحياة ولا يتسرب إلى نفسه الملل منها.

وأفضل مادة لبرنامج تلك المرحلة هي القراءة والكتابة لمن وهب ذلك، بالإضافة إلى تدبر كتاب الله العزيز الذي لا تنتهي جدته ولا تمل قراءته.. ولا أذهب بعيداً في البحث عما قيل في هذا التوجيه الهادف من شعر.. فهذه قصيدة للشاعر السعودي محمد المجذوب عنوانها ـ بعد الثمانين ـ قد اشتملت على رأي صائب في الحث على وضع برنامج لبقية العمر على النحو الذي ذكرته آنفاً. ومن تلك القصيدة قوله:

إن الثمانين التي شيعتها
عصفت بروضك فهو قفر بلقع

فدع الشكاة لغير ربك.. إنها
محض الهوان وظلمة لا تقشع

والجأ لسيدك الذي لا تأتلي
أبداً بفيض حنانه تتمتع

وقوله:

وكتاب ربك.. إن في نفحاته
من كل خير فوق ما يتوقع

نور الوجود وأنس كل مروع
بكروبه ضاق الفضاء الأوسع

والعاكفون عليه هم جلساء من
لجلاله كل العوالم تخشع

فادفن همومك في ظلال بيانه
تحلو الحياة وتطمئن الأضلع

فبكل حرف من عجائب وحيه
نبأ يبشر أو نذير يقرع

○○○○○

ظل الخمسين

تحت عنوان «قسوة الطين» نظم الشاعر السعودي مقبل عبد العزيز العيسى قصيدة شكا فيها من ظل الخمسين التي أقلت بأفيائها عليه عجلة الزمن.

والحقيقة أن عبارة «ظل الخمسين» الواردة في القصيدة ربما تؤدي إلى تحديد تقريبي لسن الشاعر، مما يقرر أنه قد أنهى العقد الخامس من عمره أو أنه على مشارفه، كما يحتمل أنه خلّفه وراءه وانطلق يَعُدُّ خرزات العقد السادس، لأن عبارة ظل الخمسين توحي إلى أن العقد الخامس من حياته قد مال إلى الانصراف ولملم باقي أيامه ولياليه، ولم يترك إشارة على الطريق يفهم منها أن القادم من العقود الزمنية يسمى معترك المنايا.. وأن واحداً منها لا بد أن تكون فيه نقطة النهاية الطبيعية.

ولعل في تشكي الشاعر مقبل العيسى من سلب الشيب لرياحينه، واكتوائه بنار الضعف، يعطي الدليل على التقدم في السن، وأنه قد اجتاز العقد الخامس، وهبط إلى أرضية العقد السادس، بإقدام أقل جلداً، وخطوات أثقل حركة مما كان يعهده بها فيما خلّفه من عقود زمنية تمنى كثير من الناس عودتها، وهيهات هيهات أن تعود.

والعيسى ليس هو وحده الذي يقدم كشفاً بما يعانيه من السنين وما أوقرته به من أحمال أضعفت بثقلها وصعوبة مقاومتها سائر أجزاء الجسم، بل هناك الكثير من الشعراء الذين يظهرون تظلماً وتشكياً من معاناة مقاومة السنين التي تمتص بطريقة غير مباشرة حيوية الجسم



ونضارة البشرة، وقوة الحواس، لأنها لا تأتي دفعة واحدة، وإنما هي موزعة نشاطها توزيعاً نسبياً على عقود كل عمر.. مراعية في ذلك زيادة نسبة التوزيع ببداية حلول العقد السادس، ومن بعده تزداد نسبة النشاط عقداً بعد عقد زيادة ملحوظة حتى تصل بالإنسان إلى درجة لا يعلم معها من بعد علم شيئاً.. ولولا رغبتي في الاستشهاد بشعر من شعراء عصري لأوردت على ذلك من أشعار الأقدمين الشيء الكثير.. ولهذا السبب أورد أبياتاً من قصيد مقبل العيسى:

يا قلبي الشاكي
هل أنت.. تبكيني

أم أنني الباكي
في ظل خمسيني

فالوقت يا قلبي
قد بات يطويني

والشيب يسلبني
شتى رياحيني

فأين لي جلد؟
والضعف يكويني

وأين لي نشب
والطبع يغويني

أينتهي جلدي
يوماً إلى لين

والطبع من جسدي
يرتد للطين؟؟

جسارة العرب على ارتياد الفضاء

يمتاز الرجل العربي بالجسارة والمضاء واتخاذ القرارات الحاسمة بنفس شجاعة وقلب أصمع لا يهاب الموت ولا يخشى المعضلات.. فلا الخوف يثني عزمه عن المضي في درب قرر السير فيه.. ولا المجهول يقف حاجزاً دون كشف أسراره.. يركب راحلته ويمضي في متاهات الصحاري والقفار. لا الوحوش ولا ظلمة الليل ولا الوحدة في السفر تمنعه من السفر واختراق المهامه والمفاوز. أو تثني عزمه عن بلوغ هدف قرر الانتهاء إليه.. دليله في ذلك النجم وليس له سواه هادياً.

ولقد نما ذلك المضاء وتلك الجسرة مع الإنسان العربي فكانا رفيقين له في زمن الحضارة والتحضر، كيف لا وقد نافس أصحاب الفكر والعلم والصناعة المتقدمة بقلبه الجسور ونفسه التي تمده بالعزم القوي الذي يبدد المخاوف ويتحدى الأخطار..

ولقد ظن غير العربي أن حب الحياة الذي يغمر قلب الإنسان بصفة عامة قد توغل في قلب الإنسان العربي المعاصر أكثر من غيره فأوجد في نفسه جبناً وطباعاً حولته عن عهد أجداده الذين سطر لهم التاريخ أروع مثال في الجسرة على خوض غمار المهامه وخرق المفاوز والمتاهات التي لا يعيش فيها إلا الوحوش والسباع وجوارح الطير.. لكن الشاب السعودي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود حطم تلك الظنون وبدَّد تلك الأوهام بموافقته على الاشتراك في رحلة الفضاء بقلب ثابت لا تزعزعه الأخطار ولا تخيفه الأوهام حيث مضى

في مركبة الفضاء - ديسكفري - الأمريكية الصنع متعشقاً ركوب الأخطار. فحياة العرب والمسلمون جميعاً ومن بينهم الكتاب والشعراء حيث تدفقت الأقلام وتبارت القرائح في الإشادة به وبإقدامه ورباطة جأشه. ومن الأشعار التي قيلت بتلك المناسبة قصيدة الشاعر.. رياض عز الدين قويدر، منها قوله:

سجلت مجد بطولة وذكاء
يا رائد الطيران للعلياء

ونسجت للعرب الكرام تشامخاً
ركِبَ السحاب وطار في الجوزاء

إذ أنت أول رائد من أمة
ورثت نقاء شريعة سمحاء

يا رائد الطيران من أجل النهى
شرّفت مقعد مركب لفضاء

يا رائد الصحراء في درب العلا
قد صرت رائد سجدة ودعاء

صليت في قلب السماء تقرباً
لتكون أول ساجد بسماء

وحملت قرآن السماء لأنه
آي الإله لمنهج وصفاء

في كل حرف من بديع كلامه
نهج يضيء الدرب للأحياء

○○○○○

عباس بن فرناس وفكرة الطيران

عباس بن فرناس هو حكيم الأندلس. وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة. وهو أول من فك بها كتاب العروض للخليل. وهو أول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمنقانة ـ وهي الساعة ـ ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال. ولقد تمادى في التفكير إلى البحث في الطيران. قال صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: واحتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه، فتأذى في مؤخره، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكّه، ولم يعمل له ذنباً. وقد توفي عام ٢٧٤هـ... ومن هذه الحكاية يصبح الإنسان العربي هو أول من فكر في الطيران، وهو أول من أجرى تجربة تطبيقية على نفسه، وما تلك منه إلا جسرة وإقدام وراءه قلب شجاع يبحث عن معطيات تؤدي إلى حقائق ثابتة وبراهين قاطعة.

وكما قلت بأن القلب العربي جسور، فهذا أحد شباب المملكة العربية السعودية وهو الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود قد أقدم على المشاركه في رحلة فضائية خارج محيط جاذبية الأرض على المركبة ديسكفري لوكالة الفضاء الأمريكية ـ ناسا ـ.

إذاً هناك محاولة طيران من عباس، وهنا جسرة على اختراق جاذبية الأرض إلى الفضاء الخارجي البعيد، وفي تلك الحالتين وإلى ذينك الرجلين يقول أحد الشعراء:

شاركت «ناسا» على هام من الحقب
ليهنك اليوم يا سلطان بالغلب

يا رائداً دأبه الأفلاك متخذاً
سُرى الكواكب للإنسان عن كثب

أصدقتنا حلم أزمانٍ قد انصرمت
لم يرقه من شباب قبلُ ذي دأب

ودّعتَ هذا الثرى حلّقتَ تنشرهُ
بين المجرّات للسارين بالنقب

لن تخلف الوعدَ نظرات بسطتَ لها
عظيم سعيك في شاوٍ من الرُّتب

جليلةٌ لم تكن عزلاء عن بلدٍ
صاغَ ابن فرناس منها مركب الزَّغَبِ

واليوم «ناسا» أعدّت من قواعدها
عربيَّة لاختراق الجو والسحب

حلّق هناك بإذن الله منتصراً
وارجع معافى بعون الله والحدب

○○○○○

الفراغات في الأبيات تنفي عن الشاعر الاتهامات

نلاحظ أن بعض الشعراء يضع قدمه بكل أناة وتؤدة وتروي عندما يهم بالإبحار في رحلة حب يكون زورقها الخيال ومجدافها التخيل، ولهذا فهو يَعُدّ نفسه مخاطراً عندما يذكر صفة من بدأ رحلته في أعماق حبها.. لأنه إن قال إنها سمراء يكون مهدداً من قبل الغراء والبيضاء، والعكس في التهديد والوعيد يحصل له من السمراء والسوداء، إن فضل عليهما البيضاء والعفراء.. خاصة إذا كان الشاعر يتعامل في حبه مع جميع ألوان الجنس اللطيف.

والحقيقة إنه موقف صعب، ومشكلة يواجهها كثير من الشعراء الذين يملي عليهم الخيال شعر الغزل.. أما الذين لهم موقف ثابت من اللون الذي تملي عليهم جاذبيته حقيقة حبهم له، وتفرض واقعيته التي يترجمها إنسان العين البوح بشعورهم الصادق نحوه فلا خطر، ولا خشية عليهم من ملامة أصحاب الألوان الأخرى، لأن الالتزام قد حصنهم ودرأ عنهم الخوف ووقاهم شرّ الملامة.. والذين لا يقدمون على وضع مقارنة حقيقية فيما يميلون إليه من الألوان يحسنون التصرف في كثير من المواقف الشعرية.. وحيث أن كلمة «سمراء.. وعفراء.. وبيضاء.. وشقراء.. وسوداء.. وغراء» متساوية في ميزان الشعر واللحن الموسيقي، وكل منها متطابق في نغمته، فإنهم يضعون مكان تلك الكلمة أصفاراً ليوهموا بها السمراء بأنهم يقصدونها، كما تظن الشقراء أنها هي المعنية، وكذلك بقية أصحاب الألوان التي على وزنها. «فعلاء».

ولقد قرأت موضوعاً للكاتب السعودي يحيى المعلمي أشار فيه إلى أن صديقاً له ـ لم يذكر اسمه ـ كان يكتب الشعر العاطفي، وأنه يجعل قصيدته

كالعملة ذات الوجهين، فهو يضع مكان الصفة لمن يشبب بها أصفاراً عندما تدعوه الحالة إلى ذكر لونها، حتى لا يتهم بالانحياز إلى لون معين، فيناله غضبُ مَنْ فضّل لوناً غيره على لونه.. ومما قاله صديق المعلمي في ذلك:

إيـــه (...) ألـــف أهـــلاً وســـهـــلاً
فيك يحلو الهوى ويحلو الغناء

جئت هيمان يملأ الحب قلبي
ومـــن الـــحـــب تـــزهـــر الأفـــيـــاء

ومن الحب ما. ينضر وجه الكو
ن فـــالـــكـــون كـــلـــه أنـــداء

ومـــن الـــحـــب بـــهـــجـــة.. ونـــعـــيـــم
ومـــن الـــحـــب لـــوعـــة وشـــقـــاء

ومن الحب يصنع الليل فجراً
ويـــزول الـــظـــلام فـــهـــو ضـــيـــاء

ونـرى الـحـسـن حـولـنـا فـإذا كـل
فـــتـــاة مـــلـــيـــحـــة. حـــســـنـــاء

تـــســـبـــيـــنـــا (...) حـــتـــى إذا مـــا
لـــحـــت غـــنـــى الـــجـــمـــال يـــا (...)

وكـسـيـن الـجـمـال حـتـى إذا جـئـ
ت تـــلاشـــىٰ الـــجـــمـــال والإغـــراء

وكما ترى أيها القارئ الكريم.. فإنه يصلح أن نضع مكان الفراغ الذي تركه الشاعر اسماً أو وصفاً على وزن، شقراء، أو بيضاء، أو سوداء، أو فرعاء، أو غراء، أو ميثاء، أو نجلاء، أو هيفاء، أو عذراء، أو ما شاكل هذه الأسماء والصفات.

أبو تراب والقصيبي يفضحون غطرسة بعض مديري مكاتب المسؤولين

إذا حصل للأديب البارع والكاتب المبدع موقف مثير فإنه لا يتوانى عن تسجيله وطرحه للمناقشة بأسلوب أدبي يفرض على المؤلف الذي يتصيّد الموضوعات الاجتماعية الشيقة اختطافه.. وحكاية الشيخ الفاضل والكاتب المبدع واللغوي البارع أبي تراب الظاهري، واسمه الحقيقي عبد الجميل عبد الحق الهاشمي، مع مدير مكتب وزير من الوزراء، والتي أضفى عليها بأسلوبه الشائق مسحة الأدب الرفيع المطعمة باللهجة اللاذعة، وطالما أن أبا تراب لم يذكر اسماً ولا مكاناً ولا هوية لتلك الحكاية وذلك ترفعاً منه عن الإحراجات والانزلاق في المهاترات، فإني ناقل ما قاله، لعل فيه عبرة واعتباراً لمن يملك أمر الإذن بالدخول على المسئولين.. قال أبو تراب: فوقفت على رأس هذا المدير، لا أفصح بأنه مدير مكتب الوزير أو مدير مكتب السفير في إحدى الدول، فأنا في غنى عن توقّد الشر وهو في منجاة مني لا أبوح باسمه، ولو اشتدّ إخلاده إلى الأرض، فيوماً ما تشرئب له الأحداث، ويبدو له المحشر فيرى ماذا تنشر له الأوراق.. وطال وقوفي، واعتراني التعب فجلستُ على كرسي فارغ بجانبه مقنعاً رأسي أرنو إليه بطرفي فتلطف بالسؤال، فقلت: أريد المقابلة فقال السفير أو الوزير غير موجود.. هكذا بهذه الجملة اللاطمة على خدي، وأنا الذي أسمع صوت مَن أودّ مقابلته في غرفة لاصقة بمقعدي، فاستعملت القليل من الذكاء، لأريه مقامي من مقامه ومنزلتي من منزلته، فرفعت صوتي بكلمات التوديع، وأنا جهوري الصوت، فإذا بذلك المقصود من الزيارة

حينما سمع صوتي يخرج من الغرفة ليستقبلني، وهكذا كانت لطمتي على صفحة خده، وضربتي لينكشف ثم ينكسف شعاعه الكاذب.

وزاد حزنه حينما أوصاه ذلك المزور بي، بل كلفه ببعض ما كنت في شأنه مشيِّع الجنان.

ورجعت أدراجي، وأنا أتذكر أني كتبت يوماً عن مديري المكاتب هؤلاء على أصنافهم، وسعْدهم ونحسهم وتطنيب مخيماتهم وتحملهم وزر الناس، فقلت أكتب هذه الكلمة للذكرى، ولكني أذيلها بما قرأت منذ عهد طويل للصديق الودود الفاضل، الشاعر المبدع الحصيف الدكتور غازي القصيبي في موضع كهذا، فهذا أنسب بالمقام.. ثم أورد قصيدة القصيبي التي فضح فيها غطرسة بعض مديري مكاتب الوزراء والوكلاء وغيرهم ممن لا يقابلهم المراجع إلا بالاستئذان منهم، منها قوله:

قم للمدير ووفه التبجيلا
كاد المدير أن يكون الغولا

أرأيت أفظع أو أشد من الذي
«لطع» المراجع حين جاء طويلا

ومنها قوله:

قال الوزير بلجنة «فتسهلوا»
يا ربعنا لا تشغلوا المشغولا

من «لجنة» لزيارة «لصخونة»
عذراه تدع السليم عليلا

وإذا أتاه من «المعارف» زائر
أبدى له الترحيب والتأهيلا

في لمحتين إلى الوزير يزفه
ويدق من فرح اللقاء طبولا

وإذا أتاه موظف من ربعه
فلقد تسهل أمره تسهيلا

و«الآخرون» إذا أتت طلباتهم
نامت على الرف المكدس جيلا

○ ○ ○ ○ ○

في قافلة الحطيئة

كان الحطيئة يعد من أشهر شعراء الهجاء في الجاهلية وصدر الإسلام، لكن الزمان لم يبخل بمثله من الشعراء.. أقول لم يبخل بمثله لأننا نجد من خلال مطالعاتنا لدواوين الشعر، الكثير من الشعراء الذين نهجوا نهج الحطيئة في هجاء الناس، بل منهم من استطاب أسلوبه في هجاء غيره ونفسه معاً.. فهذا الشاعر محمد بن إبراهيم المعروف بشاعر الحمراء ينضم إلى قافلة الهجائين الذين أوسعوا أنفسهم هجاء وسخرية.. فقد تفنّن في إحدى قصائده التي خص بها ذاته، وجعل عنوانها «اعترافات شاعر» حيث كشف عن سياسته المتناقضة مع نفسه.. يقول في أبيات منها بأسلوب تعجبي.. إنني أهزل عند الجد، وأجد عند الهزل، ويشير إلى أنه يتعاطى الخمر الذي يجعله يجرد نفسه بسكره من ثيابه ونعاله.

وقضيت عمري هكذا في تناقض
ففي الهزل ذو جد وفي الجد ذو هزل

وكم يوم كدت تبصرني به
وجسمي بلا ثوب ورجلي بلا نعل

ويمضي في إعلان تناقضاته مع نفسه مشيراً إلى أنه ذو فضل لكن فعله المشين غمر فضله وغطاه حتى أصبح بلا فضل رغم أنه فاضل على حد قوله:

أما هذه الأخلاق غير حماقة
يؤيدها العقل السليم من الخبل



نعم أنا ذو فضل فغطته سيرتي
فما أنا ذو فضل وإن كنت ذا فضل

وأغضب حتى أستحيل جهنما
وأحلم حتى أبدل العز بالذل

ويعلن أنه بشربه الخمر وعربدته تسوء أخلاقه فيعمد إلى فعل المعاصي عن رغبةٍ كونتها عربدته في نفسه فجعلته يهرول نحو ارتكاب الخطايا وممارسة الآثام التي لا تليق بعقلاء الرجال:

وعربدتي في الشرب ترغم مبصري
ليخلد في عينيه لي نظرة الذل

وأغدو إلى فعل المعاصي مهرولاً
وإن أقصد الطاعات فالقيد في رجلي

ويقرر شاعر الحمراء في نفس قصيدته التي اقتطفت منها الأبيات السالفة والتي جاءت ضمن دراسة قام بها الأستاذ عبد الكريم غلاب تحت عنوان «عالم شاعر الحمراء» وقال في تعليقه عليها: «وهي من الشعر الذاتي التي تبدو ضمن قصائده الذاتية، أروع شعر قاله صدقاً وتعبيراً، ووصفها بأنها نفحات نواسية، أقول: ويقرر شاعر الحمراء بأنه ليس في عيشة راضية، وأنه لا يشد على كف لطاعة الله، ولهذا فهو يطلب من الله أن لا يكثر من أمثاله في خلقه، وهذا يعد اعترافاً يدخل بمفهومه في دائرة هجاء النفس حيث يقول:

فلا عيشة ترضي ولا كف طاعة
فلا أكثر الرحمان في خلقه مثلي

○ ○ ○ ○ ○

الموت داء ليس له داوء

يصاب المرء بالسقام ويتولى الطبيب الماهر ذو التجارب والخبرة تشخيص المرض، ويقع على العلة فيعطي العلاج الناجع فيبري المريض، ويستصح صحة يكون بعدها كأن لم يكن قد أصابه داء. أو مسّه مرض. أو شكا من ألم.

ومنذ أن عرف الطب والأطباء، يحثون الخطا في تسابق لا يتوقف عن كل ما يزيد في علمهم، وينمي مواهبهم في مجال الطب العلاجي.. ويظهرون مهاراتهم في دراسة ما دق وخفي من جسم الإنسان من أجل الإحاطة بأنواع الأمراض التي تصيب الأعضاء الدقيقة، وتختلف طبيعة إصابتها من عضو إلى عضو، وتتباين في قوة التأثير وشدة الإصابة.. والطبيب الذي يحيط علمه بخصائص أعضاء الإنسان ووظائفها، هو الذي يعرف كيف يعالج المرض الذي حل بجسم المريض بكل براعة وثقة.

لكن داء الموت الذي لا دواء له إذا حل لا تجدي فيه مهارة يد الطبيب ولا خبرته وطول تجاربه، وهذا هو ما أشار إليه ظافر الحداد في قوله من قصيدة له. يقول فيها:

يا بني الهالكين هل من وقاء
لكُمُ من مصارع الآباء

وإذا ما الأصول جفت فما يطـ
ـمع فرعٌ من بعدها بالبقاء

كل داء له دواء وقد أعـ
ـجز داء المنون كل دواء

سلّطت حيلة العقول على
كل ما خفىٰ من غامض الأشياء

وتناهت في الموت بدءاً وعوداً
فأقرَّت بالعجز والإعياء

كم ثوى تحت قبة الفلك الأعـ
ـلى من الخلق بين ترب وماء

وفيها يقول:

ولعمري لو عاشت الخلق طراً
ورمى الموتُ واحداً بالفناء

لاقتضى الحزم أن نخاف إذ المم
كنُ في العقل جائزُ الإمضاء

○ ○ ○ ○ ○

مصاحبة الكتاب

إن بلوغ العلم والغوص في أعماق المعرفة لا يأتي إلّا بملازمة الكتاب واستمرار التفرغ له. والمداومة على استذكاره. ومواصلة مجالسة الباحثين ومزاملتهم.

.. والتفرغ لملازمة الكتاب أمر أساسي في طلب العلم والمعرفة ولهذا فقد أجمع العلماء والكتاب والشعراء على أن المرء إذا كانت له حوائج أو مشاغل فإنه يتعذر عليه استيعاب ما يسمع أو فهم ما يقرأ، لأنه يكون باله وذهنه متعلقين بقضاء حوائجه، ومفكراً في مباشرة شغله.

رأى أيوب بن أبي تميمة السختياني صاحباً يبادر حاجة، فقال له: قم فإني لو علمت أن أم نافع تحتاج إلى دستجة بقل ما قعدت معكم.. أراد أن من حق حاضر مجلس العلم أن يكون فارغ البال قد قضى حوائجه.

والتفرغ لطلب العلم وملازمة الكتاب له فوائد لا يمكن حصرها أو إحصاؤها هنا وذلك لكثرة تعدادها، فأعلاها مثلاً الانتهاء إلى ما غزر من العلم وعمق من المعرفة، وأدناها التخلص من مجالسة السفهاء والجهلاء من عامة الناس.

ولمحمد بن بشير الرياشي شعر يحقق ذلك، ويفنده تفنيداً واضحاً وغنياً عن الشرح والتعليق والمناقشة، إذ يقول:

خلوت في البيت أرضى بالذي رضيت

به المقادير لا شكوى ولا شغب



فرداً يحدثني الموتى وتنطق لي
عن علم ما غاب عني عنهم الكتب

هم مؤنسون وآلاف غنيت بهم
فليس لي في أنيس غيرهم أرب

للّه من جلساء لا جليسهم
ولا عشيرهم للشر مرتقب

فأيما أدب منهم مددت يدي
إليه فهو قريب من يدي كثب

إن شئت من محكم الآثار ترفعه
إلى النبي ثقات خيرة نجب

أو شئت من عرب علماً بأولهم
في الجاهلية أنبتني به العرب

حتى كأني قد شاهدت عصرهم
وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

○○○○○

يطغى الحب فيصل إلى درجة اللعن

قرأت في مجلة المقالات التي تصدر في المغرب نقداً لقصائد عبد الرحمن شكري جاء فيه: وتجاوز عبد الرحمن شكري في كثير من شعره الذي يتحدث فيه عن المرأة كثيراً من هذه التقاليد، ويعني بالتقاليد ما يظهر بعضهم من حب لمحبوبته ثم يتمنى موتها، وقد سمى عبد الرحمن شكري حبيبته في عنوان قصيدة له «صنم الملاحة» وكثير ما هدد الحبيبة المعتزة بجمالها، بالزمن الذي سيذري بمحاسنها وبالموت الذي يحول الجسد الفاتن إلى هيكل عظمي بعد أن تتغذى الديدان باللحم الذي كان مغرياً، ومن أغرب قصائد شكري تحدياً لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في الشعر العربي قصيدته «بين الحب والبغض» التي يبدؤها بتوجيه اللعنات إلى حبيبته ثم يعلل لعنه لها بقسوتها وتباعدها... يقول:

رمى اللّه في عينيك بالسُهد والعمى
ولقّاك من دنياك صاباً وعلقما

وعلمك السهد الطويل على الأسى
إذا حل همّ في الفؤاد وخيما

وأتلف طول الهم عينيك بالبكا
إذا ما مضى دمع بكيت له دما

وخلف فيك اليأس كالسم في الحشا
تعالج داء من هواه مكتما

لقد كنتِ في عيني ألذ من الكرى
وأطيب من طيب الحياة وأكرما

وجودت فيك الشعر والشعر ساحر
وهل تسحر الأشعار غراً وأعجما

فما ازددت إلا قسوة وتباعداً
وما ازددت إلّا غلظة وتجهما

جنيت على نفسي فليس بنافعي
إذا صال خطب أن تصاب وأندما

وهذه الصورة تعد طغياناً في الحب بل طوفاناً بلغ درجة التدمير والتخريب.. وعبد الرحمن شكري ليس هو الأول الذي دعا على محبوبته بل إن هناك من العشاق من استعمل هذا الأسلوب.. والمطلع على شعر شعراء الغزل يشم من بعض قصائدهم هذه النكهة.. لكن اللعنات التي يوجهونها لا تعني الحقد والكراهية وإنما تعني الوصول إلى قمة الشوق الذي لم يتحقق له مطلب.. ليس إلّا.

○ ○ ○ ○ ○

التفكير يقي من سوء التدبير

لا يختلف اثنان في أن الناس يختلفون في مواقفهم من الحياة ويتباينون في عاداتهم وطباعهم وتقاليدهم. وفي تصرفاتهم وتعاملهم مع زمانهم وأهل زمانهم.

.. والحكيم منهم هو ذلك الذي إذا لم يجد أذناً صاغية لما يقول، لزم الصمت.. وإذا سلك طريقاً ثم تبين له التواؤها رجع منها ليلتمس طريقاً سمحة لا عوج فيها ولا التواء.. وإذا رأى الناس قد عاثوا فساداً في الضياء واستغلوه لما لا يصلح شأن حياتهم لزم البقاء في الظلام حتى لا يقع فريسة بين حابلهم ونابلهم إلى أن يرى الفرصة مواتيةً لخروجه.

والتراجع بصفة عامة عن كل شيء لا يتفق مع ما أدّب به المرء نفسه من آداب سليمة المنهج وواضحة المعلم هو الذي يحقق لنفسه من مكان الانتظار فرصة التقدم والمضي إلى حيث الهدف الذي يطمع في الوصول إليه.

ولهذه الاعتبارات التي تحقق بالتراجع فوائد ملموسة وإيجابيات محسوسة سُمي الشخص الذي يستمر في المضي في الطريق الأعوج، ولا يخرج من الدائرة ـ أحمق ـ والأحمق يقوده حمقه في كثير من المواقف إلى القيام بأفعال مجهولة النتائج، بل سيئتها. فيغرق في أوحال، حال دونه ودون التراجع عنها حمقه وسوء تفكيره.

تقول الدكتورة إخلاص فخري عمارة من قصيدة لها تضمنها ديوانها «الطائر المهاجر» وسمتها «تراجع»:



سأغمض عينيّ كرهاً وأنام
وأغرق في الليل والظلمة

وأبطئ في الخطو أزحف هوناً
فكم أتوجّس من عثرتي

وأملي إذا رقّ لي سامع
وإلّا سأحبسُ أُنشودتي

وأقبع في الدار مستسلماً
فلست بعبء على رفقتي

وأطفيء ضوء السراج المنير
فما لي إلى الضوء من حاجة

أنام طويلاً وأغفو كثيراً
تماثل نومي مع اليقظة

وقد ختمت الدكتورة عمارة هذه القصيدة التي بلغت أربعة وثلاثين بيتاً بأبيات ابتهالية منها قولها:

إلهي شكرتك في نعمتي
وها قد صبرت على شقوتي

لك الحمد حمداً بغير انتهاء
إليك أتوب من الزلة

○ ○ ○ ○ ○

الثقيل

قالوا إذ علم الثقيل أنه ثقيل فهو أديب، وهذا قول يُهذّب من أخلاق الثقيل ويجعله يتعامل مع الناس تعاملاً لطيفاً يغير من نظرتهم إليه ويخفف من نسبة ثقله.. أما إذا جهل الثقيل أنه ثقيل فذاك ما يزيد في ثقله. ويجعله غماً على صدور الذين يجالسهم فتعادل ساعاته عندهم أياماً وأشهره سنيناً.

ولا أريد هنا أن أنقل ما استودع في كتب التراث من صور للشخص الثقيل ولكن الذي أود عرضه هنا هو التساؤل: هل الثقل شيء تجبل النفس عليه؟ أم أنه خصلة تكتسب؟.. والإجابة على هذا التساؤل ربما يختلف عليها أصحاب الآراء اختلافاً متبايناً، إذ أن فريقاً منهم يرى أن الثقل شيء تجبل عليه النفس ولا يستطيع الثقيل التحكم في أمر استئصاله أو أنه لا يرى ولا يشعر أنه ثقيل لأنه ولد معه الثقل وعانق نفسه في النمو والكبر. وليس هناك مجال لاستغرابه.

.. وفريق ينكر أن يفطر الإنسان على الثقل ويجبل عليه. وإنما هو شيء مكتسب ربما اسْتُعْذِب في البداية لأمر ما فتأصل في النفس حتى استحال الإقلاع عنه في النهاية.

أما تعشق الثقل والاتصاف به فإنه يعني الاتصاف بالسخافة واللؤم والتجرد من مقومات الصداقة، وقتل البشاشة، وطمس الابتسامة وانتزاع البهجة والسرور من وسط المجتمع الذي يحل به عاشق الثقل.

.. يقول الشاعر أحمد على فره في قصيدة نشرتها له المجلة العربية التي تصدر من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية في عددها ١٤٧ ربيع الثاني سنة ١٤١٠هـ منها قوله:



أبحر من البغضاء أم أنت أبحر
كأنك من سخف النفوس مصورُ

إذا جئتني والقلب نشوان عامر
وزهر مسرات الحياة منورُ

تقصف غصن الزهر واسودّ خاطري
وبات عباب الهم بالقلب يهدرُ

فيالك من جسم يشع كراهة
ويدنو كما يدنو البلاء المقدر

حديثك سم يقتل البشر والهوى
ويطوي علينا كل سوء وينشر

فديتك خلي ما أنا لك مبغض
ولا أبتغي شراً يسيء ويكدر

ولكنني أبغي دوام بشاشة
فهل تختفي عني وهل أنت تهجر

وما أدعي أني أذوب لطافة
وأن حديثي السحر أو هو أسحر

○○○○○

بعض القصائد. تشبه روشتة الطبيب

إذا كان الطبيب أديباً وشاعراً وكاتباً. فذاك ما يكون منه، نور على نور، إذ أن المرضى أنواع، والمرض كذلك أنواع، وكل نوع يحتاج إلى علاج خاص به فالمرضى ليسوا كلهم مصابون بعلة جسمية معينة يمكن معالجتها بالعقاقير التي يتم مزجها وتركيبها بنسب يقدرها أصحاب المهن.. مثل ما أن المرض يكون متنوعاً فمنه ما يصيب المفاصل والعظام، ومنه ما يصيب القلب والكبد والأمعاء، وإنما هناك مرضى وأمراض لا تشخص، وبالتالي لا تخضع لتأثير أي عقار، وإنما هي أمراض نفسية يعالجها الطبيب بأسلوب تتمازج فيه العبارة المؤثرة مع الذكاء والأدب تمازجاً يلفه النصح باتباع نظام حركي وتفكيري.. ومن الأطباء الشعراء من ينشئ القصائد بذلك المزيج من التعبير فيبرمج فيها الخطوات الصحية التي يحسن بالمرء اتباعها ليحتفظ بصحته إن كان صحيح الجسم وليطرد بها الأسقام والأوهام وسائر الأمراض النفسية والعضوية.

وهذه الأساليب العلاجية سواء منها ما يكون بالعقاقير أو بالأساليب التي تعالج بها الحالات النفسية كما أسلفت قد مهر فيها كثير من الأطباء القدامى الذين اهتم بذكر تراجمهم كثير من المؤلفين كابن أبي أصيبعة الذي ضم كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» حشداً كبيراً من طبقات أطباء اليونان والسريانيين والهنود والعجم.. والذين ظهروا في صدر الإسلام، وفي بلاد المغرب، وفي العراق والجزيرة وديار بكر، وفي الشام، وفي مصر وغيرها.

ومن القصائد التي هي أشبه ما تكون بـ«الرشته، التي يقدمها طبيب

اليوم لمريضه»، قصيدة للطبيب الشاعر أبو المؤيد محمد بن المجلىٰ المعروف بالعنتري.. والتي منها قوله:

احفظ بنيّ وصيتي واعمل بها
فالطب مجموع بنص كلامي

قدم على طب المريض عناية
في حفظ قوته مع الأيام

بالشبه تحفظ صحة موجودة
والضد فيه شفاء كل سقام

أقلل نكاحك ما استطعت فإنه
ماء الحياة يراق في الأرحام

واجعل طعامك كل يوم مرة
واحذر طعاماً قبل هضم طعام

لا تحقر المرض اليسير فإنه
كالنار يصبح وهي ذات ضرام

ومنها يقول:

لا تشربن بعقب أكل عاجلاً
أو تأكلن بعقب شرب مدام

ومنها يقول:

إيّاك تلزم أكل شيء واحد
فتقود طبعك للأذى بزمام

○ ○ ○ ○ ○

رثـاء ماجـن

ولا يبكي على من فارق الحياة وهو مكب على الرذائل والمعاصي إلَّا الذين انقطعت بسبب موته حوائجهم الرديئه.

وإذا ما قيل أن موت العصاة رحمة بالأحياء. فلعل هذا القول يدخل في مفهوم الأمل في أن يكون موتهم وازعاً يحرك في نفوس الأحياء هاجس التفكير في المآل الذي آل إليه صاحبهم فتحدثهم عن سوء منقلب من توافيه المنية وهو غارق في الفساد والمجون والعصيان، بل ربما زادت النفس في حديثها بما يحملهم فوراً على الخروج من مستنقع الوحل الذي كانوا غارقين فيه مع صاحبهم المتوفى ليغتسلوا بفرات نهر الفضيلة، وليرتحلوا إلى حيث يوجد الصفاء وأهله ليتخلقوا بأخلاقهم وليصفوا بصفائهم إلى أن يرحلوا إلى الدار الآخرة في صورة مغايرة تماماً للصورة التي رحل بها صاحبهم.. وليشيعهم قوم ليسوا كسود الوجوه الذين شيعوا صاحبهم.. وليرثيهم أناس تفيض قلوبهم بالدعاء لهم والترحم عليهم.

ومن يا ترى سيرثي الذي يموت وهو على المعاصي والفساد مقيم؟ هل يرثيه رفاقه؟ بالطبع.. لا.. لأنهم لا يجدون لرثائه مادة تشرفه.. ولهذا نجد رثاء من يموت وهو مقيم على المعاصي يأتي من أناس يحرصون على نشر مخازيه وذكر أعماله المشينة.. وذلك مثل ما رثى عرقلة الكلبي بعض المجان بقوله:

يـا خـفـيـفـاً عـلـى الـقـلـوب لـطـيـفـا

قــد بــكـــاه أصـــادق وأعـــادي



كنتَ من مهجتي مكان السويدا

ء ومن مقلتي مكان السواد

قد بكاك الراووق والكأ

س والقينة من لائط إلى قواد

أيها الشيخ ما نهتك الثمانو

ن وذاك البياض بعد السواد

لم تزل تلكم العرامة حتى

الحقته بالرهط من قوم عاد

لا - عويس - يبقى ولا ابن - العصيفير - ولا ابن - الصمان - في الأنداد(١)

شمتوا حين مات والموت ما

تنفع فيه شماتة الحساد

رحم الله من رأى مصرع الشيخ وهيّا من التقى خير زاد

○ ○ ○ ○ ○

(١) قال شارح ديوان عرقلة الكلبي: هذه الأسماء لأشخاص معاصرين للشاعر.

السنابل المقطوفة

وما من متتبع لأحداث العالم التي جرت في القرن الرابع عشر الهجري إلّا ويحيط علمه بما مرت به الشعوب العربية من محن لا يُعزى أي سبب من أسباب تتابعها إلّا إلى التفكك الذي منيتْ به تلك الشعوب، والانقسامات التي فرقت صفوفه ومزقت وحدة كلمته فاستحالت وحدته الفكرية والعلمية والعقيدية إلى فرق ومذاهب، مثل ما استحالت وحدته القطرية إلى دويلات صارت طعماً سائغاً لأعداء الله الذين تكالبوا على امتصاص دمها مثل ما يفعل جيش البعوض عندما يغرس خراطيمه فيمن أخذته سنة أو نوم فلا ينزعها إلّا بعد أن يمتصّ الدم ويخلف المرض الذي كانت خراطيمه متلوثة به.. وليته يكتفي بذلك ويمنح شيئاً من الحرية لتلك الشعوب، وإنما فرض الحماية والوصاية عليها، وكأنما هي طفل لم يبلغ الحلم أو معتوه يجب أن يقوم على أمره قيّم ووصيّ.

وبهذه السياسة اللعينة التي تقبع خلفها الأطماع القذرة، والنوايا الشريرة المعادية للدين وأهله يزداد نهم أولئك المستعمرين ويتفرع فيشمل السيطرة الإدارية، والسلطة التنفيذية.. ولكن الإباء العربي والروح العربية الأصيلة وإن ضعفت، أو فاجأتها قوة أقوى منها، لا تستسلم ولا تتخذل، وإنما تمضي باحثة عن مخرج يعيد لها مجدها وكرامتها.

والذين مروا بتلك المحنة أو زامنوها بالأصح لم يجدوا وسيلة للخلاص منها إلا بمحاولة لمّ شمل شعوبهم لاستعادة هيبتها ومركزها القيادي وامتطاء صهوة مجدها.. ولكن كيف كانت تلك المحاولة؟ والإجابة على هذا السؤال موجودة في صفحات الكتب والدواوين التي هي الآن بين أيدينا بجديدها وقديمها، والتي تشهد بحق بأن أصحاب



الأقلام والشعراء كانوا هم الذين أزاحوا الرماد من على شرارة الثأر، فاتّقْدَتْ اتّقاداً اكتوى به الأعداء.. ومن صور التحريض وأساليب التأنيب التي بعثتْ على الحماس وجعلت الشعوب العربية مرجلاً يغلي غلياناً زلزل الأرض من تحت أقدام المستعمرين الظالمين، ما بَثّه الشعراء من قصائد ملتهبة.. فهذا الشاعر محمد مهدي الجواهري يصنع قصيدة يؤنب فيها قومه على الاستكانة ومهادنة الأعداء وتفضيل الاستذلال على حمل السلاح ومواجهة الأعداء حتى عزّتْ لقمة العيش عليهم وبات الكثير منهم يتضوّر جوعاً، وسنابل زرع أرضه يقطفها المستعمر البغيض سماها «تنويمة الجياع» وقد بلغت ١٠٢ بيتاً منها قوله:

نامي جياع الشعب نامي
حرستك آلهةُ الطعام

نامي على زبد الوعود
يداف في عسل الكلام

نامي تزرك عرائس الـ
أحلام في جنح الظلام

نامي على المستنقعا
ت تموج باللجج الطوامي

وتغازلي والناعما
ت الزاحفات من الهوام

نامي على مهد الأذى
وتوسدي خد الرغام

واستفرشي صم الحصى
وتلحفي ظل الغمام

نامي على جورٍ كما
حُمل الرضيع على الفطام

الالتفاتات التاريخية للشعراء

وشعراء الحكمة يحصل لهم مع أنفسهم دائماً وأبداً مداولات ومراجعات تشمل تعقب أخبار من سبقوهم ممن أقاموا الدنيا وأقعدوها بأفعالهم وآرائهم وأقوالهم.. وبعد هذه المتابعة يكون الراجح في كفة ميزانهم، الذي يكون في غالب الأحيان قسطاسياً همُّه التركيز على نشر مآثر من سبقهم. والوقوف على أطلال حضارتهم أو عرصات منتدياتهم.. وقد تمضي بهم المتابعة في خط دائري يعود بهم إلى استعراض ذكريات مروا بها فيقفون عندها مثل ما يقفون عند أثر كل من له أصالة في الأدب أو الشعر أو الفروسية أو الحكمة أو السياسة أو أي فن من الفنون التي كانت سبباً من أسباب بروزه.. لكن هذه المراجعة التي يطول فيها الوقوف ويسترسل فيها النظر والفكر لا تخطر ببال كثير من الشعراء الشباب، وإنما هي خواطر تكاد تكون ملازمة للشِّيب والمسنين من أصحاب الأقلام من الكتاب والشعراء.. وهذا أمر طبيعي لأن كبار السن من الشعراء وغيرهم من أهل الحرف الأدبية والسياسية والفكرية يكثرون الالتفات إلى الماضي ويحدثون حوله تساؤلات تعجبية تشد قارئها إلى الغوص في أعماق التراث.. وهم إلى جانب تلك الالتفاتات التاريخية البعيدة لا يغفلون عن إدارة النظر فيمن حولهم.. الأمر الذي يجعلهم يربطون الماضي البعيد بالحاضر القريب بأسلوب تنظيري يدخل في سياق ما يطرأ لهم من خواطر ذات تساؤلات مثيرة، كتلك الخواطر التي تواردت على الشاعر مسكين الدارمي فرصدها في قصيدة ذكر فيها بعض الشعراء الذين نسب كل منهم قبره إلى بلده، وذكر حال الشعراء المتقدمين الذين

ذهبوا ولم يبق منهم أحد يصغّر أمر الدنيا أو يحقّره. من تلك القصيدة قوله:

وحِصنٌ بصحراء الثوية بيته
ألا إنما الدنيا متاع يُمتع

وأوس بن مغراء القريعي قد ثوى
له فوق أبيات الرياض مضجع

ونابغة الجعدي بالرمل بيته
عليه صفيح من رخام مُوّضع

وما رجعت من حميري عصابة
إلى ابن وثيل نفسه حين تنزع

أرى ابن جعيل بالجزيرة بيته
وقد ترك الدنيا وما كان يُجمع

بنجران أوصال النجاشي أصبحت
تلوذ به طير عكوف ووقع

وقد مات شماخ ومات مزرّد
وأي عزيز لا أبا لك يُمنع

أولئك قوم قد مضوا لسبيلهم
كما مات لقمان بن عاد وتبع

وقوله حصن: هو حصن بن حذيفة بن بدر. هكذا عرفه شارح خزانة الأدب.

ooooo

مالك بن طوق. وأحد الأعراب

يحصل للشعراء الذين يتكسبون بأشعارهم بعض المواقف التي يبلغ بهم اليأس من الحصول على ما كانوا يؤملون من صلة وعطاء مبلغه ثم لا يلبثون إلّا ويستحيل يأسهم إلى فرج يغمرهم بما لا يتوقعونه من جزيل الهبات.

قيل أن أعرابياً وفد على مالك بن طوق، وكان زريّ الحال رث الهيئة فمنع من الدخول إليه، فأقام بالرحبة أياماً فخرج مالك ذات يوم يريد النزهة حول الرحبة فعارضه الأعرابي فمنعه الشرطة ازدراء به فلم ينثن عنه، حتى أخذ بعنان فرسه ثم قال: أيها الأمير أنا عائذ بك من شُرطك، فنهاهم عنه وأبعدهم منه ثم قال له: هل من حاجة؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: وما هي؟ قال: أن تصغي إليَّ بسمعك وتنظر إليَّ بطرفك. وتقبل عليَّ بوجهك ثم أنشد:

ببابك دون الناس أنزلت حاجتي
وأقبلت أسعى نحوه وأطوف

ويمنعني الحجاب والليل مسبل
وأنت بعيد والرجال صفوف

يطوفون حولي بالقلوب كأنهم
ذئاب جياع بينهنّ خروف

فأمّا وقد أبصرتُ وجهك مقبلاً
وأُصرف عنه إنني لضعيف

وما لي من الدنيا سواك وما لمن
تركت ورائي مربع ومصيف

تخطيت أعناق الملوك ورحلتي
إليك وقد أخْنت عليَّ صروف

فجئتك أبغي الخير منك فهزني
ببابك من ضرب العبيد صنوف

فلا تجعلن لي نحو بابك عودة
فقلبي من ضرب العبيد مخوف

فاستضحك حتى كاد يسقط من فرسه، ثم قال لمن حوله من يعطيه درهماً بدرهمين وثوباً بثوبين، فنثرت الدراهم ووقعت الثياب عليه من كل جانب حتى تحير الأعرابي واختلط عقله لكثرة ما أعطيَ، فقال له مالك: هل بقيت لك حاجة يا أخا الأعراب؟ قال: أما إليك فلا، قال: فإلى من؟.. قال: إلى الله أن يبقيك للعرب فإنها لا تزال بخير ما بقيت لها.

○○○○○

نظرة إلى مخادع

المتقنع هو ذلك الشخص الذي يظهر في زي ليس له دلالة على ما كان مجبولاً عليه أساساً وطبيعة.. وهو بالقناع يبطن خلاف ما يظهر من زاوية التدليس الحقيقي البحت.

وكثيراً من المتقنعين يتخذ من القناع فخّاً يصطاد به الذين يحسنون الظن، ويفسرون الباطن بالظاهر عن حسن نية وسلامة قلب.

والذي يتقنع بأقنعة الوقار وسيماء الخير كالتظاهر بالتعبد والخشوع جدير بمخادعة الناس، لأن تلك السمات تجد قبولاً لدى أهل الخير ومحبي التآخي في الله.. ولهذا فهي وسيلة يلج منها المخادع إلى قلوب الذين لا يعرفون الخداع إلا باسمه، ولا يعرفون وسائله ولا كيفية التلبس به وجعله مظهراً ومطية تُقضىٰ عليها الحوائج فقط..

ولكن هل يستمر هذا القناع ويبقى متيناً لا تخترقه حاسة الحقيقة ولا تمزقه أعين الإدراك. ويكشف زيغه واقع الحياة؟. والإجابة على هذا التساؤل، وبلا أدنى شك هي أنه لا يستمر طويلاً.. وأنه إذا ما انطلى على فئة من الناس فإنه لا ينطلي على الفئة الأخرى.. وعلى هذا فإن قولهم: حبل الخداع قصير، هو قول صحيح، وكيف لا يكون صحيحاً ونسيج الخداع ألوان مختلفة من الكذب.. ولحمته ألوان من المراوغة!!!.

ولقد رسم الشاعر السعودي عمران محمد العمران صورة من صور المخادع في قصيدة ضمنها ديوانه «الأمل الظامئ» عنوانها «الواقع المر» وفيها يلقي نظرة عامة على من حوله فلا يجد إلّا مخادعاً يقتل رجولته من أجل حياته ويبيع دنياه برطل نميمة.



قسما فما أبصرت غير منافق
يهوى الحياة ولو على مستنقع
يهوى الحياة ولو تكون سبيلها
قتل الرجولة والضمير الأروع
يبتاع دنياه - برطل - نميمة
ويبيع تقواه بأتفه مرتع
وتراه. يختلس الحديث.. ويرتدي
بُرد التقيّ الناسك المتورع

ويمعن في رسم صورة المخادع بعبارة يقول فيها: إنه يبتسم وهو يضمر الضغن، ويتضرع وقلبه مملوء عداوة.. ولا يبالي بقتل الفضيلة من أجل أرذل منفعة:

ويمد في دنيا التملق باعه
ويكنُّ في نجواه أغلى مطمع
يأتيك مبتسماً ويضمر ضغنه
قلب العدو. ومظهر المتضرع
فيسير في الدنيا بغير عقيدة
وبدون ما خجل.. ودون تقنع
يئد الفضيلة - وهي أسمى آية -
يُزهى بها ويروم أرذل منفع

○ ○ ○ ○ ○

هاتف من قبر

في كتاب قبض الريح، لإبراهيم بن عبد القادر المازني، حكاية من نسج خياله ملخصها أن أحدهم طال به التفكر والسأم من الحياة فذهب إلى المقبرة وأسند ظهره إلى حجارة قبر من قبورها، وتمنى الموت فهتف به هاتف من جانب القبر يقول: إن لي هنا سنوات لا أعلم عددها لعلها أقل مما توهمني وحشة الوحدة التي تطيل أيامي التي صارت كلها ليالي.. أو لعلها كثيرة فما أدري، وقد حجبت عني الدنيا، ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت، ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ـ ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً ـ وأنت على الأقل، تذكرني فأبقى بذكراك، فلا تسلمني إلى العفاء بموتك.

قال فإذا نسيتك كغيري؟.. قال الهاتف: إذا نسيت؟. آه! ولكن ما لنا وما لم يقع؟ دع هذا إلى أوانه وعسى أن يكون بعيداً.

قال: ثم سرت وفي جسدي رعدة، لكن عندي رغبة في الحياة وضناً بها وحرصاً عليها، ولما وصلت إلى داري وأدرت المفتاح في الباب همس في أذني الشيطان اللعين وقال: تبدي رغبتك في الحياة من أجل من؟؟.. وقهقه!! فغاظني ذلك فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب في وجهه! ثم صنعت هذه الأبيات وألقيتها إليه من النافذة:

جمالك!! لا تأسف علي ولا تأسى
فإني تحت الأرض لا أحفل الحبسا

طواني الردىٰ عن ناظريك فجاءةً
وما كان ظني قط أن أسكن الرمسا



أراني الصبا شمسي بعيداً مغيبها
فسرعان ما ولّى النهار وما أمسى

وكنت سرور العين والأنف والحشا
فقد صرت أوذي العين والأنف والنفسا

فدع عنك ذكري إنه ليس نافعي
وسيان عندي أن تفي لي أو تنسى

ولا تتجشم لي الحفاظ فإنني
وقد متُّ لا أوليك شكراً ولا حسا

وأدخل إليك الشمس من كل كوة
فما يتملى العيش من يحجب الشمسا

ستسليك عني كل زهراء ناهد
وإن بقيت ذكراي تهمس بي همسا

○ ○ ○ ○ ○

من وصية عبد الله بن شداد لابنه

أورد الدكتور أحمد زكي صفوت مؤلف كتاب «جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة» ترجمة لعبد الله بن شداد قال فيها: هو عبد الله بن شداد الهادي، واسمه أسامة الليثي. خرج مع القراء في فتنة بن الأشعث على الحجاج.. قيل أنه غرق بدجيل، وقيل هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم، اقتحم بهما فرساهما الماء فذهبا.. ومن وصيته لابن له يدعى محمد.. قوله: يا بنيّ إني أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع، وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكرُ الله وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد.

وقوله: أي بني، لا تزهدنّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب، فكم من راغب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن أي بني كما قال أبو الأسود الدّؤلي:

وعُدّ من الرحمن فضلاً ونعمة
عليك إذا ما جاء للعرف طالب
وإن امرءاً لا يُرتجىٰ الخيرُ عنده
يكن هيناً ثِقْلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً
فإنك لا تدري متى أنت راغب



رأيتُ التوا هذا الزمان بأهله
وبينهم فيه تكون النوائب

وقوله: أي بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، وإن أحمد بُخل الحُرِّ الضّنُّ بمكتوم السر.

وقوله: أي بني إن سمعت كلمة من حاسد فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها «أي أجريتها» رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأديب العاقل هو الفطن المتغافل.

وقوله: أي بني. لا تؤاخي امرءاً حتى تعاشره وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة فواخي على إقالة العثرة والمواساة في العسرة.

وقوله: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

وقوله: عليك بصحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار، وكن كما قال الشاعر:

اصحب الأخيار وأرغب فيهم
رُبّ من صحابته مثل الجرب

ودع الناس فلا تشتمهم
وإذا شاتمت فاشتم ذا حسب

إن من شاتم وغدا كالذي
يشتري الصفر بأعيان الذهب

واصدق الناس إذا حدثتهم
ودع الناس فمن شاء كذب



البدوية وابن مياح

قرأت في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» لتقي الدين بن أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ أنه لما استبدّ الخليفة الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله، أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة في مصر مكاناً لمحبوبته الغالية البدوية سماه «الهودج» قال: قال ابن سعيد في كتابه «المحلى بالأشعار» عن تاريخ القرطبي: قد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بني عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام الله، من ذلك قولهم: إن الخليفة الآمر كان قد ابتلي بعشق الجواري العربيات وصارت له عيون في البوادي، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم، شاعرة جميلة.

فيقال أنه تزيّا بزيّ بداة الأعراب وصار يجول في الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها وبات هناك في ضائفة، وتحيّل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع إلى قصر ملكه فأرسل إلى أهلها يخطبها فأجابوه إلى ذلك وزوجوها منه.

فلما صارت إلى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت وأحبت أن تسرّح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج، وكان على شاطئ النيل في شكل غريب. وكان بالإسكندرية القاضي مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد، قد استولى على أمورها وصار قاضيها وناظرها.. وكان لابن الحداد بستان



يتفرّج فيه، به جرن كبير من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته، وكان يجد في نفسه من رؤيته هذا الجرن زيادة على أهل النعم ويباهي به أهل عصره، فوشيَ به للبدوية محبوبة الخليفة، فطلبته من الخليفة فأنفذ في الحال بإحضاره، فلم يسع ابن حديد إلّا أن قلعه من مكانه وبعث به وفي نفسه حزازة من أخذه منه، وخدم البدوية وخدم جميع من يلوذ بها حتى قالت هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه، ولم يكلفنا قط أمراً نقدر عليه عند الخليفة مولانا، فلما بلغه ذلك عنها.

قال: ما لي حاجة بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها، غير رد الجرن الذي أخذ من داري التي بنيتها في أيامهم من نعمهم إلى مكانه، فأمرت برده إليه.. فقيل له: قد وصلت إلى حد أن خيرتك البدوية في جميع المطالب فنزلت همتك إلى قطعة حجر؟ فقال: أنا أعرف بنفسي، ما كان لها أمل سوى أن تغلب في أخذ ذلك الجرن من مكانه، وقد بلغها الله أملها.. قيل وبقيت البدوية متعلقة الخاطر بابن عم لها، ربيت معه يعرف بابن مياح، فكتبت إليه وهي بقصر الخليفة الأمر:

يا بن مياح إليك المشتكى
مالك من بعدكم قد ملكا

فأنا الآن بقصر مؤصد
لا أرى إلا حبيسا ممسكا

كما تثنينا بأغصان اللوى
حيث لا نخشى علينا دركا

وتلاعبنا برملات الحمى
حيثما شاء طليقاً سلكا

فأجابها بقوله:

بنت عمي والتي غذيتها
بالهوى حتى علا واحتنكا

بحت بالشكوى وعندي ضعفها
لو غدا ينفع منها المشتكى

مالك الأمر إليك يشتكى
هالك وهو الذي قد هلكا

شأن داود غدا في عصرنا
مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الأبيات الآمر، فقال: لو لا أنه أساء الأدب في البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوجتها به.

○○○○○

ذو الرمة أكثر من ذكر اسم محبوبته

ما أكثر الشعراء من ذكر صويحباتهم اللاتي يشببون بهن ويطرونهن مثل ما أكثر ذو الرمة من ذكر صاحبته ميّ، فقد ورد اسمها في مائة وثمانية وثمانين موضعاً. . وإذا ما علمنا أن ذا الرمة قد مات سنة ١١٧ من الهجرة وأنه لم يعش إلا أربعين سنة، فما ندري كم يعيد اسمها لو عاش ثمانين أو أكثر. . وإذا ما علمنا أيضاً أن كل عام يمر عليه يزيد من تعلقه بمي التي يمج اسمها في فمه طعماً لذيذاً يجعل لسانه يتمطق بها دائماً، فإننا نقدِّر أن يبلغ ورود اسمها في قصائده نحواً من أربعمائة مرة، وذلك قياساً على ما سبقت الإشارة إليه، طارحين احتمال الزيادة التي يكون منشؤها تقادم العهد وتتابع الذكريات.

ولقد سبق لي أن بحثت عمن أكثر من ذكر اسم صاحبته في أشعاره فلم أجد أحداً سوى شاعرٍ عاميٍّ هو: محمد بن لعبون المدلجي الوائلي، وهو وذو الرمة من منطقة واحدة هي منطقة سدير، فذو الرمة يسكن في أسفل وادي سدير وقصره ما زال يعرف بقصر غيلان حتى الآن أسفل من عودة سدير، وابن لعبون ولد في حرمة سدير وهو الآخر الذي يسمي معشوقته ميًّا، وقد جاء باسمها أكثر من ثلاث وأربعين مرة. . ولهذا التوافق كتبت بحثاً عنوانه «مي عبر القرون. . في شعر ذي الرمة وابن لعبون» وأشبعته أمثلة على كثرة ورود اسم ميّ في شعر الشاعرين. .

وأرى بعد استطراد هذه المعلومة أن أقف على أبيات من إحدى قصائد ذي الرمة التي أورد فيها ذكر ميّ. . . ولتكن قصيدته اليائيه. . ففي الأبيات التي وقف فيها على دار مي. يقول:



هي الدارُ إذ ميّ لأهلك جيرة
ليالي لا أمثالُهنّ لياليا
تحمّل منها أهل ميّ فودّعوا
بها أهلنا لا ينظرون التواليا

وفي موضع آخر من تلك القصيدة يقول:

وقد كنت من ميّ إذ الحيُّ جيرة
على البُخْلِ منها مَيّتَ الشوق ساليا

ومنا قوله:

وكنت أرى من وجه مية لمحةً
فأبرقُ مغشيّاً عليّ مكانيا
وأنصب وجهي نحو مكة بالضحى
إذا ذاك عن فرط الليالي بدا ليا
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها
اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

ومنها يقول:

رأيت لها ما لم تر العين مثله
لشيء فإني قد رأيت المرائيا
هي السحر إلّا أن للسحر رُقيةً
وإني لا ألقى لما بي راقيا

○○○○○

عبد الحميد الكاتب أول من فتق أكمام البلاغة

عبد الحميد الكاتب.. كاتب تضرب بكتاباته الأمثال. وقد انتهت حياته بقتله.. وقبل أن أنقل قصة قتله، أرى أن أوجز شيئاً مما قيل فيه وذكر عنه.. ولنبدأ بنسبه فهو عبد الحميد بن يحيى مولى العلا بن وهب العامري - قيل غير ذلك في نسبه حيث وصل بعامر بن لؤي بن غالب - وقيل أن جده فارسي من سبي القادسية، كان لبعض خلفاء بني أمية، ومنهم هشام بن عبد الملك الذي ولي الخلافة سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥. وذكر صاحب كتاب «أمراء البيان» أنه سئل: ما الذي خرجك في البلاغة؟ قال: حفظ كلام الأصلع - يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقيل عن عبد الحميد أنه أول من فتق أكمام البلاغة وسهّل طرقها وفك رقاب الشعر، وضرب الأمثال بالبلاغة.

أما عن قصة قتلة فذكر صاحب كتاب أمراء البيان أنه لمّا زال أمر مروان أتى المنصور بخواص مروان، فيهم عبد الحميد، والبعلبكي المؤذن، وسلام الحادي، فهمَّ بقتلهم جميعاً، فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الحداء، فقال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء فإذا بدأت تشرب رفعت صوتي بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت.

فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك فكان الأمر كما قال، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه، وقال له البعلبكي: استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع القرين، قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جارية فتقدم إليك طستاً، وتأخذ بيدها إبريقاً، وتصب الماء على يديك، فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم، فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك وأخذ البعلبكي في الأذان،



فكانت حالها كما وصف، وقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين، إني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة، فقال: ما أعرفني بك أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت لنا الدواهي، وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه.

ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمّي له طستاً ويضعه على بطنه حتى قتله. قال صاحب كتاب «سير أعلام النبلاء»: وقتل سنة ١٣٢ هجرية. قال أبو إسحاق الصابي:

أنسيتم كتباً شحنت فصولها
بفصول درٍّ عندكم منضود
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم
عبد الحميد بهن غير حميد

وممن ضرب بعبد الحميد المثل في البلاغة الشاعر البحتري في قصيدته التي امتدح بها محمد عبد الملك الزيات والتي منها قوله:

وتفننت في الكتابة حتى
عطّل الناسُ فنّ عبد الحميد
في نظام من البلاغة ماشـ
ـكّ امرؤ أنه نظام مَرِيد
وبديع كأنه الزهر الضا
حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يُخْـ
ـلِقُهُ عَوْدُه على المستعيد
ما أُعِيرتْ منه بطون القراطيـ
ـس وما حُمّلت ظهور البريد
حجج تخرس الألدّ بألفا
ظ فرادى كالجوهر المعدود

عبد الحميد هو أول من أطال الرسائل

تجمع كتب الأدب على أن عبد الحميد الكاتب والذي تقدم ذكر نسبه وشيء من أخباره في موضوع تحت عنوان «عبد الحميد الكاتب أول من فتق أكمام البلاغة». هو أول من أطال الرسائل.. وقد قيل أنه كتب كتاباً على لسان محمد بن مروان إلى أبي مسلم الخراساني، الذي يدعو الناس في خراسان إلى بني العباس. لا يحمل إلا على جمل لكبر حجمه.. ومن فقراته قوله: إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين.. كما أطال في نصيحته لعبد الله ولي عهد مروان، فقد كتب كتابه هذا في صفحات كثيرة فيها تفصيل للسياسة والإدارة والحرب وقواعد التربية وعلم النفس وغير ذلك.. من ذلك قوله: أكرموا الكتاب فإن الله عزَّ وجلَّ أجرى أرزاق الخلق على أيديهم، وقال: إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب.. ومن غرر كلام عبد الحميد: القلم شجرة ثمرها الألفاظ.. والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، وكان يقول: البيان في اللسان والبنان.. ومن كلامه.. خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً.

ويقال أنه لما ورد كتاب محمد بن مروان إلى أبي مسلم الخراساني لم يقرأه وأمر بنار فأحرقه. وكتب على جذاذة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب

فإن يقدموا نعمل سيوفاً شحيذةً
يهون عليها العتب من كل عاتب



وروي أن زياد الأعجم حضر جنازة هشام بن عبد الملك فسمع عبد الحميد ينشد:

وما سالم عما قليل بسالم
وإن كثرت أحراسه ومواكبه

يريد سالم بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وكان على ديوان الرسائل لهاشم وللوليد بن يزيد.

وإن كان ذا باب شديد وحاجب
فعما قليل يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مفرداً
رهينة بيت لم تستّر جوانبه
فنفسك أكسبها السعادة جاهداً
فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

قيل: ورويت هذه الأبيات للأصمعي بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله:

وما كان إلا الدفن حتى تفرقت
إلى غيره أفراسه ومواكبه
وأصبح مسروراً به كل كاشح
وأسلمه أحبابه وحبائبه

ooooo

الصوم في زمن الغفلة

لقد صنع الشاعر نجيب الكيلاني قصيدة طويلة جعل عنوانها «الصوم في زمن الغفلة» وهي موجودة في ديوانه «مدينة الكبائر». وقد أطلق عنان لسانه في أفق الواقع المشهود، وجال فيها على أرضية الحقيقة المؤلمة، إذ تساءل عن معنى الصوم.. أهو الإحجام عن الأكل والشرب وملازمة التعبد المظهري؟ أم أنه الصفاء والتوجه الحقيقي إلى الله والتبرؤ من كل مأكول ومشروب حرام؟!!

ويشير الكيلاني فيما يشير إليه، إلى أن هناك عبادات مظهرية تخالف التعبد الحقيقي في معناه ومغزاه ومشروعيته.. وتنافي بمظهرها ومعلمها الصوري حقيقة العبادة التي يجب أن يستشعرها المتعبد.. يقول الكيلاني في معارضته لتلك العبادات الصورية: إننا نسجد ولكن للمطامع.. ونخشع ولكن خشوع ذئاب.. ونقرأ كتاب الله ولم نعمل بمضمونه.. وعلى هذا الإغراق في الإهمال وإطالة المكوث في مساحة الغفلة يندب الكيلاني بني قومه ويستحثهم على الرجوع إلى الله بقلوب تستنير بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ في جميع عباداتها، وأن لا يبقوا على حالتهم فيكونوا طعماً لأصحاب الهوى، وذوي الأغراض الدنيوية الذين يجعلون أطماع الدنيا فوق كل اعتبار..

ومن تلك القصيدة الحية يقول:

نصوم عن الأطايب والشراب

ونهرع للمآذن والقباب



ومأكلنا ومشربنا حرام
ونسجد للمطامع والرغاب

ونخشع في الصلاة خشوع ذئب
فهل عرف التقى قلبُ الذئاب

كتاب الله نقرأه وندعو
ولم نعلم بمضمون الكتابِ

نعاقر في المسامر كل خبث
ونمعن في السفاهة والسلاب

ومنها قوله:

بني قومي لقد ضلت خطانا
وشتتنا الهوى عبر اليباب

تبدّلت الحقائق والنوايا
وأمسى العدل في ظفر وناب

تقاطرت الوحوش بكل صقع
فما الدنيا سوى أحراش غاب

○○○○○

هلال بن أحوز قاتل أبناء المهلب!!

كل حادثة تحدث على مر الزمان ينتهي الحديث عنها بمجرد وقوعها. . وكذلك كل فعل فإنه ينتهي بانتهاء تنفيذه لكنه يبقى خبره متداولاً بين أبناء الزمن الذي نفذ فيه ثم يندثر شيئاً فشيئاً حتى يندرج في طي النسيان ما لم يودع في أسطر أو يقيد في شعر، وما عدا ذلك فإن ذهابه واقع مهما عظم أمره. ولولا التسجيل الحرفي لما عرفنا أحداثاً وقعت قبلنا بمئات السنين أو قل بآلاف السنين.

والذي يقرأ السير والتراجم يرى العجب العجاب. . والذي يقرأ دواوين الشعر القديم يجد فيها من الأحداث ما لا حصر له، لأن الشعراء القدامى يذكرون معظم ما يحدث في زمنهم من حوادث، فتبقى سجلاً حافلاً ومرجعاً تاريخياً، وهم ـ وأعني بذلك الشعراء ـ يشبهون من يمتدحونه بمن كانت له صولات وجولات ومواقف بطولية شهد له التاريخ بها. فيبقى ذلك المديح على مر العصور. . ومن تلك المشاهد ما روي أن هلال بن أحوز ـ واسمه كما جاء في جمهرة أنساب العرب: هلال بن أحوز بن أربد بن محرز بن لأي بن سهيل بن ضباب بن حجة بن كابيه بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو التميمي ـ قد سيره مسلمة بن عبد الملك في أثر أبناء المهلب بن أبي صفرة الأزدي سنة ١٠٢هـ، فلحقهم بقندابيل وهي مدينة بالسند فقاتلوه فقتل منهم الفضل، وعبد الملك وبعث برؤوسهم إلى مسلمة، وفي ذلك يقول ذو الرمة مخاطباً ناقته ومادحاً هلالاً:

حَنّت إلى نعم الدهنا فقلت لها
أمي هلالاً على التوفيق والرشد

الواهب المئة الجرجور حانيةً
على الربّاع إذ ما ضنّ بالسّبَد

ويخاطب هلالاً قائلاً له:

رفعت مجد تميم ـ يا هلالُ ـ لها
رفع الطراف إلى العلياء بالعمد

ويذكر قتل هلال لأبناء المهلب فيقول:

تمنّتِ الأزد إذ غبّت أمورُهمُ
أن المهلب لم يولد ولم يلد

كانوا ذوي عدد دَهْم وعاثرة
من السلاح وأبطال ذوي نجد

فما تركنا لهم من عين باقية
إلّا الأرامل والأيتامَ من أحد

ويصف الأسرى وشدة بأس بني تميم فيقول:

جئنا بآثارهم أسرى مقرنة
حتى دفعنا إليهم رُقة القود

في طَحْمَةٍ من تميم لو تصكُّ بها
ركني ثبير لأمسىٰ مائل السند

والطحمة: دفعته وشدته، وثبير: جبل بمكة، وهو الذي صعد عليه ﷺ فاهتز فنزل عنه وصعد على حراء.

○○○○○

ساعات الإحباط

تُظل المفكر والشاعر والكاتب في بعض الأحيان سحابة خمول تجعله يتعذر عليه مع بقائها في سمائه، إنتاج أي مادة جيدة.. لكن بعضهم يقاوم تأثير تلك السحابة. ويمضي في عناد إلى ممارسة العمل الفكري الذي كان معتاداً عليه، رغم ما ألقت به سحابة الخمول من ظلال على ما يحيط به، ورغم استتار سنا الضياء عن عينيه، فتكون نتيجة عناده سلبية قوامها الإثبات والمحي، وتشويه مصقول الورق بما ليس له فائدة، ولا يحقق رغبة، ولا يعبر عما يخالج الضمير من فكرة.. وكم ذم أهل التجارب مقاومة ساعات الإحباط، وفترات الإرهاق، وأشاروا إشارة فيها تحبيذ بل تحريض على مداهنة ساعة الكسل ومما لاتها حتى تمر مروراً تصفو بعده سماء الفكر وتشرق النفس ويَحْسُنُ استقبالها للبادر وتستطيب رصد كل خاطرة تخطر إليها.

والذين جربوا ساعات عسر الولادة الفكرية يحققون بأن ما يكتبونه خلال تلك الساعات لا يدخل في باب الأدب النقي الصافي، ولا يستطيع بحكم ضعفه ورداءته أن يرقى ولو مرقاة واحدة في سلم الأدب، ولهذا فهم يطرحونه جانباً، وربما تبرؤوا منه تبرؤ الرجل من الولد الدعي.

ولقد صور الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير، المولود عام ١٩١٢م ساعات الإحباط الفكري في قصيدة منها قوله:

هــذه الـصـحـائـف طـالـمـا
حـبـرتـهـا سـطـراً فـسـطـراً



وقضيت ليلي مثبتاً
أو ماحياً شطراً فشطرا

لا نعسةُ الإعياء تغلبني
ي ولا أسلمت سفرا

حتى إذا ولى الظلام
ولاحت الأنوار فجرا

مزقتها من بعد ما
قد مزقت جفنيّ بُهرا

ورميتها في حفرة
أذكيتها ناراً وجمرا

وجلست فوق أريكتي
كالشاكل المشبوب فكرا

وهزأت من نفسي ومما
باطلاً أدعوه شعرا

○ ○ ○ ○ ○

خبر وصورة

قد تتوقع أيها القارئ العزيز عند قراءتك هذا العنوان «خبراً وصورة» أنني سأنقل لك خبراً لحدث مهم قد وقع في جهة من جهات المعمورة، وأني سأطلعك على صورة تحقق ثبوت حدوثه، لكن هذا ما لم يكن. وإنما الكائن خلاف توقعك، إذ سأنقل لك خبراً تناقلته الكتب التراثية حتى وصل إلى يدي في كتاب اسمه «بدائع البدائه» ونص الخبر كما أورده المؤلف: قال علي به ظافر أن ابن خاقان ذكر في كتابه «مطمح الأنفس» ما معناه أن أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه بجامع قرطبة في ليلة السابع والعشرين فمرت بهم امرأة من بنات أجلاء قرطبة قد كملت حسناً وظرفاً، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستتبع خشفاً، وقد حفّتْ بها الجواري كالبدر حُفّ بالدراري.. فحين رأت تلك الجماعة المعروفة بالخلاعة ورمقوا الظبي بعيون أسود رأت فريسة ارتاعت وتخوّفت أن تخطف منها تلك الدرة النفيسة فاستدنت إليها خشفها وألزمته عطفها، هذا هو الخبر.. أما الصورة فقد التقطها الشاعر ابن شهيد «بكامرته» فجاءت صورة ملونة واضحة المعلم تحقق الخبر بواقعه المحسوس، وقد قدمها دليلاً ثبوتيّاً على صحة الخبر، وهي هذه:

وداعـيـةٍ تـحـت طـيّ الـقـنـاع
دعـاهـا إلـى الله بـالـخـيـر داع

أتـت بـابـنـهـا تـبـتـغـي مـنـزلاً
لـوصـل الـتـبـتـل والانـقـطـاع

فجاءت تهادى كمثل الرّؤوم
تراعي غزالاً بروض اليفاع

أتتنا تبختر في مشيها
فحلّت بوادي كثير السباع

وجالت بأكنافه جولةً
فحلّ الربيع بتلك البقاع

وربعتْ حذاراً على طفلها
فناديتُ: يا هذه لا تراعي

غزالك تغرق منه الليوث
وتهربُ منه كماة المصاع

فولّت وللمسك من ذيلها
على الأرض خطّ كخط الشجاع

○ ○ ○ ○ ○

البقاء في نقطة المرتكز مدعاة للعوز

إن ارتكاز المرء في نقطة ضيقة، وبقاءه داخل إطار دائرة مغلقة ليس لها أفق ولا بُعْد يطلق منه فكره وخياله وبصره، ولا مدى يسعى في جوانبه ورحباته، فإنه لا بد أن يصاب بالترهل، وأن يستسلم في يوم من الأيام للعجز والفقر والخمول والكسل. لأن محدودية الحركة، وعدم إحداث منافذ للخروج من الدائرة المحيطة به، والتحرر من نقطة ارتكازه يعني الرضا بأدنى وأقل سبب من أسباب كسب العيش الذي يتصارع عند غروب شمس كل يوم مع الفقر والفاقة وسوء الحال، ولو سألنا عن مبدأ ذلك الصراع المستمر لوجدنا أن نفس ذلك القابع داخل إطار تلك الدائرة التي تقدم وصفها هي التي تضيق بتلك الجولات وتبقى طول ليلها متأثرة بمتاعب يومها حتى يرهقها التعب ويستولي عليها النوم في حالة منهكة القوى، ثم تغط في سباتها تاركة الغدو لطلب رزقها.

والإنسان إذا ما رأى نفسه في هذه الصورة، وبين جنبات تلك الدائرة فإن عليه أن يكسر طوقها ويخرج من محيط دائرتها إلى أفق أرحب وفضاء أوسع يشم منه رائحة الحرية التي ينال من طلاقتها شرف العيش.

ذكر صاحب كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» أن الرفا أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي المتوفى سنة ٥٤٠ من الهجرة كان شاعراً هجاء، وقال عنه: إنه كان خبيث اللسان وقد سجنه بوري به أبابك طغتكين صاحب دمشق، مدة وعزم على قطع لسانه ثم شفعوا فيه فنفاه وكان بينه وبين ابن القيسراني مكاتبات وأجوبة

ومهاجاة، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المتماثلين.. وهذه أبيات من جملة قصيدة له رأيت موافقتها لما أسلفت:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله
في منزل فالحزم أن يترحلا

كالبدر لما أن تضاءل جدّ في
طلب الكمال فحازه متنقلا

سفهاً لحلمك إن رضيت بمشرب
زيف ورزق الله قد ملأ الملا

ساهمت عيسك مرّ عيشك قاعداً
أفلا فليت بهنّ ناصية الفلا

فارق ترق كالسيف سلّ فبان في
متنيه ما أخفى القراب وأخملا

لا تحسبنّ ذهاب نفسك ميتة
ما الموت إلّا أن تعيش مذللاً

للفقر لا للفقر هبها إنما
مغناك ما أغناك أن تتوسلا

لا ترضَ من دنياك ما أدناك من
دنس وكن طيفا جلا ثم انجلى

○○○○○

بديهة.. ورأي آخر لأبي نواس

أبو نواس هو الحسن بن هاني الشاعر المفوه الذي عرف بأنه شاعر الخمريات لأنه لا ينازعه شاعر في القصائد الخمرية.

وأبو نواس كثير الدعابة.. وشاعر تكثر مداعبته لا بد أن يتعرض لمواقف محرجة، وكم وقع أبو نواس في المآزق لكنه ببراعته وذكائه ودهائه يخرج سالماً، بل غانماً في كثير من الأحيان.. وأبو نواس بل أي شاعر تكون له حظوة لدى الخليفة يكون له حساد يحاولون الإيقاع به، وذلك بنصب الأفخاخ التي يقصد بها اصطياده، ومثل هذه المواقف يكون للشاعر بديهيات وأشعار مرتجلة.. أما أبو نواس فقد روي أنه وفد على خصيب الذي كان أميراً على مصر من قبل العباسيين، وقد صادف وفوده أن أهل مصر قد شغبوا على الخصيب واجتمعوا بالمسجد الجامع، ففرقهم أبو نواس بهذه الأبيات المرتجلة:

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي
ألا فخذوا من ناصح بنصيب

ولا تثبوا وثب السفاه فتركبوا
على حد حامي الظهر غير ركوب

فإن يك فيكم إفك فرعون باقياً
فإن عصا موسى بكف خصيب

رماكم أمير المؤمنين بحيّةٍ
أكول لحيات البلاد شروب

فقال له خصيب: لا يأتي بها والله خطيب مصقع، ويعني الأبيات، لكن أبا نواس لم يلبث طويلاً حتى تحول من مادح للخصيب إلى قادح، حيث محاه بأبيات لم أقف على سببها غير أنه من الطبيعي أن يكون هناك ما يدعو إليه، يقول في هجائه للخطيب:

أمير المؤمنين وأنت عفو
ومالك في الخلائق من ضريب
علامَ وأنت ذو حزم ورأي
تُصَيِّرُ أمر مصر إلى الخصيب
فتى ما دان للرحمان ديناً
وما إن زال يسجد للصليب

والذي يقرأ شعر أبي نواس المليء بالخمريات كما أسلفت يلمس أيضاً أثراً للحكمة في شعره بصورة عامة، من ذلك هذا البيت:

وبالناس كان الناس قدماً ولم يزل
من الناس مرغوب إليه وراغب

○ ○ ○ ○ ○

ألم الفراق

يُوَلِّدُ الاغتراب عن الوطن والأحبة في نفس المغترب توجدات وتأوهات تفيض بها نفسه.. ويضرم البعد عن المعشوق في قلب العاشق ناراً تلظى، لا يخمد لهبها ولا تترمد جذوتها، وإنما تزداد جذوتها حرارة وتوقداً في الأحشاء كلما تجددت الذكرى وبقي البعد بين المحب ومحبوبه قائماً.

والبعد عن الوطن يتأثر به بوجهٍ عام كل من فرضت عليه ظروف الحياة الابتعاد عنه، لكن الذي يتركه وله فيه حبيب يكون له شجو وتوجّد وتحنن إليه أكثر من غيره فهو دائماً وأبداً يرسل خياله إليه، وينتدب طيفه ليحلق في أجواء ربوعه التي خلف فيها من كان يبادله حباً بحب ويقاسمه الغرام مقاسمة تشفي غليل شوقه وتطفي لهيب تشوقه، ثم يبقى منتظراً رجوع طيفه بين ظهراني من لا يشعر بوجوده، ولا يحس بإحساسه ولا يهتم لأمره.

والشاعر الحسن بن محمد بن بابل واحد من الشعراء الذين رمت بهم يد النوى، كما يقول فجعلته في مكان ناء عن وطنه وحبيبه، فباح بما مسَّه من لوعة أحدثت في رأسه شيباً، وجعلته يرقب النجوم كأنما هو موكل برعيها، وهو إلى جانب هذا البوح بالأسى يتمنى وهو في مصر أن يرى محبوبته بالعراق، وأن يرى الرصافة ويرد ماءها في ظرف زمني عيشه صاف رغيد.. وقد بثَّ هذه الخلجات في أبيات.. هي:

ألا ما لجسمي قد علاه شحوب

وما بال قلبي ضامرته كروب



وما بال أحشائي توقّدُ لوعةً
وما بال رأسي قد علاه مشيب

وما ذاك إلّا أن رمتني يدُ النوى
وأني في أرجاء مصر غريب

أراعي نجوم الليل لا آنف الكرى
كأني على رعي النجوم رقيب

إذا ما دعوت الدمع يوماً أجابني
وإن رُمتُ دعوى الصبر ليس يجيب

وإن رمتُ كتمان الذي بي من الأسى
جرى هاطل من مقلتيَّ سكوب

ألا ليت شعري هل أرى الدهر منزلاً
تبوأه بعد الفراق حبيب

وهل أرِدَن يوماً مياه رصافة
وهل يَصْفُوَنْ لي عيشها ويطيب

○○○○○

الرجوع إلى الواقع

ما أحلى الرجوع إلى الواقع، وما أعذب لحن العودة إلى الصواب وتحطيم قيثارة الشذوذ.. وما أجمل أنشودة الاعتراف بالغفلة، وما أبهى حروف ميثاق العهد على التزام النهج الصحيح.. ومن الذي يقول أن الكلمات التي يقرر بها المرء العودة إلى حقيقة الخلق القويم لا تفوح بالعطر ولا تنشر الشذى الذي يتحسس شمه أنف كل قارئ لها؟. وإعلان العودة إلى واقع السلوك ومنطلق العقيدة يعد شجاعة وقوة إرادة على توطين النفس، وتهذيباً يجعلها تعشق المبادئ الإنسانية الصحيحة عشقاً يصعب التحول عنه، وينفي في الوقت نفسه أي مؤثرخارجي يحاول حملها على التحول إلى عشق مبدأ يقوم على أفكار من شأنها هدم العقيدة أو الطعن في مبادئها القويمة.. ولقد رسم الشاعر عبد اللطيف النشار هذه الصورة رسماً فيه توضيح لكيفية الانتقال من مسلك خاطئ إلى منهج صحيح، موافق للمبدأ الإنساني وذلك في قصيدة عنوانها ـ سكرة الوداع ـ منها قوله:

دم الـكـاسـات مـطـلـول
فـحـطّـمـهـا عـلـى الـجـلـمـد

فـهـل بَـلّـغـت يـا قـومـي
ألا يـا رب فـلـتـشـهـد

لـطـال الـنـبـت واسـتـحـصـد
ولـيـس بـقـاؤه سـرمـد

غـداً يـخـلـو الـثـرى مـنـه
غـداً يـجـتـثـه الـمـحـصـد

سـأتـرك جـانـب الـحـان
وألـزم ذروة الـمـسـجـد

كـفـانـي أربـعـون مـضـت
عـلـى الـحـال الـذي تـعـهـد

فـهـل بـلّـغـت يـا قـومـي
ألا يـا رب فـلـتـشـهـد

أنـا ابـن الـيـوم لا أمـسـي
فـيـومـي جـددّ الـمـولـد

○○○○○

فن الاكتفاء

من علماء البلاغة من يعد الاكتفاء من البديع كابن رشيق القيرواني صاحب كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، ومنهم من لا يعده من أنواع البديع كبدر الدين بن الصاحب، وقال ابن رشيق: الاكتفاء هو أن يدخل موجود الكلام على محذوفه، وقال الشيخ بدر الدين: الاكتفاء هو عبارة عن أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف ويتغاضى ذكره ليفهم المعنى، فلا يذكره لدلالة ما في لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن، مما يتقضي تمام المعنى.

ومن هذه الأقوال يظهر لنا جلياً أن الاكتفاء نوع من أنواع البديع وأنه يأتي به الناثر والناظم على حد سواء.. ومن نماذج الاكتفاء فيما ورد من أقوال الشعراء.. قول بعضهم:

أمـــرت جـــفـــونـــك بـــالـــهـــوى
مـــن كـــان يـــعـــرفـــه ومـــن لا

لـــم يـــبـــق غـــيـــر حـــشـــاشـــة
فـــي مـــهـــجـــتـــي وأخـــاف ألا

وتقدير الكلام المكتفى به في البيت الأول ـ من يعرفه ومن لا يعرفه ـ وفي البيت الثاني يقع الاكتفاء في قوله ـ وأخاف ألا ـ ولعله يقصد أن لا تبقى حشاشته.

ويقول القاضي مجد الدين بن مكناس:

يـا غـصـنـاً فـي الـريـاض مـا لا
حـمـلـتـنـي فـي هـواك مـا لا



وهو يقصد بذلك ـ ما لا أطيق ـ أو ما لا أحتمله.. ويقول البهاء زهير سائلاً الصاحب جمال الدين بن العديم حاجة:

دعوتك لما أن بدت لي حاجة
وقلت كريم مثله من تفضلا

إذا لم يكن إلا تحمل حاجة
فمنك وأما من سواك فلا ولا

وواضح أنه يريد أن يقول: فلا من سواك أريدها. و ـ لا ـ الأخيرة توكيد لغرض أخذ الحاجة إلّا من صاحبه.. ويقول ابن الوردي:

إذا كرهت منزلاً
فدونك التحولا

وإن جفاك صاحب
فكن به مستبدلا

فمن أتى فمرحباً
ومن تولى فإلى

وواضح أنه يريد أن يقول: فإلى غير رجعة، أو إلى الهلاك.

○ ○ ○ ○ ○

وصية عجيبة ولّدها وجد صادق

جاء في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أنّ من أشياخ لسان الدين بن الخطيب العالمَ أبا زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي، الذي قيل عنه إنه أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل.. وقد أوصى عند موته بوصية عجيبة من نوعها، قال لسان الدين بن الخطيب: وفلج أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل فلزم منزلي لمكان فضله ووجوب حقه.. وقد كانت زوجته توفيت وصحبه عليها وجد، فلما ثقل وقربت وفاته، استدعاني وكاد لسانه لا يبين فأوصاني وقال:

إذا مت فادفني حذاء حليلتي
يخالط عظمي في التراب عظامها

ولا تدفننِّي في البقيع فإنني
أريد إلى يوم الحساب التزامها

ورتب ضريحي كيفما شاءه الهوى
تكون أمامي أو أكون أمامها

لعل إله العرش يجبر صدعتي
فيعلي مقامي عنده ومقامها

قال لسان الدين بن الخطيب: ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي العقدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن بحذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى، والحقيقة أنها أبيات تفوح بلهجة الحزن الصادق الذي يسيل نهراً من التوجد والتشوق إلى لقائها ولو بأعظمه

البالية في باطن الأرض.. وتلك لعمري وصية تترجم حباً كان بينه وبين زوجه، وتصور حياة كانت قائمة بينهما على التوادّ والتحابّ، وتصف عمق الصلة الزوجية التي سعدا بها معاً وقتاً من الزمان.

قال التلمساني: وكان لأبي زكريا أدب ذهب في الإجادة كل مذهب.. وله ديوان سماه «السليمانيات والعزفيات»، ومن قصيدة له مثبتة في كتاب نفح الطيب، هذه الأبيات التي يقول فيها:

نام طفل النبت في جحر النُّعامىٰ
لاهتزاز الطل في مهد الخزامىٰ

وسما الوسمي أغصان النقا
فهوت تلثم أفواه الندامى

كحل الفجر لهم جفن الدجى
وغدا في وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر مُحيّا ثَمِلٍ
قد سقته راحةُ الصبح مُداما

○○○○○

الرأي وفعاليته

يصعب تعريف الرأي أو تحديده في نقطة أو عبارة معينة أو إطار مميز، كما أن البحث في صفته ومصادره وفعاليته أمر ليس بالمستطاع، لأنه يختلف باختلاف العقل الذي ينتجه، والموقف الذي يتطلبه، والمجتمع الذي يتعامل به، وعلى الرغم من هذا فهو من أهم ضروريات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إذ به تشرق المواقف ويكون الاعتدال في كل أمر.. ولهذه الأهمية كان المفكرون والأدباء والفلاسفة والعلماء والشعراء يتشددون على البحث عنه واستصحابه، وقد أكثروا في وصاياهم على طلبه من أهله ومن عرفوا بأصالته، قال أحد الفلاسفة: لا رأي لمن انفرد برأيه.. وقال علي كرم الله وجهه: خاطَرَ من استغنى برأيه.

وقال أبو سعيد الحسن بن يسار البصري: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل فذو الرأي والمشورة، وأما نصف الرجل فالذي له رأي ولا يشاور، وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي لا رأي له ولا يشاور.

وقيل للأحنف بن قيس السعدي التميمي: بم سدت قومك؟ قال: بحسب لا يطعن فيه، ورأي لا يستغنى عنه، وقال علي كرم الله وجهه: من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.

وقال الاسكندر المقدوني: لا تستحقر الرأي الجزيل من الرجل الدنيء فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، وللشعراء في هذا الموضوع أقوال كثيرة لا تحصر، قيل: أن محمد بن زياد وهو وزير

الخليفة العباسي المأمون، سمع قول القائل وأحسبه الخليفة المنصور:

إذا كـنـت ذا رأي فـكـن ذا عـزيـمـة
فـإن فـســاد الــرأي أن تــتــرددا

فأضاف إليه:

وإن كـنـت ذا عـزم فـانـفـذه عـاجـلاً
فـإن فـسـاد الـعـزم أن تـتـقـيـدا

ويقول أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

ذهـب الـصـواب بـرأيـه فـكـأنـمـا
آراؤه اشــتــقّــت مــن الــتــأيــيــد

فـإذا دجـا خـطـب تـبـلـج رأيـه
صـبـحـاً مـن الـتـوفـيـق والـتـسـديـد

وقد افتخر أبو مسلم الخراساني برأيه الذي أعمله ضد بني أمية فقال:

أدركت بالرأي والكتمان ما عجزت
عـنـه مـلـوك بـنـي مـروان إذ قـعـدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم
والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا
من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد

○ ○ ○ ○ ○

إمعان النظر في صنع الله!!!

من الشعراء من تخطر له خواطر ذات تفكير، وتجليات ذات تدبر، فينطلق متفكراً بادئ ذي بدء في نفسه وتكوينه، ثم فيما حوله من الأشياء سواء أكانت من المخلوقات الجامدة أو الحية المتحركة العاقلة وغير العاقلة، ويقف وقفات كلها تجليات وإبداعات تفصح عن مكنون نفسه، وتحمل على الارتواء من معين الإيمان والتزود بزاد التقوى، فالنظر إلى الطبيعة وما أودعه الله سبحانه وتعالى فيها من جمال يغذي البصر ويطرب البصيرة، يمد النفس بالصفاء والبهجة وبكل ما يزيد من الإيمان بقدرة الخالق وعظمته.

وعبد اللطيف النشار واحد من الشعراء الذين أمعنوا النظر في صنع الخالق جلَّ شأنه وتبارك اسمه، وكان له تدبر في عجز الإنسان عن إدراك كنه بعض الأشياء التي من حوله.. وله تفكير إيماني في سطوع بعض الكواكب وانطفاء بعضها.. يقول من قصيدة له ضمنها نظرات تشير إلى ضعف الإنسان أمام تلك الكواكب التي تجلت فيها عظمة صنع الله.. لنعلم أن الله على كل شيء قدير.. وأنه قد أحاط بكل شيء علماً:

ضعف الناس بما قد جهلوا
واختلاف الناس في الجهل عظيم

وترى الحسن دليلاً هادياً
ودليل الحسن في الحق عظيم

حسبنا ضعفاً وعجزاً بَيِّناً
أن ما نصنعه ليس يدوم

إننا نحن وما نُكْبِرِه

كرماد النار من حول جحيم

وسكنا كوكباً منطفئاً

وضيوف نحن فيه لا نقيم

واعتززنا بقوى تحفزنا

محكمات الصنع من صنع كريم

وهي للّه وباللّه علت

مودع الأرواح منا في الجسوم

عظمت صنعة من أودعها

أنجماً تسطع في ليل بهيم

○ ○ ○ ○ ○

القضاة والعدل في القضاء

موضوع القضاء وعدل القضاة لا ينتهي الباحث فيه عند حد، ولا يصل الرأي فيه إلى نقطة نهاية، ومناقب القضاة لا يمكن حصرها أو حتى تحديد نمط معين لأسلوب الحديث عنها، قال أبو حازم الأعرج، واسمه سلمة بن دينار: دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم فلم يرد، فقال لعبد الرحمٰن بن عوف: أخاف أن يكون قد وجد علي خليفة رسول الله، فكلم عبد الرحمٰن أبا بكر فقال: أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلني عنهما وعما قالا وعما قلت.

قال محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب قاضي الكوفة: قال لي المعتز بالله العباس محمد بن جعفر لما ولاني قضاء الكوفة، يا محمد قد وليتك القضاء، وإنما هي الدماء والفروج والأموال، ينفذ فيها أمرك، ولا يرد حكمك، فاتق الله وانظر ما أنت صانع، فما قرع قلبي كلام مثله، روى عبد الملك بن عمير بن سويد بن حارثة القرشي عن رجل من أهل اليمن أنه قال: أقبل سيل باليمن في ولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأبرز عن باب مغلق، فظنناه كنزاً فكتبنا إلى أبي بكر، فكتب: لا تحركوه حتى يقدم عليكم أمنائي، ففتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح فيه مكتوب.

إذا خـــان الأمـــيـــر وكـــاتـــبـــاه

وقـاضـي الأرض داهـن فـي الـقـضـاء



فويل ثم ويل ثم ويل
لقاضي الأرض من قاضي السماء

قال عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي قاضي الكوفة المولود سنة ٧٢ لما ولاه أبو جعفر المنصور القضاء: اللهم إنك تعلم أني لم أجلس هذا المجلس لأني أحبه وأشتهيه فاكفني شر عواقبه، ونظم الهائم واسمه أحمد بن محمد بن علي من ذرية العباس بن مرداس السلمي الصحابي قصيدة ذكر فيها مناقب العلماء والقضاة، من ذلك قوله:

أجدر الناس بالعلا العلماء
فهم الصالحون والأولياء

فالبرايا جسم وهم فيه روح
والبرايا موتى وهم أحياء

وقوله:

قد رأينا لكل دهر عيوناً
ولعمري هم للعيون ضياء

لا يبالون ما يقول جهول
أنهيق كلامه أم عواء

وإذا الكلب في ظلام الليالي
نبح الأرض لا تبالي السماء

فليبؤ بالشقاء كل جهول
ولتقر بالسعادة العلماء

○ ○ ○ ○ ○

فضل الأولين على الآخرين

قلّما نقرأ موضوعاً لكاتب أو قصيدة لشاعر أو رأياً لأديب له علاقة بالمقارنة الموضوعية في مجال المفاضلة بين الأجيال المتقدمة والأجيال المتأخرة، إلّا ونجده قد أدلى بشهادة يحقق فيها فضل المتقدم على المتأخر، ومفصلاً بعض النقاط التي بنى عليها شهادته وأجرى بموجبها مقارنته وموازنته في إشارات ترتكز على متانة عقيدة المتقدم وسلامة نيّته، وصدق عزيمته، وحسن انقياده لله ولرسوله بالطاعة والثبات على الأمر.. وفي تنويه إلى ما مسّ هذه المقومات الروحية من ضعف يتدرج من مورِّث إلى وارث في حالة أقل من الحالة التي زامن بها المورِّث حتى وصلت إلينا بحالتها الراهنة التي لا يرضى عن كثير منها من ارتبط قلبه بحب الله ورسوله.

والذي يبحث في كتب التراث التي وصلت إلينا عبر الجسور الزمنية التي تربطنا بالعصور السالفة والقرون الماضية التي هي أقرب في الانحدار إلى قرن بعثة رسول الله ﷺ.. يدرك البعد الشاسع، والفرق القائم بين ما كان عليه أهل القرون الأولى من صفاء عقيدي، وجو إيماني لم يدنسه غبار المادة التي طغى مؤشرها في زمننا على كل شيء، وأصبح له الأفضلية على ما سواه من مقومات الحياة، وبين ما نحن عليه من تهاون بأمر الدين وتساهل بالواجب الإنساني الذي يفرضه المنهج الإسلامي على أبنائه المتنسبين إليه.

ومن الشعراء الذين حاولوا وضع مقارنة في فضل المتقدم على المتأخر، القاضي الديري واسمه كما ذكره السيوطي في كتابه «نظم

العقيان في أعيان الأعيان» سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد الديري الحنفي، وذلك بقوله:

ذهب الأولى كان التفاضل بينهم
بالحلم والأفضال والمعروف
يتجشمون متاعباً لإغاثة الـ
ـمظلوم أو لإغاثة الملهوف
وأتى الذين الفخر فيهم منعهم
للسائلين وظلم كل ضعيف
فتراهم يتردّدون مع الهوى
قد أعرضوا عن أكثر التكليف
ما بين جبّارٍ وباعث فتنةٍ
ومماطل بخداعه مشغوف
والمستقيم على الطريقة نادر
ما إن تراه بين جمع ألوف
فاسلم بدينك لا تقل لا بدّ لي
منهم لدفع كريهةٍ ومخوف
واضرع لربك لا تكن مستبدلاً
ذا ضَنّةٍ وفظاظةٍ برؤوف

والقصيدة أكثر من ذلك وهي موجودة في الكتاب الذي أشرت إليه آنفاً.

○○○○○

من صور البخل

يكاد يكون البخل داءً معدياً.. والمرء المصاب به يكاد يعرف كما يعرف البعير الأجرب الذي أفرد من الذود خشية أن يعديه.

وأصابع التحقير تشير بكل سخرية إلى المرء البخيل في كل مناسبة تجمعه بالأسخياء والكرماء.

والبخيل تراه دائماً وأبداً يتعرض للسع العبارات المنتقاة من قواميس الذم وتراه أيضاً تتسرب إلى أذنه في كل مكان يتواجد فيه كلمات محبرة ومصاغة صياغة لاذعة في قالب نثري حيناً وشعري أحياناً.

ونحن نرى تأثير البخل على البخيل في حياتنا اليومية.. ونرى انعكاس أثره السيء على صاحبه، إذ قلّما ترى بخيلاً يتولى منصباً قيادياً في مجتمعه إلا ما شذ، وقلّما تراه مخدوماً أو مسموعاً له كلمة، وإن كان على درجة من العلم والمال.

وقلّما يجلس البخيل في مجلس إلّا ويقصد بتصريح أو تلميح جارح يعني بخله الذي يضفي عليه صفة اللؤم والحقارة.. ومن ذلك التعريض اللاذع الذي يتعمد الناس تسميعه للبخيل قولهم.. قيل لبخيل من أشجع الناس؟ قال: من يسمع وقع أضراس الناس على طعامه فلا تنشق مرارته.. ولا أخال البخيل إذا سمع مثل هذه التلميحات إلا ويصغر حجمه بين الجلساء.. ويتضاءل في نفسه، ويجد ضيقاً وحرجاً مما قالوا.. ولكن طبع البخل قد غلب عليه فلا يستطيع التخلص منه، لذا فهو يفضل الصبر على تلك اللذعات على محاولة طرد البخل بالتكرم والتساخي.



ولقد وصف محمد بن أحمد الحمدوني بخل أبي زرارة بقوله:

رأيت أبا زرارة قال يوماً
لحاجبه وفي يده الحسام

حلال اللّه من أهل ومال
عليه وهو ما يحوي حرام

لئن حضر الخوان ولاح شخص
لأختطفنّ رأسك والسلام

فقال سوى أبيك فذاك شيخ
بغيض ليس يردعه الكلام

فقال وقام من حنق إليه
بقد لم يزد فيه القيام

أبي وأبو أبي والكلب عندي
بمنزلة إذا حضر الطعام

إذا حضر الطعام فلا حقوق
عليَّ لوالدي ولا ذمام

فما في الأرض أقبح من خوان
عليه الخبز يحضره الزحام

○○○○○

النسيان

قد يكون النسيان داء يبتلى به بعض الناس، وقد يكون رحمة لبعضهم، فهو داء إذا كان يتسبب في تعطيل شئون حياة المرء، أو يكون سبباً في ازدواجية العمل أو تكرار الفعل، بحيث تكون النتيجة بعد لأي وتعب وتضييع وقت، تحصيل شيء قد سبق تحصيله وبُذِلَ فيه جهد طوته صفحة النسيان لتعيد بسوء فعلها تكرار الجهد في البحث عنه.

وهو رحمة إذا كان سبباً لطمس معالم الخلافات التي كثيراً ما تنشب بين الناس... وإذا طغى النسيان على ذاكرة الحقد لدى المرء فإنه إلى وصل حبل الصداقة أقرب وإلى توثيق عرى المحبة أميل... أما إذا نفته ذاكرة الحقد من ساحة العلاقات التي تربط صاحبها بالآخرين فإنه إلى تذكية نار العداوة والبغضاء أقرب منه إلى إطفائها.

والنسيان آفة تجتاح محصول الذاكرة الذي قطع صاحبه في تحصيله زمناً.. وأنفد في تكوينه عمراً، ولهذا قيل ـ آفة العلم النسيان ـ.

والنسيان من حيث طبيعته وتعامله مع الإنسان له نفس طويل، وخطوات تدرجية نحو اكتمال نموّه في مركز عقل الإنسان، هذا إذا كان نموّه طبيعيّاً، أما إذا كان غير طبيعي فإنه يشب بسرعة لا تتزامن مقاييسها مع عمر الإنسان فيؤهلها نموّها السريع من السيطرة على الذاكرة وإضعافها. بل إبطال مفعولها لدى بعض الناس، ولقد داعب الشاعر ظافر الحداد شخصاً يقال له أبو عامر.. فصور فعل النسيان فيه بقوله:

توافق الناس في النسيان واختلفوا

فكل ناس له جنس وأشباه



إلّا أبا عامر لم يحو خاطره
مذ كان لفظاً ولا معنى فينساه

إذا تصعد لفظاً من ضمائره
ينساه من قبل أن تجري به فاه

يصدّ كل حديث في مسامعه
عن قلبه فكأن اللفظ يشناه

ما مرّ قط به خير فأضحكه
ولا ألمّ به شر فأبكاه

لا فرط حلم بلى سهواً يُزيلُها
من قبل يَبْسم أو تنهل عيناه

كأنه جاحد مُذقطٍّ وهو على
حق ولكن بسرٍّ لاح معناه

إذا تشهد أبدى «لا إلٰه» ولا
يتمها ثم ينسى بعد «إلا هو»

○ ○ ○ ○ ○

الملوخية بالفراخ

الشعب المصري يشتهر من بين الشعوب العربية بحبه الشديد للملوخية بالأرانب أو فراخ الطيور، حماماً أو دجاجاً أو إوزاً أو غير ذلك، وهذا الحب لهذه الأكلة جعل الطباخين في مصر يتفننون في طبخ الملوخية تفنناً عجيباً، يسيل من أجله اللعاب وتنفتح له الشهية، ولكون الملوخية بالفراخ أكلة مفضلة لدى الشعب المصري قاطبة، نراها - وأعني بذلك الملوخية - تكون في مقدمة ما يقدم للضيوف من أطايب المأكولات.

ولشهرة الملوخية لدى المصريين وحبهم لتناولها أخذ شعراؤهم في التفنن في وصفها، قبل طبخها وبعده، ومنهم من يقف وقفات طويلة في تشبيهها، وذكر فوائدها، والمغالاة في حب أكلها.

والشعب المصري له تاريخ طويل مع الملوخية، فالمتتبع لأقوال الشعراء العباسيين والفاطميين وغيرهم، يلاحظ ظاهرة حب الشعب المصري للملوخية في أشعارهم، وهذا ظافر الحداد واسمه ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله ينتمي إلى جري من بني جذام، وهو شاعر فاطمي قد استدعى صديقاً له إلى أكل ملوخية، وفي دعوته له استطرد في القول، وأتى على ذكر شيء من وصف الملوخية، يقول في دعوته تلك:

أيا سيدي وأخي لا تغِبْ
فعندي لك اليوم ما يستحب

ملوخيّة سبقت وقتها
وجاءت كهيئة خُضر الزغب



وقد نقيت قبل تقطيفها
بكفيّ لبيب خبيرٍ درب
وقد غادرتها حدود المدى
كما غادر الصبر قلب محب
وقد أحكمت بفراخ الحمام
ودُهْن الدجاج وصفر الكبب
إلى أن تحرر تركيبها
كما حرَّر الصيرفي الذهب
وكمّلها النضج حتى هدت
فليس لعيب إليها سبب
فبادر إلينا فكلٌّ إلى
قدومك ملتفت مرتقب

○○○○○

ملحمة العقوق

في العدد ٢١٧١ من جريدة الجزيرة التي تصدر من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية نُشرتْ قصيدة للشاعر الدكتور أحمد بن عبد الله السالم عنوانها «ملحمة العقوق» والحقيقة، إنها قصيدة تكاد تكون الوحيدة من نوعها من حيث معالجتها لقضية اجتماعية ذات علاقة بالأولاد وكيفية ارتباطهم بوالدهم في مرحلة طفولتهم، وتحلل ذلك الارتباط في مرحلة ثانية هي مرحلة الرجولة التي فيها يطمع الآباء في أبنائهم ما كانوا يتعشمونه فيهم من بر، ويأملون فيها أن يجدوا من أبنائهم ما يسر نفوسهم ويبهج خواطرهم.

والشاعر الدكتور أحمد السالم قد صور في تلك القصيدة التي بلغت ثلاثين بيتاً ما يصاب به الآباء من إحباط في نتيجة ما يعلقونه من آمال على أبنائهم.. وعلى لسان أحد الآباء أظهر تأثره بما لقيه من سلبيات من أبنائه لا تخلو من رائحة العقوق وإنكار الحنان الذي كانوا يجدونه من أبيهم، ويتفيئون بوارف ظلاله وسعادة أمنه ورغد عيشه.

والقصيدة في حد ذاتها تمثل قصة ذات فصول، الفصل الأول فيها عرض للمعاناة والتعب والمشقة التي ينالها ذلك الأب في سبيل راحة أبنائه، والثاني تزويجهم والطمع في الاستقرار معهم، والثالث مقابلة الأولاد لذلك الصنيع بالجفوة والتخلي عن والدهم، والرابع القسوة والعقوق المتمثلة في إيداعه في دار الرعاية الاجتماعية، من تلك القصيدة قوله:

أفنيت عمر في كد وفي نكد

حتى ينير خطى أولادي الأمل



وقوله:

وكم توسد كل منهم عضدي
وكم تحمله كتفي وإن ثقلوا

رأيت من فرط حبي أن أزوجهم
من الكواعب ما تشفى به الغلل

كانوا مطاويع كما نالوا رضاي وكم
تناثرت فوق رأسي منهم القبل

وقوله:

فما تنبهت إلَّا والضجيج على
سمعي يجلجل والأولاد قد رحلوا

كل بدا كفه في كف زوجتِه
وكف والده بالريح تغتسل

وقوله:

وأدخلوني داراً لست أدخلها
فأكدوا أنه ينتابني الشلل

لم يمنحوا لأبيهم عشر ما مَنحوا
زوجاتهم، فأجيبوا السؤل: هل عدلوا؟

○ ○ ○ ○ ○

وقفة شاعر أمام فلاح

من الشعراء من يكون له التفاتات ذكية تمكنه من التنقيب عما يجهله غيره أو لا يهتم به.. فتراه يبحث عن السواعد التي تعمل بصمت ويجهل قيمة عملها كثير من الناس، وذلك كالفلاح الذي ينظر إليه بعضهم وكأنه رجل عادي أو أقل من العادي لسبب واحد ربما يكون انخفاض مستواه التعليمي والثقافي ليس إلّا، متناسين بذلك أنه يقوم بدور من أهم أدوار الحياة وأصعبها.

والحقيقة أن الوقوف أمام عمل الفلاحين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف اليدوية التي هي من أهم مقومات الحياة اليومية.. وإبرازه في لوحة شعرية يخلدها التاريخ أمر يعطي بطبيعته قوة مؤثرة في نفس الفلاح، ودفعة قوية تشد من ساعده، وتشعره بأن هناك من يقدر عمله ويجلّ قدره، وينظر إليه نظرة إكبار ليزداد بذلك قوة يكون لها أثر في مضاعفة جهده ورفع مستوى إنتاجه الغذائي الذي يعد من أهم العوامل وأبرزها في عملية توازن الحياة.

والشاعر التونسي أحمد اللغماني المولود عام ١٩٢٣م قد وقف أمام الفلاح وسجل شيئاً من جهوده العظيمة، وبعضاً مما يقاسيه من التعب والمشقة أثناء تأديته لعمله.. ذلك العمل الذي يعد من أشرف الأعمال وأطهرها وأزكاها، وأنقاها كسباً.. وذلك في قصيدة طويلة عنوانها «الفلاح»، منها قوله:

من جدى كفك يحسو الأغنياء

يا أخا المحنة يا إلف الشقاء



ذلــك الــســاعــد كــم أوهــنــه
نصبُ المحراث في الأرض العراء

تستبق الفجر إلى الحقل وتستقبـ
ـل النجم به عند المساء

ومنها قوله:

لا تــقــي جــلــدك إلّا خــرقــة
في سعير الصيف أو قر الشتاء

ومنها قوله:

يـغـتـدي والـعـظـم مـنـه واهـن
بـيـد أن الـقـلـب مـوفـور الإبـاء

خـلـف لـمـح مـن أمـان شـرّد
وسـراب مـن طـمـوح ورجـاء

ثـابـت كـالـطـود مـا زعـزعـه
عـبـث الـدهـر ولا سـخـط الـقـضـاء

ومنها قوله:

لا تـقـولـوا مـعـدم فـهـو عـلـى
فـقـره قـد عـال أربـاب الـثـراء

○ ○ ○ ○ ○

انعكاس.. وانتكاس

إن المتدبر لتاريخ أمتنا، والمتصفح لصفحات أبطالها المشرقة، والباحث في صدق عزيمتها القوية.. والمتأمل في رسوخ عقيدتها.. والمستظهر لشهامتها ونجدتها، وكرمها، ووفائها، وحسن وفادتها وإبائها وعلو شأنها، ورفعة مجدها، ومضاءة تقريرها.. وفصاحة منطقها.. يقف مذهولاً حينما يريد مقارنتها بواقع أمتنا المعاصر لأن بين هذه وتلك بون بعيد، وفرق شاسع لا يقاس، ولا يقدر.. والسؤال الذي يفرض نفسه أو يبرز في هذا المجال هو، لماذا حدثت هذه الشقة وذلك التفاوت اللانسبي؟ ولماذا هذا التدني في تلك الصفات؟

والجواب على ذلك يتمثل في أننا أضعنا ما ورثناه، وتساهلنا في تطبيقه بل إن منا من اعتبر.. أو عدّ بالأصح السير على منهجه تخلفاً.. ورآه رجوعاً للوراء.. وما علم أن التخلف، بل كل التخلف هو فيما نحن عليه اليوم من عدم التمسك بالآداب والفضائل المستمدة من أوائلنا الذين صنعوا التاريخ وسطروا البطولات التي ما زالت ذكراها تملأ الدنيا.. وهو أيضاً يكمن في استبدالنا كل ما تعنيه الشهامة وتحققه العقيدة بالمادة وجعلها أساساً لكل منهج ننتهجه، ونحن غير مبالين بما سواها مما جعل روح الوفاء تنعدم فينا، وعلاقة التآخي والتآزر تنشل بيننا. ومن أجل هذا كله قويت في نفوسنا وسائل العجب والغرور والتيه وحب اللهو.

يقول نجيب الكيلاني من قصيدة له عنوانها «وداع»:

سبانا اللهو والطربُ
وشاع التيه والعجبُ



وضاع النصر من زمن
ونزعم أننا عرب

تولت عزة الماضي
وضاع المجد والحسب

فلا دين ولا أُسُل
ولا علم ولا أدب

ودور العدل دمرها
غريب الزور والكذبُ

حماة الدين قد ذهبوا
وأمسى فخرنا الذهبُ

رجال الأمس قد وثبوا
وجند اليوم قد هربوا

يفرق بيننا جشع
ويجمع بيننا صخبُ

○ ○ ○ ○ ○

شاعر يقلب التشاؤم ويعكسه

ذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» أن السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون شرع في بناء مدرسة باسمه في سنة ٧٥٨هـ وكان في موضعها دور وإسطبلات، ونقل عن المقريزي قوله:

لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها، قامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تَبْطُل يوماً واحداً، ورصد لمصروفها في كل يوم عشرين ألف درهم، منها نحو ألف مثقال ذهباً.. حتى قال السلطان: لولا أن يقال: ملك مصر عجز عن إتمام ما بناه لتركت بناءها من كثر ما صرف.. وقد كان ذرع إيوانها الكبير ٦٥ ذراعاً في مثلها.. ويقال: إنه أكبر من ديوان كسرى بخمسة أذرع، وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة.

ونقل السيوطي عن الحافظ ابن حجر قوله: يقال: إن السلطان حسناً أراد أن يُعمل في مدرسته درس فرائض.. فقال البهاء السبكي: هو باب من أبواب الفقه، فأعرض عن ذلك.. فاتفق وقوع قضية في الفرائض مشكلة، فسئل عنها السّبكيّ، فلم يجب عنها، فأرسلوا إلى الشيخ شمس الدين الكلائي، فقال: إذا كانت الفرائض باباً من أبواب الفقه فما له لا يجيب؟ فشق ذلك على بهاء الدين وندم على ما قال.. وكان السلطان قد عزم على أن يبني أربع منائر يؤذنون عليها، فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة اثنتين وستين

وسبعمائة سقطت المنارة التي على الباب فهلك تحتها نحو ثلاثمئة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رُتبوا بمكتب السبيل، ومن غيرهم، فلهج الناس بأن ذلك ينذر بزوال الدولة، فقال الشيخ بهاء الدين السّبكي في ذلك أبياتاً عكس ذلك المفهوم الذي لهج به الناس وأحال التشاؤم إلى تفاؤل، ومن تلك الأبيات قوله:

أبشر فسعدك يا سلطان مصرَ أتى
بشيره بمقالٍ سار كالمثل

إن المنارة لم تسقط لمنقصة
لكن لسرٍّ خفيّ قد تبيّن لي

من تحتها قرئ القرآن فاستمعت
فالوجد في الحال أدّاها إلى الميل

لوأنزل اللّه قرآناً على جبل
تصدعت رأسه من شدة الوجل

تلك الحجارة لم تنتقض بل هبطت
من خشية اللّه لا للضعف والخلل

وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت
بنفسها لجوىً في القلب مشتعل

فالحمد لله خطّ العين زال بما
قد كان قدّره الرحمن في الأزل

لا يعتدي البؤس بعد اليوم مدرسة
شَيّدتَ بنيانها للعلم والعمل

قال: فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المئذنة بثلاثة وثلاثين يوماً.

○○○○○

طيف الخيال

ألف الشريف المرتضى واسمه علي بن الحسين بن موسى، ينتهي نسبه برابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد لقب بالشريف المرتضى كما لقب أخوه بالرضي، وهما شاعران مجيدان، ولد المرتضى ببغداد سنة ٣٥٥هـ.. قلت ألف كتاباً اسمه «طيف الخيال» وقال في مقدمته: ومما يمدح به - ويعني بذلك طيف الخيال - أنه زيارة من غير وعد يخشى مطله ويخاف لبسه فوته. واللذة التي لم تحتسب ولم ترتقب يتضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع، وأنه وصلٌ من قاطع، وزيارة من هاجر، وعطاء من مانع، وبذل من ضنين، وجود من بخيل.

ويواصل الشريف المرتضى الكلام عن طيف الخيال فيقول: إنه لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما، ولا يخشى منع منهما ولا اطلاع عليهما، والتهمة بهما زائلة، والريبة عنهما عادلة، وأنه تمتع ولكن لا يتعلق بهما تجهم ولا يدنوا إليهما تأثيم ولا عيب فيهما ولا عار.

وقد استشهد الشريد المرتضى في كتابه الآنف الذكر بالشيء الكثير من شعره المتعلق بطيف الخيال، وهو شعر يعد من جيد الأشعار التي قيلت في طيف الخيال، وطيب لقائه وزورته ومؤانسته، من ذلك قوله:

ألّم خيال من أميمة طارق
ومن مسراه اللوى والأبارق

ألّم بنا لم ندر كيف لمامه
وقد طال ما عاقته عنا العوائق



ويقول:

نعمنا به حتى كأن لقاءنا
وما هو إلا غاية الزور صادق
فيا زائري في الليل إلا وصبحنا
تسل علينا منه بيض دوانق
وكيف ارتضيت الليل والليل ملبس
تضل به عنا وعنك الحقائق
تخيل لي قرباً وأنت بنجوة
وتوهمني وصلاً وأنت مفارق

وقوله من قصيدة أخرى:

وقد زارني بعد الهدوء خياله
فجدد من شوقي وما كان أخلقا
فللّه مردود إليّ طروقه
وما كنت أرجو منه بالليل مُطرقا

ooooo

مناجاة الطيف

في موضوع سبق هذا الموضوع ـ عنوانه «طيف الخيال» ـ نقلت شيئاً مما قاله الشريف المرتضى في كتابه «طيف الخيال». وها أنذا أعود مرة أخرى لأواصل نقل بعض ما أراه مستطاباً من ذلك الكتاب، حيث أجد الشريف المرتضى يقول عن طيف الخيال، وكيفية اهتدائه إلى مضجع من يريد زيارته. يقول: وقد تعجب الشعراء كثيراً من زيارة الطيف على بعد الدار وشحط المزار، ووعورة الطرق واشتباه السبل.. واهتدائه إلى المضاجع من غير مرشد يرشده، وعاضد يعضده. وكيف قطع المسافة بلا حافر ولا خف في أقرب مدة وأسرع زمان.

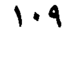
ويشير الشريف المرتضى إلى أن أبا تمام والبحتري هما الشاعران اللذان كانا مُتَيّمين بطيف الخيال، وأن البحتري قد أكثر من القول فيه وأغزر مع تجويد وإحسان وافتنان، وتَصَرّف فيه تصرف المالكين، وتمكن منه تمكن القادرين، وهذا شيء مما قاله أبو تمام في طيف الخيال:

عادك الزور ليلة الرمل من
رملة بين الحمى وبين المطالي

زر فما زارك الخيال ولـ
ـكنك بالفكر زرت طيف الخيال

ويقول البحتري في طيف الخيال:

خطرت في النوم منها خطرة
خطرة البرق بدا ثم اضمحل



أي زورٍ لــك قــصــداً ســرى
ومــلــمٍ بــك لــو حــقــاً فــعــل

تــتــراءى والــكــرى فــي مــقــلــتــي
فــإذا فــارقــهــا الــنــوم بــطــل

قــمــراً تــبــعــثــه مــن كــلــف
نــظــر الــصــبــيــة حــتــى أفــل

وكما أشار الشريف المرتضى إلى أن البحتري أكثر الشعراء ذكراً لطيف الخيال فإن الذي يستعرض ديوان البحتري يجده مُلِيءَ بمناجاة طيف الخيال ومغازلته.. أسمعه وهو يخاطب طيف الخيال وكأنه ماثلاً أمامه، يقول:

أجــدك إنّ لــمــاتِ الــخــيــال
لــمــذكــرتــي بــأيــام الــوصــال

تــؤرقــنــي إذا الــرقــبــاء نــامــوا
أنــاة الــخــطــو فــاتــنــة الــدلال

○○○○○

شعراء لهم مع طيف الخيال لقاء

يكاد يكون هناك إجماع بل اتفاق بين الشعراء على أن طيف الخيال يَسُدُّ مَسَدَّ حقيقته في بعض المواقف، بل إن بعضهم يرى أنه أصدق، وأنه لا يأتي حينما يأتي بتبعة أو جريرة. إذ لا تراه عين ولا ينشر عنه لسان خبراً.

أما التلذذ بمجيء طيف الخيال ومناجاته فقد سبقت مني إشارة خفيفة عن ذلك في موضوعين تقدما أحدهما تحت عنوان «طيف الخيال» والآخر تحت عنوان «مناجات الخيال».

والشعراء الذين كان لهم مع طيف الخيال لقاء لا يمكن حصرهم في هذا الموضوع لأنهم كثر.

وإذا ما أردت الاستشهاد على واقع لقاءات الشعراء بطيف الخيال بشيء من أقوالهم، فهذا مثلاً جران العود واسمه عامر بن الحارث بن كلفة من بني نمير يقول:

أهلاً بطيفكِ من زورٍ أتاك به
حديثُ نفسِك عنه وهو مشغول

وقد قيل أن هذا المعنى كان للشاعر جران العود فيه سبق، إذ أخذه منه أبو تام والبحتري وغيرهما.

وهذا الشاعر العتابي واسمه كلثوم بن عمرون بن عتاب بن تغلب يقول:

فأهدى إلينا الليل شخصاً تناسبت
إلى الحسن منه صورةٌ وشمائل



فباتت غمامات النعيم تجودنا
لها ديم حتى الصباح ووابل

وهذا الشريف الرضي يقول من قصيدة له:

أراقب من طيف الخيال وصالا
ويأبى خيال أن يزور خيالا
وهل أبقت الأشجان إلا ممثلاً
تعاوره أيد الضنا ومثالا
ألمّ بنا والليل قد شاب رأسه
وقد قبّل النجوم ومالا

وهذا النظار الفقعسي يقول:

إني اهتدت لمناخنا جُمُلُ
ومن الكرى لعيوننا كُحْلُ
طرقت أخا سفر وناجية
خرقاء يغرق بينها الرحل

○○○○○

كيف أصبح طلائع ملكاً على مصر؟

لا أريد أن أزيد على ما دوَّنه الدكتور أحمد أحمد بدوي في مقدمة ديوان «الوزير طلائع بن رُزّيك» الذي استنجد به القاضي الجليس بن الحباب وأخوات الخليفة الظافر بأمر الله. فاستجاب لذلك الاستنجاد فحكم مصر.. قال الدكتور بدوي: استيقظ القصر الفاطمي صبيحة اليوم السادس عشر من المحرم سنة ٥٤٩هـ يبحث عن الخليفة الظافر بأمر الله في مخدعه وعند الحرم، وفي حجرة العرش، فلم يعثر له على أثر، وعندما أقبل وزيره عباس الصنهاجي كعادته في الصباح مع ألف رجل يحملون السلاح، طلب الإذن في أن يقابل الخليفة كي يطلعه على أمور الدولة، وحين أخبر بغيبته أظهر الغضب، وأمر فأحضر أخوي الخليفة الغائب فقتلهما زاعماً أنهما كانا ينافسان على أخيهما الخلافة، وأنهما قتلاه، ومضى إلى طفل للظافر ذي خمس سنين فنادى به خليفة، ولقبه الفائز بنصر الله، وأخذ عباس ما أراد من الأموال والجواهر والذخائر النفيسة، ولم يترك إلا ما لا خير فيه.

لم يستسغ أهل القصر ما حدّثهم به الوزير عباس، ولم يرتضه الشعب، ولم يلبث الناس أن وقعوا على الخبر الصحيح، وعلموا أن القاتل للخليفة إنما هو نصر بن عباس لأمور مريبة، كانت بينهما فاستعظموا أمر هذه الجريمة الشنيعة، وثارت القاهرة وانتشر القتال في الطرقات، وأسرع أتباع عباس بالتخلي عنه، وأخذ الناس يسومونه المكروه في الشوارع، وألقي عليه في يوم قدر مملوءة ماء حاراً، وفي آخر قذف بهاون من النحاس، وبعثوا إلى طلائع بن رزّيك أحد ولاة الصعيد يستنجدون به على عباس وابنه نصر، وأرسلت إليه أخوات

الظافر بشعورهن في كتب كلها سواد، وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس بن الحباب قصيدة منها:

دهتني عن نظم القريض عوادي
وشف فؤادي شجوة المتمادي

وأرّق عيني والعيون هواجع
هموم أقضتْ مضجعي ووسادي

بمصرع أبناء الوصي وعترة النَّـ
ـبيّ وآل الذّاريات وصاد

فابن بنو رزّيك عنهم ونصرهم
ومالهم من منعة وذياد

أولئك أنصار الهدى وبنو الردّى
وسم العدا من حاضرين وباد

لقد هدّ ركن الدين ليلة قتله
بخير دليل للنجاة وهاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره
حشاشة نفس آذنت بنفاد

فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد

فلما بلغ ذلك طلائع بن رزيك حشد جموعه وأقبل على القاهرة لابساً السواد، حاملاً شعور حرم الخليفة على الرماح، ودخل قصر الوزارة في التاسع من ربيع الأول، وتلقب بالملك الصالح، وأخرج جسد الظافر من البئر التي قد رمي فيها بعد قتله وجعله في تابوت.. أما عباس وابنه ففرا من القاهرة ومعهما ما يستطيعان حمله طالبين



الشرق فاعترضهما الفرنج فقاتلا حتى قتل عباس وأخذت أمواله وأسر ولده نصر وأرسل إلى مصر في قفص من حديد وخلعت يده، وضرب ضرباً مهلكاً، وقرض جسمه بالمقارض ثم صلب على باب زويلة حياً حتى مات وبقي مصلوباً حتى يوم عاشوراء سنة ٥٥١هـ، ثم أنزل وأحرقت عظامه.

○○○○○

عمارة اليمني يرفض الدخول في مذهب الشيعة

في موضوع سابق عنوانه «كيف أصبح طلائع ملكاً على مصر» أوردت نبذة قصيرة عن طلائع بن رزيك الذي لقب بالملك الصالح بعد أن ولي أمر مصر.. وفي هذا الموضوع أورد شيئاً مما ذكره الدكتور أحمد أحمد بدوي عن علاقة عمارة اليمني بطلائع.. قال: قال عمارة اليمني: ولم تكن مجالس طلائع تنقطع إلا بالمذاكرة في أنواع من العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب، مع أمراء دولته.. وكان مرتاضاً، قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، ويكرم جليسه، ويبسط أنيسه، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل..

وقال عمارة أيضاً: وكانت تجري بحضرته مسائل ومذاكرات ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها، وأنا بمعزل عن ذلك، لا أنطق بحرف واحد حتى يجري من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدتُ عند ذكره وسماعه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠] ونهضت فخرجت فأدركني الغلمان، فقلت: حصاة يعتادني وجعها فتركوني وانقطعت في منزلي أياماً ثلاثة، ورسوله في كل يوم والطبيب معه، ثم ركبت بالنهار، فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء فاستوحش من غيبتي، وقال: خيراً، فقلت: إني لم يكن بي وجع، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت، وإلَّا فلا.

وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة، فعجب من هذا، وقال: سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه. ثم قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] فضحك، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.. وحاول طلائع أن يغري عمارة بالدخول في مذهب الشيعة، ولكن عمارة الشاعر أبى، وفي يوم من الأيام أرسل طلائع إلى عمارة رقعة فيها أبيات بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهب والأبيات هي:

قل للفقيه عمارة: يا خير من
أضحى يؤلف خطبة وخطابا

اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى
قل: حطة وادخل إلينا البابا

تلقى الأئمة شافعين ولا تجد
إلا لدينا سنة وكتابا

وعليّ أن يعلو محلك في الورى
وإذا شفعت إليّ كنت مجابا

فأجابه عمارة بهذه الأبيات:

حاشاك من هذا الخطاب خطابا
يا خير أملاك الزمان نصابا

أما إذا ما أفسدت علماؤكم
معمور معتقدي وصار خرابا

ودعوتم فكري إلى أقوالكم
من بعد ذاك أطاعكم وأجابا

فاشدد يديك على صفاء محبتي

وامنن عليّ وسد هذا البابا

وأغلق طلائع الباب وترك عمارة على ما يعتقد، ودام الود بينهما طول حياة طلائع، فلما مات طلائع رثاه عمارة بقصائد كثيرة.. فلعلي أجد مناسبة فأذكر شيئاً منها.

○ ○ ○ ○ ○

النجوم ليس لها بما في المغيبات علم

إن الدين الإسلامي ينكر النظر في النجوم، وإسناد الأمور إلى التنجيم الذي يعد شركاً، قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «كذب المنجمون ولو صدقوا» أو ما معناه، والشعراء الإسلاميون الذي صفت عقائدهم وأسندوا جميع أمورهم إلى الله، يحاربون بأشعارهم المنجمين، ويدحضون توهيماتهم، وتعليلاتهم التي يخدعون بها كثيراً من عامة الناس الذي يضعف إيمانهم أمام أولئك المنجمين فيميلون نحوهم ويصدقون أقوالهم تصديقاً يقيدون به تحركاتهم وتصرفاتهم في شئون حياتهم، فلا يفعلون شيئاً إلا بعد مراجعة المنجمين، فإن حذروهم من فعل شيء ما تركوه، وإن أوصوهم بفعله فعلوه ناسين أن التوكل على الله المصحوب بالعزيمة الصادقة على ممارسة ما هموا به من عمل دنيوي هو سبب النجاح ووسيلته.

يقول السلطان الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري من قصيدة له يحذر فيها من خداع المنجمين، ويصف أقوالهم بأنها شبيهة بأضغاث الأحلام التي لا أصل لها ويوصي بترك التفكير في عواقب كل ما يصوره المجمون من أمر:

ودع التفكر في العواقب إنه
ما جاء صاحبه برأي حازم

صَمّمْ على ما رمت لا ترقب به
وقتاً ولا تسمع ملامة لائم

ثم يقول بعد ذلك مصرحاً بأن النجوم لا تملك نفعاً ولا ضراً



وليس لها بما في المغيبات علم ولا لظواهرها دلائل على نصر أو هزيمة:

ودع النجوم وحكمهن بمعزل
مستجزياً عنها بحكم الصارم

لا يخدعنّك أهْلُهنّ بزخرف
من قولهم هو مثل حلم النائم

فالنفس من فوق النجوم وما أرى الـ
أدنى يكون على العليّ بحاكم

حكم النجوم يجوز فيما دونها
من عالمٍ في نصّ قول العالم

مثل الشخوص وما يناسبهنّ من
نبت يكون ومعدن وسوائم

ثم يعود بعد ذلك إلى التذكير بأن النفس تملك من الحواس العقلية والتفكيرية ما يجعلها في غنى عن النظر في النجوم واعتمادها على تفكيرها، ودراسة أبعاد ما يحيط بها من الأشياء دراسة عقلية، أجدر بها وأولى من أن تسند أمرها إلى ظواهر النجوم التي ليست من شكلها في التركيب والفعل والطبيعة.

والنفس أشرف أن يُدبّر أمرها
شكل وليس لشكلها بملائم

○ ○ ○ ○ ○

الملك الصغير

لقد عنون الشاعر محمد مصطفى البلخي إحدى قصائد ديوانه «قنديل السعادة» بـ«الملك الصغير»، واستهلها بقوله:

يا مليكاً أنت في نفسي ملكْ
يا صغيري جل من قد أبدعك

وفيها يصور الصغير الذي هو قرة العين وزينة الحياة الدنيا، ويشبهه بالتاج على رأس والده، بل إنه قد جعله تاجاً يباهي بجمال ترصيعه أغنى الملوك، يقول:

أي تاج من سرور وهنا
نرتديه عندما نحيا معكْ
ونباهي بك أغنى ملِكٍ
يا تويجي جل من قد رصّعكْ

ثم يظهر مدى تأثره بما يتأثر به ذلك الصغير الذي يشبه الزهرة الناظرة في عيني أبويه، فيقول مخاطباً ذلك الصغير: إن مسّك ألم أو جفا جنبك مضجعك فما ألمك هذا إلّا شوك في مضجعي يمنعني من الراحة والرقاد، يقول:

وأرى الأشواك تعلو مضجعي
إن جفا جنبك يوماً مضجعكْ

ثم يشير إلى أن كل ما يضجر الصغير ويؤلمه فهو أشد ألماً على نفس أبيه، حتى وإن كان ذلك في ظفره الذي لا يدخل ألمه في مسمى المرض، يقول:

وسـهـام الـحـزن تـفـري مـدمـعـي
إن أصـاب الـحـزن يـومـاً مـدمـعـكْ

إن يُـصـب ظـفـرك أدنـى وجـع
حـزّ قـلـبـي ألـمـاً مـا أوجـعـكْ

لـيـس لـي في عـيـشـتـي من مطمع
غـيـر تـحـقـيـقـي بشـوق مـطـمـعـكْ

ثم يظهر الشاعر محمد البلخي في نفس القصيدة عشقه ومدى إعجابه بسماع كلمة «بابا» التي هي من أوائل الكلمات التي يتلفظ بها لسان الصغير، وقد وصف نغمتها في لسان ذلك الصغير بالعزف الجميل الذي يأسر القلب.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن للصغير في القلب مكاناً لا يوصف، وأن نغمة كلمة «بابا» تُترع نفس وقلب الأب بالحنان والعطف والمحبة، يقول:

لـحـن «بـابـا» عـنـدمـا تـعـزفـه
تـأسـر الـقـلـب بـه كـي يـسـمـعـكْ

○ ○ ○ ○ ○

أوليّات لابن قميئة

وابن قميئة هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، أنهى الناسبون نسبه إلى أسد بن ربيعة بن نزار، ويكنى أبا زيد وقيل ـ أبا كعب ـ وقد قيل أنه تسمى بابن قميئة غير واحد ذكرهم الأستاذ خليل إبراهيم العطية محقق ديوان عمرو بن قميئة، وقال: إنهم لم ينالوا شهرة كشهرة عمرو.. وهم جميل بن عبد الله بن قميئة الشاعر العذري ـ وربيعة بن قميئة الصعبي ـ سماه ابن قتيبة ـ ابن قميئة الصغير ـ وعمرو بن قميئة الليثي.

أما عمرو بن قميئة بن ذريح فهو شاعر جاهلي، وهو أقدم من امرئ القيس وقيل: إنه عاصر المهلهل، أما أوليّات عمرو بن قميئة فإنه قد عدّ أول قائل للشعر من نزار.. كما عدوه أول من قال شعراً في الطيف.. وهناك زعم بأنه أول من بكى الشيب وذلك بقوله:

يا لهف نفسي على الشباب ولم
أفقد به إذ فقدته أمما

قد كنت في ميعة أسر بها
أمنع ضيمي وأهبط العُصُما

وأسحب الريط والبردَ إلى
أدنى تجاري وأنفض اللمما

لا تغبط المرء أن يقال له
أمسى فلان لعمره حكما

وفي موضع آخر نراه يذكر سنه ويشير إلى أنه تجاوز التسعين، وأنه قد هزل وضعفت قواه ضعفاً جعله يستعين عندما يريد النهوض براحتيه وبالعصا.. وهذا يستدل منه على أن عمرو بن قميئة قد عمر أكثر من تسعين سنة. وأن تراكم السنين التي عبر عنها ببنات الدهر قد رمته بغير نبل فأصابته. يقول:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها يوماً عذار لجامي

على الراحتين مرة وعلى العصا
أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى
فكيف بمن يُرْمى وليس برام

فلو أنها نبل إذاً لاتّقيتها
ولكنني أرْمَى بغير سهام

○○○○○

عندما يختلُّ مركز القوة الفكرية!!

حمد الحجي.. شاعر سعودي تألق نجمه في عالم الشعر فراح يصب من رحيق فكره ألواناً من الخواطر التي تصور حياته الخاصة التي يمازجها حيناً ندب بني قومه إلى سلوك مدارج الرقي... والأخذ بمبادئ الرفعة والمنعة حيناً آخر.. وقد أوشك أن يكون المتنبي الثاني في عصره من حيث الأسلوب الشعري المرتكز على اللهجة الصادقة في وصف حياته.. لكن يد البؤس كانت له بالمرصاد، فتخطفته وهو في ربيع العقد الثالث من عمره حيث تسللت إلى مراكز القوة الفكرية لديه فأخمدت جذوتها إخماد من كان موكلاً بالقضاء على كل صوت مغرّد.. في شجوهِ تطريب فاستسلم للقضاء فصار بعد أن كان متحكماً في بنات أفكاره التي جعلها قلائد على صدر دهره بحسن نظمها بهلولاً يهذي حيناً، ويصدق في رأيه حيناً آخر.. وتحوّل من على قمته الشماء إلى المصحات النفسية، وصافح بيد مسها الضعف أكف علماء النفس وأطبائها بعد أن كان يحاول مس النجم المتألق براحته.. وظل رهين المصحات النفسية إلى أن وافته المنية في أوائل عام ١٤٠٩ للهجرة فرثاه من الشعراء من يعرفه ومن لا يعرفه..

ولقد اخترت لتذييل هذا الموضوع الموجز جداً عن حالة الشاعر السعودي حمد سعد الحجي، أبياتاً هي أقرب ما تكون لوصف حالته.. وهذه الأبيات من قصيدة للشاعر السوري محمد محمود البزم. وعنوانها ـ دعوة ـ منها قوله:

وكان يجيد القول ما أمَّ مرَّةً
حمى الشعر إلاَّ حل منه نجاده





فجادل حتى لم يجد من مجادل
وجالد حتى قد تحاموا جلاده
فألقت له الأيام شِصَّ شباكها
فبات أسيراً لا تحل صفاده
وراح ومس الضر أيسر خطبه
وأصبح يرضى من خضمّ ثماده
غدا بيد الأسقام نهباً مقسّماً
فلا الإلف وافاه ولا الخل عاده
فأنكره من طول بُعد مهاده
وأنكر من طول التنائي وساده
وقد أعرضت ليلاه راح مداعباً
سعاد فصدَّته فأقصى سُعاده
فكان كمن أصغى إلى قول منشد
فغناه صوتاً محزناً فاستعاده

○○○○○

تندر.. وفكاهة

من الشعراء من لا يبحث بصفة مستمرة عن المصادر التي توحي له بالشعر وتخلق له جواً فيه ويطلق من لسانه.

ومنهم من يلقي نظرات التأمل الباحثة عما يحرك الشعور ويثير المشاعر، وهذا يجد بلا شك ما يشبع نهم شاعريته إذ أن الدنيا مليئة بما يستحق البحث والتدوين بأسلوب موضوعي.. وهي مليئة أيضاً بما يناسب التفكه ويُثْرِي خيال المتندرين، والمثل يقول كل مهيأ لما خلق له، فشعراء الحرب مثلاً يجدون من أخبار الحرب ما يشغل قرائحهم ويهيج مشاعرهم.. وشعراء الطبيعة يجدون ما يعجزون عن وصفه وتصويره، وشعراء الغزل يجدون منطلقات متعددة الاتجاه يحلقون منها إلى أبعادٍ متفاوتة في الغزل.. وشعراء النوادر والفكاهة يجدون ما يشغلهم ويشبع رغباتهم التي تلتذ بممارسة الفكاهة الكلامية.

قرأت في الجزء الرابع من كتاب «مجاني الأدب في حدائق العرب» تأليف لويس شيخو، أن ابن دانيال رأى أحْدَباً يسمى حساناً فقال فيه قصيدة منها قوله:

قسماً بحسن قوامك الفتان
يا أوحد الأمراء في الحدبان

يا مشية الغصن الرطيب إذا انثنى
من حدبة فيميس كالريان

يا مخجلاً شكل الزمان بقعده
حاشاك أن تُعْزى إلى نقصان





ما عاب قامتك الحسودُ جهالة
إلّا أجبت مقالة ببيان

ومنها قوله:

والعود أحدب وهو يلهى مطرباً
ولقد سمعت بنغمة العيدان
وانظر سفين البحر لولا حَدْبَةٌ
في ظهره لم يقو للطوفان

ومنها قوله:

وإذا اكتسى الإنسان قيل تمثلاً
بالمدح قامت حَدْبة الإنسان
يفديك في الحدبان كل مكربسٍ
يمشي الهوينا مشية الشرطان

○ ○ ○ ○ ○

الزمان.. مظلوم

يقول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

وهذا البيت قد استشهد به كثير من الذين يبادرون بالرد على الذين ينحون باللائمة على الزمان، ويسندون إليه كل فشل يصيبهم. وكأنما هو الذي بيده مقاليد أمرهم، وتدبير شئون حياتهم.. وهم لا يعلمون أن زمانهم هو نفسه زمان من سبقهم، وهو نفسه زمان من سيأتي من بعدهم.

والذي يستقرئ من الظواهر الطبيعية التي تصاحب الزمان وتتكرر سنة بعد أخرى بصفة مستمرة، وبمؤثراتها الطبيعية المعروفة، يدرك أن الزمان ليس له تصرف في شئون الحياة وأسبابها، بل إنه ليستيقن أن الزمان إنما هو وقت يطوي أعمار المخلوقات ويستنفدها وفقاً لتقدير العليم الحكيم، لكن الكتّاب والشعراء لا يقبلون بهذا الواقع في منطقهم التعبيري فقط، أقول في منطقهم التعبيري لأنه ثابت في قرارة نفوسهم بأنه ليس للزمان يد في تدبير شئون حياتهم، ولهذا جرأ بعضهم على معاتبة الزمان ونعته بالتقصير في حقهم لفظاً لا اعتقاداً.

ولا أذهب بعيداً في البحث عن شاهد من الشعر أثبت به معاتبة الشعراء للزمان في أشعارهم، سواء المتقدمين منهم أو المحدثين، فالكل منهم قد عتب على زمانه.. وأقرب شيء يقع تحت يدي وأنا أحرر هذا الموضوع هو ديوان الشاعرة الدكتورة إخلاص فخري عمارة «الطائرة

المهاجر» الذي اشتمل على قصيدة عنوانها «زمان وزمان» وقد عتبت فيها على الزمان الذي قالت عنه أنه تخلى عنها بعد أن كان إلى جانبها..
تقول عن الزمان وهي في حالة رضا عنه:

لقد كان الزمان لنا معيناً
يسير كما رغبنا حيث شينا

وكنا والزمان على وفاق
فيسخط ثم يرضى إن رضينا

ويعطينا فما يبقي عطاءً
ويمسك غيثه ما إن روينا

ثم تعتب عليه في نفس القصيدة فتقول في حالة عتبها:

مضى ذاك الزمان بغير عود
وأورث حسرة وأسى دفينا

فصرنا كلما نرنو لأمر
ترددنا.. سقطنا عاجزينا

غدونا نكتفي بالأمنيات
وما برح الزمان بها، ضنينا

ونُجبر في الحياة على أمور
فنحني الهام ـ ضعفاً ـ خاضعينا

ooooo

رثاء هر

رثا أبو بكر الحسن بن علي بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني هراً له لمّا بغى على أبراج الحمام التي لجيرانه وأكلها بتردداه إليها فقتلوه لأذيته.. تلك ظاهرة الرثاء وما تدل عليه الألفاظ التي اشتملت عليها القصيدة.. ولكن هناك من يقول إن ابن العلاف ما أنشد تلك القصيدة إلا رثاءً لعبد الله بن المعتز حينما قتله المقتدر فأولها على الهر خشية من أن تكون دليلاً على محبته لابن المعتز فينتقم منه المقتدر ويلحقه به.. كما أن هناك من يقول أن ابن العلاف قصد بها رثاء الحسن بن الفرات ولد الوزير أبي الحسن بن الفرات أيام محنته... وسواء كان قصد بها هذا أو ذاك، أو أنها حقيقة رثا بها هره، فإن في القصيدة مواقف ذات قيمة أدبية، وتجليات فكرية، تدل على توجيه سليم وتحذير من الوقوع في مآزق الحياة التي يكون سبب الوقوع فيها مطاوعة النفس الأمارة بالسوء، والتي تجر إلى الهلاك وسوء العاقبة... والقصيدة طويلة جداً، ووفقاً لشرطي في تأليف هذا الكتاب، أقتطف منها ثمانية أبيات هي:

يـا هـر فـارقـتـنـا ولـم تـعـد
وكـنـت عـنـدي بـمـنـزل الـولـد

حـتـى اعـتـقـدت الأذىٰ بـجـيـرتـنـا
ولـم تـكـن لـلأذىٰ بـمـعـتـقـد

تـدخـل بـرج الـحـمـام مـتـئـداً
وتـبـلـع الـفـرخ بـلـع مـزدرد



فما سمعنا بمثل موتك إذ
مت ولا مثل عيشك النكد
يا من لذيذ الفراخ أوقعه
ويحك هلّا قنعت بالغدد
كم دخلتْ لقمة حشا شرِه
فأخرجت روحه من الجسد
ما كان أغناك عن تسورك الـ
ـبرج ولو كان جنة الخلد
لا بارك اللّه في الطعام إذا
كان هلاك النفوس في المعد

○○○○○

الحبيب الأول.. والحبيب الآخر

لقد أثار الاختصاص بالحب لأي الحبيبين الأول أو الثاني جدلاً عميقاً لدى الشعراء، إذ كان هناك اختلاف في الرأي بينهم، فمنهم من يرى أن يكون الحب للحبيب الأول.. وهذا هو رأي أبي تمام. ولعله هو الذي أثار هذا الجدل وأوجد تلك القضية وذلك بقوله:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

وبهذا البيت صارت المشكلة قائمة بين بعض الشعراء حتى اليوم لأن فيهم من يرى أن المحب له مطاف ينتهي إليه ثم يبدأ رحلة جديدة في مسار آخر ومع حبيب آخر.. وهذا هو رأي ديك الجن الذي يناقض به رأي أبي تمام وذلك في قوله:

اعلق بآخر من كلفت بحبه

لا خير في حب الحبيب الأول

وتتوالى المحاولة في نقض بيت أبي تمام بإقامة الدليل على أن الحب ليس موقوفاً على الحبيب الأول، وإنما هو ينتقل بطبيعته إلى حبيب آخر.. ونلاحظ أن ابن شرف قد جاء بمعادلة فيها شبه توازن وتوفيق بين المحبوب الأول والآخر. وذلك بقوله:

الحب للمحبوب ساعة حبه

ما الحب فيه لآخر ولأول

وقد حاول ابن رشيق القيرواني، التوفيق بين تلك الآراء المختلفة

فأصاب ما يجمع بينها، وما يدعو إلى النزوع عن تلك الخلافات بهذه المعادلة التي قال فيها:

قلبي رهين بالهوى المقتبل
فالويل لي في الحب إن لم أعجل

أنا مبتلى ببليتين في الهوى
شوقي إلى الثاني وذكر الأول

فهما حياتي كالطعام المشتهى
لا بد منه أو كالشراب السلسل

قسم الفؤاد لحرمه وللذة
في الحب من ماضي ومن مستقبل

إني لأحفظ عهد أول منزل
أبداً وآلف طيب آخر منزل

فللّه درك يا ابن رشيق، لقد حسمت الموقف، وقلت فصل الخطاب في القضية.

○○○○○

نائلة بنت الفرافصة

تقسم ألَّا تتزوج بعد عثمان رضي الله عنه

لما قتل عثمان رضي الله عنه وقفت يوماً على قبره نائلة بنت الفرافصة الكلبي، فترحمت عليه ثم انصرفت إلى منزلها، ثم قالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي، فدعت بفهر فهتفت فاها وقالت والله لا يقعد رجل مني مقعد عثمان أبداً.. وخطبها معاوية بن أبي سفيان فبعثت إليه أسنانها، وقالت: أذات عروس ترى؟ وقد قالوا: إنه لم يكن في النساء أحسن منها مضحكاً.

وقد روي من صور الوفاء للأزواج أنه كان لأشجع بن عمرو السلمي جارية يقال لها ريم، وكان يجد بها وجداً شديداً وتجد به.. وكانت تحلف له أنها إن بقيت بعده لم يحكم عليها رجل أبداً فقال يخاطبها:

وليس لإخوان النساء تطاول
ولكن إخوان الرجال يطول

فلا تبخلي بالدمع عني فإن من
يضن بدمع عن هوى لبخيل

فما لي إلى رد الشبيبة حيلة
ولا لي إلى دفع المنون سبيل

وإن لداتي قد قضوا لسبيلهم
وإن بقائي بعدهم لقليل



فأجابته بأبيات منها قولها:

لي الويل إن عمرت بعدك ساعة
وإن كثير الويل لي لقليل

ومن ذا الذي أبكي له إن فقدته
سواك ومن دمعي عليه يسيل

فلا وقيت ريم إذاً ما تخافه
إذا ناب خطب للزمان جليل

ولا لقيت يوم القيامة ربها
وميزانها بالصالحات ثقيل

ولما مات أشجع آلت على نفسها أن لا تأكل طعاماً، ولا تذوق شراباً، فعاشت بعده أياماً، ثم توفيت فدفنت إلى جانبه.

○ ○ ○ ○ ○

من طرائف ما حدث لعمر بن أبي ربيعة

روى الأصفهاني في «الأغاني» أن عمر بن أبي ربيعة كان يطوف بالبيت فرأى امرأة من أصل العراق فأعجبه جمالها، فمشى معها حتى عرف موضعها ثم أتاها فحادثها وناشدها وأنشدته وخطبها. فقالت: إن هذا لا يصلح ههنا ولكن إن جئتني إلى بلدي وخطبتني إلى أهلي تزوجتك. فلما ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني سهم وقال له: إن لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها. فقال له: نعم، فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي، ثم أتى منزله فركب نجيباً وأركبه نجيباً وأخذ معه ما يصلحه وسارا، لا يشك السهمي في أنه يريد سفر يوم أو يومين، فما زال يحث حتى لحق بالرفقة، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق، فأقام أياماً ثم راسلها ينجزها وعدها فأعلمته أنها كانت متزوجة بابن عم لها، وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله إليها ما لم تتزوج، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم، واعتذرت فردها عليها ورحل إلى مكة.

وقال في ذلك قصيدته:

نـــام صـــحـــبـــي ولـــم أنـــم
مـــن خـــيـــال بـــنـــا ألـــم

طـــاف بـــالـــركـــب مَـــوْهـــنـــاً
بـــيـــن خـــاخ إلـــىٰ إضـــم

ثـــم نـــبـــهـــتُ صـــاحـــبـــاً
طـــيـــب الـــخـــيـــم والـــشـــيـــم

أرْتَجِيا مُساعداً
غير نِكْسٍ ولا بَرَم
قلتُ يا عمرو شفَّني
لاعج الحب والألم
إيتِ هنداً فقل لها:
ليلة الخيف بالسلم

ويكاد يقرب من مثل هذه الواقعة ابن الكيزاني في قوله:

ليس حظي من الحبائب إلا
لوعة أو تأسف أو غرام
حكموا البين والهوى فيّ لمَّا
علموا أنني بهم مستهام

○ ○ ○ ○ ○

عبد العزيز الثعالبي غير عبد الملك الثعالبي

وقارئ كتب الأدب والتراث لا يعرف ثعالبياً غير عبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية صاحب المصنفات التي من أكثرها ارتباطاً باسمه «يتيمة الدهر» و«خاص الخاص» و«التمثيل والمحاضرة» و«ثمار القلوب» و«الإعجاز والإيجاز» إلّا أن كتب التراجم وصحائف الأخبار تقرر أن هناك شخصية ثعالبية ليست عادية هي: عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي المولود في مدينة تونس في ١٤ شعبان ١٢٩٣ هجرية. وهذا يعني أن بين الثعالبيين ثمانية قرون ونصف.. قال أنور الجندي في كتابه «عبد العزيز الثعالبي.. رائد الحرية والنهضة الإسلامية» أن عبد العزيز نشأ وتعلم في كنف جده عبد الرحمن الثعالبي القاضي المجاهد الجزائري، الذي هاجر إلى تونس ترفعاً واعتزازاً عن أي عمل للفرنسيين، فورث عنه أخلاقه ومبادئه السامية، فحفظ القرآن ودرس النحو والعقائد والتحق بجامع الزيتونة وتخرج سنة ١٨٩٦م.

وقد تناولت الأقلام وصف الثعالبي كرجل سياسي ثائر مناهض للاستعمار الفرنسي، فمن تلك الأقلام قلم محمود أبو الفتح حيث كتب عنه في جريدة السياسة المصرية ١٩٢٦/٥/١٦م قائلاً: إن مكانة الثعالبي في تونس هي مكانة سعد زغلول في مصر، وإنني لا أنسى الثعالبي في باريس عام ١٩١٩م في عاصمة فرنسا يثير الأرض والسماء على فرنسا في تحرير تونس.. وقد أخرج كتاباً اسمه تونس الشهيدة، ضمنه فضائح الحكم الفرنسي في بلاده، وكان لهذا الكتاب ضجة كبرى.. جاء فيه قوله: إن على الشرق أن يتنبه لنفسه ويكافح لأجل أن يتخلص من نير

الاستعمار فتفهم أوروبا أن لنا إرادة.. وثقوا أن الأوروبيين لا يعارضون حركتنا هذه إلا إذا رأونا أذلة صاغرين نتزلف إليهم. أما إذا رأوا إرادة قوية وعزيمة وثّابة لا تضل، فثقوا أنهم يصغرون أمام إرادتنا، وعار أن تبقى أمة في العالم تستنصف القساة ولا تجد من ينصفها مع أنها قادرة على إنصاف نفسها بنفسها.. وما فتئت أقلام الكتاب تشيد بالثعالبي وبحركته الثورية التي لم تقتصر على بقائه في تونس ولا على ما لاقاه من سجن على أيد الفرنسيين بل إنه رحل إلى بلدان كثيرة يحرك فيها الوطنية ضد مستعمريها حتى يشغل المستعمرين من كل ناحية.

فكان لبغداد نصيب وافر من إقامته.. ومن الذين تناولوا حياته في بغداد الكاتب محمود العبطة الحسامي، حيث كتب تحت عنوان «الثعالبي التونسي في بغداد» وذكر أشياء كثيرة عنه، أطرفها أنه حدث أثناء إقامته ببغداد توتر بين الشاعرين الكبيرين: الرصافي والزهاوي. وحار القوم في طريقة يعود بعدها الصفاء بين الشاعرين، فرجعوا إلى الثعالبي فوجد طريقة طريفة هي دعوة الشاعرين إلى بيته، فلبيا الدعوة وتعانقا وأكلا أكلة تونسية، وعاد الصفاء إلى أحسن حال.. وفي حفلة تأهيل وترحيب بالثعالبي قال الرصافي:

أتونس.. إن في بغداد.. قوماً
ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم وإياك انتساب
إلى من خص منطقهم بضاد

ودين أوضحت للناس قبلاً
نواصع آيه سبل الرشاد

فنحن على الحقيقة أهل قربى
وإن قضت السياسة بالبعاد



ومـا ضَـرَّ الـبـعـاد إذ تـدانـت
أواصـر مـن لـسـان واعـتـقـاد

وإن الـمـسـلـمـين عـلـى الـتـآخـي
وإن أغـرى الأجـانـب بـالـتـعـادي

أتـونـس إن مـجـدك ذو انـتـمـاء
إلـى عـلـيـا - نـزار - أو - إيـاد -

لـنـا بـثـعـالـبـيّـك خـيـر مـلـقٍ
عـلـى أشـتـاتـنـا حـبـل اتـحـاد

○ ○ ○ ○ ○

الشاعر أبو هريرة

عندما تطرق أذن السامع هذه الكنية ـ أبو هريرة ـ فإنه سوف لا يتبادر إلى ذهنه اسم غير اسم الصحابي الجليل عبد الرحمن الدوسي الذي اختلف في اسمه، حيث قال بعض أهل النسب: اسمه عمير بن عامر. . أما ابن إسحاق فقال: قال لي بعض أصحابي عن أبي هريرة: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسماني رسول الله ﷺ: «عبد الرحمن». وكنيت أبا هريرة لأنني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي: ـ أبو هريرة ـ. وروى الترمذي عن رافع قال: قلت لأبي هريرة: لم كنيت بأبي هريرة؟ قال: كنت أرعى غنم أهلي وكانت لي هرة صغيرة فكنت أضعها بالليل في حجرة وإذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبت بها فكنوني: أبا هريرة

ولعل الاشتياق إلى هذه الكنية ـ أبو هريرة ـ التي عرف بها ذلك الصحابي الجليل رضي الله عنه، والتفاؤل بها في بلوغ العلم والمعرفة والسيرة الحسنة وقوة الإيمان وابتاع أثر صاحبها الأول والاقتداء بسيرته يكون هو الدافع الرئيسي وراء التكني بها.

والعرب بل المسلمون عامة يحرصون على إحياء أسماء وكنى أوائلهم، فهم يتسمون بأسمائهم ويتكنون بكناهم، وليس أدل على ذلك من أن الشاعر أحمد بن عبد الله بن أبي العصام ـ هكذا نسبه الثعالبي في كتابه الشهير «يتيمة الدهر» ـ قد تكنى أو كنيَ بأبي هريرة. . ولست هنا بالباحث عمن تكنوا بكنى الصحابة والتابعين لهم لأن هذا باب واسع.

ـ غير أنني آمل أن أعثر على ما يدعو إلى ذلك فأجعله سبباً للبحث في كنية أخرى.



ـ أما الشاعر أبو هريرة أحمد بن عبد الله ابن أبي العصام فلم يعلق الثعالبي على شعره ولا أي ترجمة له سوى ذكر اسمه وشواهد من شعره الذي منه قوله:

قد أفسد الموت على صالح
كل الذي أصلحه صالح

وانصرف البوّاب عن بابه
وصاح في مجلسه الصائح

خَلّوه في دار البلى مفرداً
وناح في أوطانه النائح

يا ليت شعري ما الذي قاله
إذْ راح في حفرته الرائح

يا أيها الناس ألا فاسمعوا
قولي. فإني مشفق ناصح

لا تؤثروا الدنيا على غيرها
ففرق ما بينهما واضح

وقوله من قصيدة أخرى:

أما ترى الغيب كالباكي بأربعة
والأرض تضحك كالجذلان من فرح

فقم فديتك نشكو ما نكايده
من الزمان وما نلقي إلى القدح

○○○○○

الفرزدق يشهد لعمر بن أبي ربيعة أنه أغزل الناس

روى الأصفهاني في الأغاني أن الفرزدق قدم المدينة وبها رجلان يقال لأحدهما صويم والآخر ابن أسماء وصفا له فقصدهما، وكان عندهما قيان فسلم عليهما وقال لهما: من أنتما؟ فقال أحدهما: أنا فرعون. وقال الآخر: أنا هامان، فقال لهما الفرزدق: فأين منزلكما في الناس حتى أقصدكما؟ فقالا: نحن جيران الفرزدق الشاعر، فضحك ونزل فسلم عليهما وسلما عليه. وتعاشروا مدة ثم سألهما أن يجمعا بينه وبين عمر بن أبي ربيعة، ففعلا واجتمعا وتحادثا، وتناشدا إلى أن أنشد عمر قصيدته التي يقول فيها:

فلما التقينا واطمأنت بنا النوى
وغيب عنا من نخاف ونُشْفِق

أخذتُ بكفي كفها فوضعتها
على كبد من خشية البين تخفق

فقالت لأترابٍ لها حين أيقنت
بما قد ألاقي: إن ذا ليس يصدق

فقلن: أتبكي عينُ من ليس مُوجَعاً
كئيباً ومن هو ساهر الليل يأرق

فقالت: أرى هذا اشتياقاً وإنما
دعا دمع ذي القلب الخليِّ التشوق

فقمن لكي يخلينا فترقرقت
مدامع عينيها فظلت تدفق
وقالت: أما ترحمْنَني أن تَدعْنَني
لديه وهُو فيما علمتن أخرق

ولم يورد أبو الفرج الأصفهاني غير أربعة أبيات من هذه القصيدة التي تبلغ عشرة أبيات.. إلا أنه استطرد في الحكاية، فقال: ولما انتهى عمر بن أبي ربيعة إلى قوله:

فقلن: اسكتي عنا فغير مُطاعة
لَهوبُكِ منا فاعلمي ذاك أرفق

فصاح الفرزدق: أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس. لا تحسن والله الشعراء أن تقول مثل هذا النسب، وإن ترقى مثل هذه الرقية. وودعه وانصرف.

○○○○○

عمر بن أبي ربيعة وصحبه يصفون البرق

روى الأصفهاني في الأغاني أن عمر بن أبي ربيعة، والحرث بن خالد وأبا ربيعة المصطلقي، ورجلاً من بني مخزوم خرجوا ذات يوم يشيعون بعض خلفاء بني أمية، إذا هم بهند وأسماء اللتين كان يشبب بهما عمر بن أبي ربيعة يتماشيان فقصدوهما وجلسوا معهما ملياً، فلاح لهم برق، فقال الحرث: كلنا شاعر فهلموا نصف البرق، فقال أبو ربيعة:

أرقت لبرق آخر الليل لامع
جرى من سناه ذو الربى فيتابع

فقال الحرث:

أرقت له ليل التمام ودونه
مهامه موماة وأرض بلاقع

فقال المخزومي:

يضيء عضاه الشوك حتى كأنه
مصابيح أو فجر من الصبح ساطع

فقال عمر بن أبي ربيعة:

أيا رب لا آلو المودة جاهداً
لأسماء فاصنع بي الذي أنت صانع

وهذا التناوح يذكرني بمطالع قصائد كثيرة استهلها أصحابها بذكر البرق، ووفقاً لما شرطت لهذا الكتاب، أذكر قصيدة لابن ميَّادة واسمه الرماح بن أبرد المري قال في مطلعها:



أرقـت لـبـرق لا يـفـتِّـر لامِـعُـهْ
بشهب الرب والليل قد نام هاجعه

أرقت له من بعد ما نام صحبتي
وأعـجـبـنـي إيـمـاضـه وتـتـابُـعـه

وقصيدة لابن الفارض واسمه عمر بن أبي الحسن بن المرشد بن علي:

أبـرق بـدا مـن جـانـب الـغـور لامـع
أم ارتـفـعـت عـن وجـه لـيـلـى الـبـراقـع

وقصيدة ابن هاني الأندلسي واسمه محمد بن هاني الأزدي الأندلسي:

أرقـت لـبـرق يـسـتـطـيـر لـه لَـمْـع
فـعـصـفـر دمـعـي جـائـل مـن دمـي ردعُ

وردع: فاعل عصفر وهو نوع من الزعفران. يقول شارح ديوان ابن هاني فكأنه قال: عصفر دمعي ردع جائل من دمي.

○ ○ ○ ○ ○

الخاطبي يهيج عمر بن أبي ربيعة على ذكر الغزل

روى الأصفهاني في الأغاني أن عثمان بن إبراهيم الخطابي قال: أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بني مخزوم، فانتظرت حتى تفرّق القوم ثم دنوت منه ومعي صاحب لي ظريف وقد كان قال لي: تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل، فننظر هل بقي في نفسه منه شيء، فقال له صاحبي: يا أبا الخطاب أكرمك الله لقد أحسن جنادة العذري وأجاد فيما قال. فنظر عمر إليه ثم قال له: وماذا قال؟ قال: يقول:

سرت لعينك سلمى بعد مغفاها
فبت مستنبهاً من بعد مسراها

وقلت أهلاً وسهلاً من هداك لنا
إن كنتَ تماثلها أو كنتَ إياها

من حبها أتمنى أن يلاقيني
من نحو بلدتها ناع فينعاها

كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها

ولو تموت لراعتني وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

فضحك عمر ثم قال: وأبيك لقد أجاد وأحسن.



أما الحسن بن هانئ (أبو نواس) فقد كان في حبه على خلاف ما صرح به جنادة العذري، أسمعه وهو يقول:

يا ليت حمَّاه كانت لي مضاعفة
يوماً بشهر وأن اللّه عافاه

فيصبح السقم منقولاً إلى جسدي
ويجعل اللّه منه البرء عقباه

أقول للسقم: كم ذا قد لهجت به
فقال لي: مثلما تهواه أهواه

○○○○○

أبو الأسود الدؤلي.. وعمر بن أبي ربيعة

روى الأصفهاني في الأغاني أن أبا الأسود الدؤلي حج ومعه امرأته وكانت جميلة، فبينما هي تطوف بالبيت إذ عرض لها عمر بن أبي ربيعة، فأتت أبا الأسود الدؤلي فأخبرته، فأتاه أبو الأسود فعاتبه، فقال له عمر: ما فعلت شيئاً، فلما عادت إلى المسجد عاد عمر فكلمها فأخبرت أبا الأسود، فأتاه في المسجد وهو مع قوم جالس فقال له:

وإني ليثنيني عن الجهل والخنا
وعن شتم أقوام خلائق أربع

حياء وإسلام وبقايا وإنني
كريم ومثلي قد يضر وينفع

فإن أعف يوماً عن ذنوب فتعتدي
فإن العصا كانت لغيرك تقرع

فشتان ما بيني وبينك إنني
على كل حال أستقيم وتظلع

فقال له عمر: لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم، ثم عاود فكلمها فأتت أبا الأسود، فأخبرته، فجاء فقال له:

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى
وسيدنا لولا خلائق أربع

نكول من الجلى وقرب من الخنا
وبخل عن الجدوى وإنك تبع



ثم خرجت وخرج معها أبو الأسود مشتملاً على سيف، فلما رآهما عمر أعرض عنها، والبيتان المتقدمان الذان أوردهما أبو الفرج الأصفهاني في رواية تلك الحكاية لم أجدهما في ديوان أبي الأسود «صنعة أبي الحسن السكري» ولا في مستدركه. تحقيق محمد آل ياسين.

وفي معنى ما تقدم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من البلاء، وللبلاء علامة
أن لا يُرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها
والحر يشبع تارة ويجوع

○○○○○

هذلول يطحن البر لضيفه!

العربي يوجب على نفسه لضيفه واجبات لا يتخلى عنها مهما قست عليه الظروف.. وهذا طبع متأصل فيه وليس تطبعاً، وذلك بدليل أنه إذاما حلّ ضيف بداره، ولم تكن امرأته حاضرة، عندئذ يقوم هو بإصلاح طعام ضيفه وشرابه بنفس كلها رضى ووجه كله بشر، ولهذلول بن كعب العنبري من بني سعد بن زيد مناة بن تميم حكاية مع ضيفه وزوجته التي عقد عقدة نكاحها ولم يدخل بها بعد، وملخصها أنه نزل به أضياف فقام إلى الرحى فطحن، فمرت به زوجته في نسوة، فقالت لهن: أهذا بعلي؟ فأعلم بذلك فقال:

تقول وصكت صدرها بيمينها
أبعلي هذا بالرحى المتقاعس

فقلت لها: لا تعجبي وتبيني
بلائي إذا التفت عليّ الفوارس

ألست أرد القرن يركب درعه
وفيه سنان ذو غرارين يائس

إذا هاب أقوام تجشمت هول ما
يهاب حميّاه الألدّ المداعس

لعمر أبيك الخير إني لخادم
لضيفي وإني إن ركبت لفارس

إنه تعبير فيه لوم على ازدراء زوجته له حينما رأته بجانب الرحى



يطحن البرّ ليصنع منه أكلاً لضيفه.. وفيه افتخار بالفعل الشجاعي الذي لا يبرز إلا في المواقف التي تتطلب بروزه.

أما عن كرم الضيافة بوجه عام وإنه سجية العربي فإن منه ما يمتد ليشمل الحيوان وإكرامه، فهذا الفرزدق الشاعر التميمي المشهور يمتد كرم الضيافة عنده إلى إطعام الذئب وإعطائه نصف زاده تكرماً.. وفي ذلك يقول الفرزدق:

وليلة بتنا بالغريّين ضافنا
على الزاد ممشوق الذراعين أطلس

فقاسمته نصفين بيني وبينه
بقيّة زاد والركائب نُعَّس

وكان ابن ليلى إذ قرىٰ الذئب زاده
على طارق الظلماء لا يتعبس

قال أبو العباس المبرد: الغريّين هاهنا: الحد.

○○○○○

الإبــــاء

وقيام الحياة على مبدأ الإباء وعزة النفس أمر ينتهجه ذوو النفوس العزيزة الذين يخشون أن يكون للئام عندهم أيدي فضل ومنة فتظل رقابهم لها خاضعة ونفوسهم بها منكسرة، ونظراتهم بسببها ذليلة.. والافتخار بالاستغناء عما في أيدي اللئام يعد من أساسيات الإباء وعزة النفس، ولهذا فإن أباة النفوس يفضلون العوز على الاحتياج إلى اللئام، ويجدون في الاستغناء عنهم لذة وراحة نفسية يشتمُّون منها الحرية، ويتخلصون بها من غل الاستعباد الذي ربما تفتله أيدي اللئام، وتطوق به أعناق الأباة بعطاء يتبعونه مناً وأذى.

وأصحاب الرأي وقفوا أمام النفس التي تأبى أن تذلها منة لئيم فمدوناً بما فيه الكفاية من التحريض على أخذ الحيطة من الخنوع لأيدي اللئام.. وهذا الشاعر صرّدرّ واسمه أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل المتوفى سنة ٤٦٥هـ يتطرق في إحدى قصائده إلى هذا الموضوع، فيقول فيها:

سيحرسني التجمل من أناس
هم عني بداء البخل صُمُّ

ويظهر أن صردر التزم اليأس حيث رأى أنه ألذ على النفس والقلب من ترجي اللئام والنظر إلىٰ معروفهم:

حماني زادهم بطنٌ خميص
على الجلّى وعرنين أشمُّ

فقد سقّيتُ بَرْدَ اليأس منهم
فؤاداً من رجائهم يُحمُّ

ثم يعود إلى نفسه قائلاً لها: إن من غير المعقول أن أكلف المعروف قوماً تهان بهم المكرمات كما يهان الكبش الأجم أمام الأقرن، ولهذا فهو سواء عندهم مدحوا أم ذموا.

وكيف أكلّف المعروف قوماً
سواء عندهم مدحٌ وذمُّ
تلاقي المكرماتُ بهم هواناً
كما يلقى بذي الروق الأجم

ومن شدة لؤم اللئام أنهم حتى إذا ضحكوا في وجه أحدهم عدوه برّاً منهم:

إذا ضحكوا إليَّ رأوه براً
أكل البر تقبيلٌ وضم
يرون عقوق ما كنزوا حراماً
هل العرض المسومُ أبٌ وأمٌّ

ويذهب في ذم اللئام إلى أبعد من ذلك فيقول: لو أن الشيم والأخلاق تشم لفاحت من أخلاقهم أنتن رائحة:

وكم من شيمةٍ دفراء فيهم
تفوح لو أن أخلاقاً تُشمُّ

○○○○○

الانجراف خلف المظاهر المنافية للعقيدة!!

عندما يجرف الرجل بَريقُ ما يسميه الجهلة والذين تستهويهم المظاهر.. ولا تستطيع عيونهم اختراق القشور التي تخفي خلفها ما تعفّن ونتن، وعاث فيه الفساد.. ـ بالحضارة ـ أقول عندما يجرف الرجل ذلك المظهر الذي باطنه فيه السوء والمكر ومحاربة الله بمحاولة إفساد العقائد الإسلامية التي تمد المسلم بالقوة والهيبة والوقار.. وتجعله مقيماً على ما يرضي الله من تعَبُّدٍ، ومأكل ومشرب وملبس.. أقول عندما تجرف الرجل حالة الكفرة في الغرب والشرق المتمثلة في التحلل الخلقي وانسلاخ نسائهم من الأدب والأخلاق والتقاليد، وعدم المبالاة بالاختلاط بالرجال واستوائهم بالتكسر والتعري، يطلق لنفسه عنانها، ويميل بجهله إلى تأييد هذه الظاهرة التي قصد بها جَرّه إلى قتل العفّة في المرأة المسلمة ونزع برقع الحياء منها، وهتك أستار الحشمة المتحشمة بها.. وتمزيق رداء الإسلام الذي ميزها عما سواها بما يضفيه عليها من جمال ديني ووقار أدبي.. بل ينساق إلى تلك المظاهر الفسوقية، فيطلب بكل وقاحة من زوجته أن يراها في زي أولئك المتحللات من مبادئ الأخلاق، الضاربات بالحياء والعفة عرض الحائط.. ولو أردنا تقييم هذا الرجل لوجدناه أشبه ما يكون باللبنة المائعة في جدار الحصن الإسلامي، التي يجب اقتلاعها حتى لا تتسبب في كسر ما حولها من لبنات وليبقى جدار الحصن الإسلامي نظيفاً قوياً منيعاً تقصر النظرات المعادية له عن اللحاق بشموخ شرفاته وذرى قلاعه.

ولقد أعجبتني قصيدة لميسون سليمان، نشرتها المجلة العربية في عددها ١٤٨ جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ حيث تصوّر القصيدة حالة رجل

غني تستهويه المظاهر فيتبعها، ولو كان فيها ما يخل بدينه وشرفه وعقيدته، خطب فتاة فقيرة مؤمنة متحجبة، وأحبها وأحبته وفجأة طلب منها خلع الحجاب وترك الصلاة، لكنها بقوة إيمانها، وسلامة عقيدتها رفضت ذلك الطلب وتركته بنفس عزيزة يغمرها نور الإيمان، وجلال الأدب.

تقول ميسون من تلك القصيدة التي بلغت تسعة عشر بيتاً على لسان تلك الفتاة:

لـكَ قـلـبـي ولـلإلـه كـيـانـي
وابـتـهـالـي فـي الـسـرّ والإعـلان

كـان حـبّـي الـرحـمـن أول حـبّ
أبـديّ، وكـنـتَ حـبّـي الـثـانـي

هـاكَ مـا ابـتـعـتَ مـن أساور مـاس
ونـضـار مـن عـقـود جـمـان

فـكـنـوز الـدنـيـا بـكـل حُـلاهـا
كـبـقـايـا الـتـراب فـي الـمـيـزان

لـستُ من تـأسر الـحـلـي صـبـاهـا
فـكـنـوزي قـلائـد الـقـرآن

وحـجـاب الإسـلام فـوق جـبـيـنـي
هـو عـنـدي أبـهـى مـن الـتـيـجـان

ومنها:

لا تـدغـدغ سـمـعـي بـشـعـر الـعـذارى
تـتـقـوّى بـسـطـوة الأوزان

لا تـراهـن مـسـامـعـي لـيـس تـصـحـو
فـهـي تـغـفـو مـسـحـورة بـالأذان

الشعارات والهتافات، وراء الإغراء والإغواء

هناك شعارات ترفع في كثير من المجتمعات، والغريب في الأمر أن الذين يرفعونها لا يعرفون لماذا رفعوها.

وهناك هتافات تقذفها الحناجر بكل تحمس إمّعي، وهناك أصوات تتصارع وتتضاد حول شخصيات تبحث عن مكان لها فوق أكتاف أصحاب تلك الأصوات.

أما الغلبة فهي لأولئك الذين ينظمون فوضوية الذين يرفعون الشعارات ويطلقون الهتافات، ويدعمونهم بالمادة حيناً وبالوعود الكاذبة حيناً آخر، فتسير المسيرات بدافع الإغراء إلى أن تقع في هاوية الإغواء.

ولو قدر أحد منا أن يسأل واحداً من أصحاب الأصوات التي تشق عنان السماء، أو واحداً من أصحاب الشعارات المؤيدة أو المناهضة.. ما هو السبب الذي دفعك إلى هذا لما أجاب، ولو طلبنا إليه إعطاءنا نبذة حقيقية عن حياة ذلك الذي طبّل له وزمّر، لما أفاد بشيء عنه. وهذه هي الإمعية الحقة التي يميل صاحبها أنّى مالت الريح.

ولعله من الجائز أن نشبه ذلك الإمعي بأصم الكلاب الذي إذا رأى الكلاب تتثاءب راح ينبح.

والحقيقة أن كل زعامة لا تؤيد شرع الله، ولا تنفذ أحكام الله، ولا تسير في رعيتها بسنّة النبي محمد بن عبد الله ﷺ فإنما هي زعامة ترقىٰ منصة الزعامة بواسطة الأصوات الإمعية، فإذا ما استقرت على

كرسيه أعملت يد البطش وأسقطت القناع الذي استعارته لتضليل المصوتين لها، وجعلت الدكتاتورية شرعها ونظام سلطتها..

يقول نجيب الكيلاني في قصيدة له عنوانها «الدكتاتورية»:

لا تـشـك يـا مـقـهـور أو تـتـمـردِ
واخفض جناحك للزعيم الأوحدِ

واحـفـظ شـعـارات الـولاء جـمـيـعـهـا
واهتف له من كل قلبك واسجد

وحـذار أن تـرضـى بـأي شـريـعـة
إلا شـريـعـتـه الـوضـيـعـة واحـمـدِ

الـسـيـف والـجـلاد رهـن إشـارة
مـنـه وحـكـم الـمـوت لـلـمـتـردد

الـرأي فـي طـول الـبـلاد وعـرضـهـا
رأي الزعيم وأنت.. أنت المفتدي

شـر الـخـيـانـة أن تـعـارض فـكـره
وكذا تُصنّف في الفريق المعتدي

صـفـق لـه إن لاح فـي عـلـيـائـه
وارفـع يـديـك إلـى الـسـمـاء ومَجّـدِ

كـن عـاقـلاً وارقـص عـلـى أعـتـابـه
واملأ عيونك من عظيم المشهد

والقصيدة أطول من ذلك بل هي طويلة، وهي موجودة في ديوان الكيلاني «مدينة الكبائر».

○○○○○

الشيخ الضال

الشيخ الضال، هو عنوان لقصيدة ضمها ديوان «الرحيق» للشاعر عبد الفتاح عمرو.. ولقد وقفت على تلك القصيدة وقوف من يتأمل جنوح الشيخ أو استمرار الرجل في ضلاله وتعشقه لارتكاب المعاصي.. ومخالفة الآداب الاجتماعية.. فوجدت أن الشاعر قد أطلق صوت الناهي وأشار إشارة الحانق على قيام الشيخ بما يجرّه إلى الضلال..

ومن سياق القصيدة يظهر أن الشاعر كان يعني بالشيخ الذي بلغ مبلغاً من العلم والتحصيل العلمي الذي نال به ذلك اللقب مرة ويعني بالشيخ مرة أخرى الشيخ المسن. وكأنما هو يقول للاثنين: الشيخ المسن، والشيخ العالم: لا يحسن بكما البقاء على ما نهى عنه الإسلام وحذر منه.

وإذا نظرنا إلى تلك القصيدة المعنونة بالشيخ الضال، فإنها تعد من القصائد التي تعالج مشكلة اجتماعية توشك أن تنتشر وتغطي مساحة من رقعة المجتمع الذي نعيش في وسطه.. بل إن القصيدة في مضمونها تمثل إصبعاً تضع أمام كل شيخ علامة استفهام تفرض عليه بصيغتها الإجابة على ما تعنيه. ولكن بعد أن يرجع إلى تفقد حاله وخط سيره فإن كان معوجاً أوجب على نفسه التحول إلى خط مستقيم، وإن كان مستقيماً ترك تلك القصيدة باستفهاماتها على قارعة الطريق لغيره ومضى في سبيله.. والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ستين بيتاً منها قوله:

والشيخ عيبٌ أنْ يُسَفِّه عقله

فيصوغ مدحاً أو يقول هجاءً

لا الشيب يردعه ولا العلم الذي
يحيي النفوس نزهة ووفاء

ومنها قوله:

أومن ثياب العلم تصنعُ مركباً
تجري به ريح الضلالِ رُخاء؟

فخسرتَ كل فضيلة بذّلتها
والعلم أعظم ما خَسرتَ رداء

الناس تنظر للشيوخ بأنهم
خير الأنام مكانة وإباء

رفعوا لواء الحق فوق دمائهم
وأراك ترفع للنفاق لواء

ومنها قوله:

الشيخ إن جعل التدين سلعة
تنحطّ رُخصاً أو تزيد غلاء

فلسوف يشقى بالخسارة مثلما
أشقى الشّعوبَ ضلالةً وعماء

○ ○ ○ ○ ○

لطيفة ورباب ترثيان زوجيهما

ذكر الأستاذ جدوع غريّب في كتيب له عنوانه «شاعرات العرب في الإسلام» عدداً من أسماء الشاعرات، وأورد نبذاً قصيرة جداً عنهن.. ولعل ذلك يكون شحّاً من المصدر الذي استقى منه لا تقصيراً أو اختصاراً في الترجمة لهنّ.

ومن بين الشاعرات اللاتي ضمهنَّ ذلك الكتيب الشاعرة لطيفة الحدّانيّة «هكذا قال عند ذكر هذه الشاعرة ولم يزد على هذا النسب» وقد بحثت في كتاب «أعلام النساء» لعمر كحالة رغبة مني في إضافة شيء جديد إلى ترجمتها فما وجدت لها اسماً، بل لم أجد بهذا الاسم ـ لطيفة ـ إلّا اسماً واحداً هو لطيفة بنت محمد بن محمد بن محمد الأماسي، قال عنها عمر كحالة، إنها محدّثة ولدت عام ٧٤٤هـ وتوفيت عام ٨٣٠هـ، أما جدوع غريّب فقد قال عن لطيفة الحدّانيّة: بعد أن تزوجت لطيفة الحدّانيّة ابن عم لها ولعت به ولعاً شديداً، لكنه ما لبث أن مرض مرضاً عضالاً أودى بحياته، فعمرها حزن دائم وشوهدت على قبره في حالة ذهول، وكأنها تمثال لا يتحرك. لكن القوم استغربوا رؤيتها وعليها من الحلي والحلل الشيء الكثير، وهي دائمة البكاء، فقالوا: يا هذه نراك حزينة وما عليك زي الحزن؟ فأنشدتهم قصيدة منها قولها:

فإن تسألاني فيم حزني فإنني
رهينة هذا القبر يا فتيان

وإن تسألاني عن هواي فإنه
مقيم بحوضي أيها الرجلان

وإني لأستحييه والترب بيننا
كما كنت أستحييه حين يراني

أهابك إجلالاً وإن كنت في الثرى
وأكره حقاً أن يسؤك مكاني

وكثيرات هن اللاتي يرثين أزواجهن رثاءً يحسن بهنَّ وبأزواجهنَّ، وهذه الرباب بنت امرئ القيس بن عدي قد رثت زوجها الحسين بن علي بن أبي طالب حين قتل بقصيدة منها قولها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به
بكربلاء قتيل غير مدفون

ومنها قولها:

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين

من لليتامى ومن للسائلين ومن
يغني ويأوي إليه كل مسكين

واللّه لا أبتغي صهراً بصهرك
حتى أغيب بين الرمل والطين

○○○○○

وصف شمعة

من الشعراء من تنداح رؤيته وتتسع حتى تشمل كل ما حوله، ومنهم من يغوص بشاعريته في أعماق الطبيعة حيناً.. وحيناً يجنح به خياله فيطوف حول كل ما تراه عينه، ويرصد حركة الأشياء من حوله فيخبر خبرها ويصف طبعها في أشعار تظل خالدة بعده.

والشاعر بطبيعته وبما وهب من مقدرة شعرية نراه يجسِّد كل ما يتصوره خياله وكل ما يلفت نظره من أشياء سواء كانت من مستلزمات عصره وضروريات حياته أو ما هو على هامش حياته من الأشياء الكمالية، المهم عنده أن يكسر الصمت ويقول شيئاً يعجب الناس ويطربوا له.. ويبقى في ذاكرة الزمن، منسوباً إليه ومتخذاً منه ما يقوِّم به حياته خاصة مما تتضمنه من أفكار وآراء.

ولا أريد هنا أن أبحث في ضروب الشعر ومشارب أصحابه، واختلاف طبقاتهم وما تضمنته أشعارهم من أشياء تاريخية أو أوصاف طبيعية، كوصف القلم والدواة والساعة والسيف والكتاب وغير ذلك مما لا تتناوله اليد، لأن هذا باب واسع لا يمكن احتواء ما فيه في مثل هذا الموضوع الذي أثاره شعر الشاعر سليمان بن حسان النصيبي في وصف الشمعة وتشبيهها بالمقلة المبصرة، وتمثيل لسان لهبها بالذهب، وشكلها العام بالجديلة في أبيات جميلة منها قوله:

ومـجـدولـة مـثـل صـدر الـفـتـاة

تـعـرّت وبـاطـنـهـا مـكـتـسِـي



لـهـا مـقـلـة هـي روح لـهـا
وتـاج عـلـى الـرأس كـالـبـرنـس

إذا رنّـقـت لـنـعـاس عـرا
وقُـطّـتْ مـن الـرأس لـم تـنـعـس

وإن غـازلـتـهـا الـصـبـا حـركـت
لـسـانـاً مـن الـذهـب الأمـلـس

وتـنـتـج فـي وقـت تـلـقـيـحـهـا
ضـيـاء يـجـلّـي دُجـا الـحـنـدس

فـنـحـن مـن الـنـور فـي أسْـعُـدٍ
وتـلـك مـن الـنـار فـي أنـحـس

وقـد نـاب وجْـهُـك عـن ضـوئـهـا
وعـن ذا الـبـنـفـسـج والـنـرجـس

ولـكـنـهـا آلـة لـلـنّـدام
ونـجـم تـألـق فـي الـمـجـلـس

○ ○ ○ ○ ○

دلالات أيام الأسبوع

اهتم العرب بالبحث في الظواهر والمصادفات التي تحصل في بعض الأحيان مع مطالع البروج والشهور والأنواء، وأخذوا من المصادفات التي رصدوها خلال أيام الأسبوع شبه قاعدة وهمية حيث نسبوا بعض الظواهر إلى مواقع الأيام وأسمائها.. وهي نسبة لا صحة لها حيث لم يثبت علمياً ارتباط الظواهر بأيام معينة من أيام الأسبوع..

ثم انتهوا بعد نسبة الظواهر المرئية إلى الأيام فأخذوا يفسرون الأحلام وفقاً للأيام، فسطروا في ذلك أساطير كثيرة كلها توهمات وتخمينات تنافي الإيمان القوي الذي ينكر إسناد أي شيء فيه نفع أو ضرر إلى غير الله.

ولقد اهتم بعض المؤلفين بجمع مثل تلك الآراء الوهمية فرصدوها كفرع من فروع الثقافة فورثناها تراثاً أدبياً تنقصه الحقائق العلمية كما أسلفت.

ومن الدلالات التي خصوا بها أيام الأسبوع ما أورده الشريف عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري في كتابه «عيون المسائل في أعيان الرسائل» عن تفسير الرؤيا باعتبار الأيام الأسبوعية فقد جاء القول في ذلك بأن رؤيا يوم الجمعة دليل على جمع الشمل والأشياء المتفرقة.. ويوم السبت إن عبرت بخير وقعت.. ويوم الأحد يدل على ذهاب الهم وعلى العمل والعمارة.. ويوم الاثنين يدل على الخير لمريد السفر والرواح.. ويوم الثلاثاء للدم والحجامة، ويوم الأربعاء يوم نحس.. ويوم الخميس لقضاء الحوائج..



وقد نظم بعضهم ذكر أيام الأسبوع وما يختار فيها فقال:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً
لصيدٍ إن أردت بلا امتراء

وفي الأحد البناء لأن فيه
بدا الرحمن في خلق السماء

وفي الاثنين إن سافرت فيه
سترجع بالنجاح وبالنجاء

وإن ترد الحجامة فالثلاثا
ء ففي ساعاته هرق الدماء

وإن شرب امرؤ يوماً دواء
فأولاه بيوم الأربعاء

وفي يوم الخميس قضاء حاج
فإن اللّه يأذن بالقضاء

وفي الجمعات تزويج وعرس
ولذات الرجال مع النساء

فهذا العلم لا يحويه إلا
نبي أو وصيّ الأنبياء

○ ○ ○ ○ ○

رأي النجفي في الوحدة!!

وهناك حكمة تقول: «الوحدة خير من جليس السوء» وهذه الحكمة تحتمل التّشريح والتحليل.. والذهاب بها إلى كل مذهب بدءاً من فائدة صون اللسان، وانتهاء بتسريح الخيال واستقبال الخواطر في الخلوة والانفراد.

ولقد ألقى الشاعر أحمد الصافي النجفي نظرة على فائدة الوحدة من زاوية أخرى.. وهي أن المتوحد كثيراً ما يستلهم من وحدته وانفراده أشياء يحول دون وصولها إليه اختلاطه بالناس مما يسبب عدم تفرغه لاستقبالها.. ويرى أن الإبداع فيما يرد إلى النفس من خواطر وأفكار لا يتحقق بمعناه الصحيح الواسع إلا للمتوحد:

ومن ينفرد يبدع بما يُظهر الحجى

وما الفذ في الدنيا سوى الرجل الفرد

كما يرى أن التجليات الفكرية لا تألف الذي يقضي أوقاته بين الناس بصفة مستمرة.. وإن طرقت مخيلته يوماً من الأيام فإنه لا يأتي بأشياء متميّزة عما هو معروف ومألوف لدى الناس.. وإذا ما أتى من يعايش الناس ويمضي وقته مخالطاً لهم ببديع فإنه في نظر النجفي شاذ:

ومن عاش بين الناس لم يَسْمُ عنهم

وما شذّ إلّا ذو نبوغ وذو رُشد

وما العقل عند الناس إلّا تجمد

يذوب بعقل الفرد إن كان ذا وقد



ويشير إلى أن وحدة المرء ربما تقيه من القيل والقال واكتساب المآثم، من جراء الأخذ والرد فيما لا فائدة منه. بل إن الوحدة والابتعاد عن الدخول مع عامة الناس فيما لا طائل منه يعد ضرباً من العبادة:

لذا وحدة الإنسان كانت عبادةً
إلى الحق تهدي كل من راح يستهدي

ويضرب مثلاً بمن اكتسبوا بوحدتهم وانفرادهم علماً ومعرفة وثقافة وأدباً بأبي العلاء المعري:

بوحدته فاز المعري وصنوه
بما أبدعا من آي شعر بلا عدِّ

ونظرة أخرى لا تتفق مع مقولتهم ـ العقول تلقح بعضها بعضاً ـ فهو يرى أن أفكار الغير تقف دون مَد الفكر، بل إنه يرى في ذلك حجزاً وتجميداً للفكر وأن ليس في التفرد ما يحد من التفكير:

تُحدد فكرَ الفرد أفكارُ غيره
وإن ينفرد لم يلق للفكر من حد

فعش مثمراً مفرداً وعد بعد للورى
فهب لهم الأثمار من جنة الخلد

فما لك عنهم أولهم عنك من غنىً
ولكن إذا لم تخلُ لم تك ذا رفد

○○○○○

أبو نجيد التميمي.. شرارة الحرب

وأبو نجيد اسمه نافع بن الأسود بن قلبة بن مالك التميمي. وقد ذاع اسمه واشتهر وعرف في حروب الردة حيث صاحب خالد بن الوليد باليمامة.. وهو من الذين أبلوا بلاء حسناً وجاهدوا في سبيل الله.

وقد كان لشعر أبي نجيد دور في إذكاء روح الحماس لمواجهة المواقف الحماسية والتصدي للنزعات الشريرة.

قال الدكتور نوري حمودي القيسي في كتابه «شعراء إسلاميون»: وشعر الأسود وثيقة لتخليد الوقائع وتسجيل لحركة التحرير المتمثلة في الورود على كسرى، ودخول المدائن قسراً.

أما شعره فهو سجل حافل بالوقائع التاريخية فقد ذكر مقتل بهرام، ومقتل يزدجرد في طاحونة على الرزيق في مرو، ويذكر الفرس وما لاقوه في القادسية، ويذكر فعله يوم نهاوند بعد أن ولى ـ الفيرزان إلى الجبل ـ ويذكر أواي خرد وما جرى لجيش الفرس فيها بعد أن أصبحت أشلاؤهم نهباً للذئاب.

وقد امتلأت أشعاره بوصف الخيل والرماح والحرب والضرب والطعان، وما إلى ذلك من الكلمات المثيرة التي تدفع المقاتل إلى ساحة القتال بنفس مؤمنة شجاعة كلها إقدام على قتال أعداء الإسلام وقتال المرتدين عن الإسلام.

ولأبي نجيد مراثي فيمن استشهدوا في سبيل الله، وقد خص عبد الله بن المنذر بأجزلها، وذلك لتأثره بمقتله في الحديق باليمامة ولأنه تميمي من قبيلته، فأبو المنذر بن الحلاحل تميمي.



ومن قصيدة له يصف فيها إقدام بني تميم على الحرب ومضيهم إليها وشدة بأسهم على عدوهم وما فعلوه بكسرى، يقول:

بنو تميم عتاد الحرب قد عملوا
والناهضون إذا فرسانها ركبوا

والحاملون إذا ما أزمة أزمت
فعل العشائر إن همّوا وإن ضربوا

والفاضلون إذا ما خطة جهلت
عند الجموع وفيهم تفضل الخُطب

والمانعون من الأعداء دارهم
عند الهياج إذا ما اهتزت الطنب

والواردون على كسرى مدائنه
قسراً ومن دونها بحر له لجب

ويواصل وصف قومه بني تميم في نفس القصيدة فيقول:

شعث عليها ليوث ما يجمجمها
عند الصباح بها عجم ولا عرب

شمس بأيدهم سمر مثقفة
وكلُّ عضب له في متنه شطب

إذا جلوها على الأعداء في فزع
لاحت كأن على أيديهم شهب

○○○○○

موت الغيرة على النساء

الغيرة على النساء من مميزات الرجولة، والغيرة على النساء كانت من علامات الشهامة، والغيرة على النساء كانت أساساً من أسس ترابط المجتمع.. فهل هذه الغيرة باقية على قوتها، وماضية في مسارها في زمننا هذا؟.

أم أنها تراجعت واختل توازنها مع فوضى المدينة والتوغل الحضاري المكتسب؟. والإجابة على هذه التساؤلات فيها ما يحزن النفس الأبية، ويؤلم الشيمة العربية، حيث أن مفهوم الغيرة لدى كثير من الرجال قد تغير وأصبح له معنى تمليه المرأة على الرجل وفقاً لما تراه مناسباً لحالها.

فيقبله الرجل بلا تردد، وبلا مضض، ويتقبله دون أن يعرضه على مرآة الغيرة التي يجلوها العقل ويعتني بها الفكر.

وهل هناك أدلّ على قبول ما تميله المرأة على الرجل من أن الرجل يرى امرأته تخرج إلى الأسواق العامة في أكمل زينتها، وماشية بين مرتادي الأسواق من الرجال مشية تبختر، والعطر يفوح منها منادياً الناس، أن شموا الرائحة ومتعوا أنظاركم بالرؤية.

وهل أدل على موت الغيرة ممّا نراه اليوم من استيلاء النساء على سلطة الرجال وانعكاس التبعية وإبطال مفعول الرعاية والمسئولية.. أما مشاركة النساء في الوظائف التي يحسن بأن لا يقوم بها إلا الرجال فهو صورة من صور قتل الغيرة التي تنكر اختلاط الرجال بالنساء في أي مجال من مجالات العمل.. ولقد أعجبني قول الشاعر الغيور إبراهيم علي أبي الخشب من مصر، في قصيدته التي نشرتها المجلة العربية التي تصدر



من الرياض في عددها ١٤٥، عام ١٤١٠هـ حيث أظهر عدم رضاه عن الوضع الذي آلت إليه حالة نساء اليوم اللاتي تركن بيوتهن وطرقن مجال العمل الوظيفي ووكلن المربيات بتربية أولادهن، فلم يعدن أمهات بالمعنى الصحيح، ولم يعد الرجال يغارون عليهن الغيرة المفهومة المعنى.. يقول:

تــرك الــنــســاءُ بــيــوتــهــنّــه
ومــضــيــن يــرخــيــن الأعــنّــهْ

طــوراً هــنــالــك أوهــنــا
والــكــون مــفــتــوح لــهــنّــهْ

وبعد ذلك بأبيات يقول: إن النساء شاركن الرجال في الوظائف وأعمال الدواوين:

يــمــرحــن فــيــهــا حــيــث شئــ
ــن وحــيــث شــاء هــواؤهــنــه

إذْ لا حــســاب فــإنــه
شــيء ثــقــيــل عــنــدهــنــه

والــجــو فــيــاح الــجــوا
نــب هــكــذ مــن حــولــهــنــه

وفيها يقول:

إنــي أرى مــا لا تــرو
ن وهــذه والــلّــه فــتــنــه

مــا فــي الــشــريــعــة أن تــكــو
ن خــلالــهــا تــلــك الــدجــنّــة

والــجــسـم إن دبّ الــفــســا
د إلــيــه لا تــشــفــيــه أنّــه

والقصيدة أكثر من ذلك فهي تبلغ نحو اثنين وعشرين بيتاً.

من ضحايا الحب

قالوا: الحب داء دواؤه قرب الحبيب.. وحكايات الحب والمحبين كثيرة ومتنوعة وكثير منها ما يختم بموت المحب.

قيل: أن رجلاً كانت عنده ابنة جميلة تزوجها رجل من أهل النعم وأحبته فلم تلبث معه إلا قليلاً حتى مات فحزنت عليه حزناً شديداً، وكانت تدخل بستاناً لأبيها تخلو فيه وتبكي وتنشد هذه الأبيات:

إنـــمـــا أبـــكـــي لإلـــف
خـــانـــه الـــدهـــر فـــمـــات

قـــلـــت لـــلـــدهـــر بـــشـــجـــو
أيـــهـــا الـــدهـــر أســـأت

لـــم تـــركـــت الأم والأب
وبـــالإلـــف بـــدأت

إنـــه أحـــســـن خـــلـــق
كـــان لـــي فـــي الـــخـــلـــوات

ففطن لها أبوها وسمعها تردد الأبيات، فقال لها ما كنت تقولين يا بنية فقالت يا أبتي: وجدت الماء قد قل ولحق النخل العطش، فلما رأيت ذلك أحزنني فأنشدت:

إنـــمـــا أبـــكـــي لـــنـــخـــل
خـــانـــه الـــمـــاء فـــمـــات

قلت للماء بشجو
أيها الماء أسأت

لم تركت الزرع والكر
م وبالنخل بدأت

إنه أحسن شيء
كان لي في الثمرات

فقال لها: يا بنية هل لك أن أزوجك؟، قالت: لا والله يا أبتي مالي رغبة في زوج، فلم تلبث إلا قليلاً حتى ماتت، فكانت من ضحايا الحب.

○ ○ ○ ○ ○

متى يدرك المرء شفقة والديه عليه؟

كثير من الناس لا يعرف مدى شفقة والديه عليه. بل إن أكثرهم لا يدرك معنى ما يمسهما من إحساس نحوه.. ولا ما يخالج قلبيهما من حب لا يقاس له بُعْدٌ، وحنان لا تحدّه نهاية، حتى يصبح رب أسرة ويصبي ويتعلق قلبه بصبيته تعلقاً يغمره حبه لهم.. ويستولي على مشاعره الحنان الأبوي، وتفيض نفسه باللطف بهم.

وعندما يصبح المرء أباً ويضعه حنان الأبوة في الموضع التي تجعله يمرض لمرض أولاده، ويجوع لجوعهم، ويغضب لغضبهم، ويتأثر بتأثرهم، يجد الإدراك إلى ذهنه طريقاً، ومن ثم يستقر في عقله ويمكث في مفهمه أن والديه كانا يشعران بما هو شاعر به الآن نحو أبنائه.. والسعيد من الناس الذي يكون والداه على قيد الحياة عندما يصح في فهمه ويستقر في عقله ما كان يكنه أبواه من شفقة عليه حتى يرد ولو نسبة ضئيلة من ذلك الدين الذي لا يحصى، ولا يعد، ولقد قرأت قصيدة للشاعر المصري الدكتور عزت شندي موسى منشورة في المجلة العربية التي تصدر من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، اشتملت على صورة ندم على عدم معاملة الوالدين معاملة تليق بهم وتشعرهم بعظيم حقهم. وقد كان عنوانها «ندم» وبلغت أبياتها ستة وعشرين بيتاً، منها قوله:

يا ليتني قدّرتُ معنى الحنان
من قبل أن يمضي ذاك الأوان

حتى أفيض البر طوعاً على
من ربياني منذ فجر الزمان



ومنها قوله:

من بعد ما ذقت حب البنين
أحسستُ في قلبي شعور الحنينْ

قدّرْتُ ما للولْدِ من حظوة
في النفس ترسو في قرار مكين

ومنها قوله:

ذكرت أمي والأسى بي دفين
يشوي شغاف القلب شيّ الأتون

أيام كانت لاتني لحظة
أو تعرف الترويح عبر السنين

إن بتُّ في كرب تقم في الدجى
وَلْهى.. وتقضي ليلها في الأنين

ومنها قوله:

ياليتني أكبرت هذا العنا
أو ليتني وفيتُ هذي الديون

○ ○ ○ ○ ○

هـادم اللذات

ورد ذكر الموت في القرآن الكريم في مواقع كثيرة.. منها قوله تعالى في سورة النحل آية ٣٨: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وذلك رداً على الذين ينكرون البعث والحياة بعد الموت.. والموت هو الحد الذي يُنْهي حياة كل مخلوق له نفس وروح.

أمّا ما بعد الموت بالنسبة للإنسان فإن هناك حياة ونشوراً وميزاناً ينصب لوزن الأعمال تحركه الذرة ويبين وزنها، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾. ويُمَدُّ الصراط، ويرى الإنسان أعماله رأي العين.

والموت في حد ذاته إما أن يكون بداية شقاء للإنسان، وإما أن يكون نقطة انطلاق إلى سعادة أبدية.. قال تعالى في سورة النساء الآية ١٢٣، ١٢٤: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال تعالى في سورة هود الآيات ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذا بعد الموت.. أما الموت نفسه فهو ليس مقصوراً على أحد دون الآخر، فهو كما قيل سيتخطّانا إلى غيرنا وسيتخطا غيرنا إلينا.. لا محالة ولا مفر منه.



ومما نسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في ذكر الموت، وأنه آت على كل حيّ سواء كان نبياً أو إنساناً عادياً:

عجبتُ لجازع باكٍ مصابٍ
بأهل أو حبيب ذي اكتئاب

شقيق الحبيب داعي الويل جهلا
كأن الموت كالشيء العجاب

وسوّىٰ اللّه فيه الخلق حتى
نبيّ اللّه عنه لم يحاب

له ملك ينادي كل يوم
لِدوا للموت وابنوا للخراب

وذكر شارح كتاب خزانة الأدب نقلاً عن «الفصول القصار» من نهج البلاغة أن علي بن أبي طالب قال: إن لله ملكاً ينادي في كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب.

وروي في «جمهرة أشعار العرب» لمحمد بن أبي الخطاب أن بعض الملائكة قال:

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير إلى ذهاب

أما أبو العتاهية فيقول في إحدى قصائده البائية:

وإن لكل مُطّلَعٍ لحدّاً
وإن لكل ذي أجل كتابا

وكل سلامة تَعِدُ المنايا
وكل عمارة تَعِدُ الخرابا

وكل مملك سيصير يوماً
وما ملكت يداه معاً تبابا



دعوا الأطفال يلعبون كما كنتم تلعبون

بعضنا يريد من الأظفال إن يتصرفوا مثل ما يتصرف هو، وأن يفعلوا كما يفعل هو، بل ويريد منهم أن يتمثلوا بحركاته وسكناته.

وهذا الذي يريد تلك الإيرادات من الطفل لا بدّ لنا من أن نستوقفه ونقول له: هل ولدتك أمك بهذه الهيئة التي أنت عليها الآن بنسكك وعقلك ولحيتك، وفكرك؟. إن هذه الأشياء اكتسبت بعضها بالتعليم وبعضها بالتقليد، والبعض الآخر حلت به مسيرة الأيام في جسدك؟.

ثم هل نسيت لعبك مع أقرانك الأطفال؟، وهل نسيت سذاجة الطفولة التي يعشق الناس سماعها منك إن كانت لفظاً، والرؤية إليها إن كانت حركة؟ ثم هل نسيت ملاعب الصبا وسني الطفولة وبراءتها حتى تريد من الأطفال أن يكونوا رجالاً بين ليلة وضحاها؟ وأن لا يقضي فترة صبا وطفولة كفترة صباك وطفولتك.

إن إنكارك للعب الأطفال، وانتقادك لتصرفاتهم ربما يرجع بك إلى صفوفهم فيتقدمون وتبقى أنت في رجعيتك، وأما الطفل فلم يلزم الصمت على هذا الانتقاد بل رده إلى صاحبه حيث قال على لسانه الأستاذ محمد منذر الشعار قصيدة طويلة تبلغ نحو من تسعة وثلاثين بيتاً نشرتها مجلة المعلم التي تصدر في دولة الكويت.

من تلك القصيدة التي جاءت على لسان الطفل كما أسلفت قوله في مطلعها:

قـــادة الـــجـــيـــل الـــفـــتـــيِّ
أنـــصـــفـــوا جـــيـــل الـــصـــبـــي



ومنها قوله:

كلكم قد كان مثلي
أول العهد الطريّ

أنسيتم أيها الأ
قوام أيام الثديّ

أنسيتم سهر الأ
م على المهد الزكيّ

انظروا فيَّ صباكم
قبل إسدال اللحيّ

ومنها قوله:

أنا طفل غير أني
في غد رأس النديّ

رب شهم في كياني
اليوم.. أو هاد ذكيّ

ومنها قوله:

لا تربوني بقهر
أو بضربٍ بالعصيّ

○ ○ ○ ○ ○

خلاط يتبع لبيد في الإعلان
عن السأم من طول الحياة

كثيرون هم الشعراء الذي أظهروا سأمهم من الحياة وبالغوا في وصف مللهم منها.. والبحث عن الأسباب التي جعلتهم يتفوهون بذلك السأم.. تكتنفه تعليلات كثيرة لعل أهمها وأبزرها، بل وأصدقها، هو أن الشاعر عندما يصل إلى سن يعجز معه عن الحركة التي كان معتاداً عليها في شبابه ورجولته، ويرى أن الهزل والضعف وما يجره الكبر من آلام المفاصل قد ألزمه الجلوس، بل أرغمه على القعود، وفرض عليه ما لم يفرضه على من يسرح ويمرح أمامه من الناس.. تعود به الذاكرة إلى أيام شبابه فلا يجد في يده منها شيئاً غير الرجوع به إلى التفكير فيما كان عليه من حال في زمن مضى، وعندما يطول به التفكير، ويستولي عليه الملل من طول الجلوس يعلن السأم من الحياة الرتيبة، ولعل أبلغ معلن عن السأم من الحياة هو زهير بن أبي سلمى.

أما لبيد بن ربيعة فقد تضجر من طول الحياة ومل من سؤال الناس عنه، لأن الناس لا يسألون في الغالب إلّا عن من تخلف عن قافلتهم، ويقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ

وغَنِيتُ سبتاً قبل مجرى داحسٍ
لو كان للنفس اللجوج خُلُودُ



وشهدت أنجية الأفاقةِ عالياً
كعبي وأرداف الملوك شهود

ولا أريد أن أستعرض أقوال الشعراء الذين سئموا من الحياة في هذا الموضوع المختصر غير أن هناك شاعر اسمه ديمتري بك خلاط قد أظهر سأمه من الحياة بنص البيت الذي قال لبيد ثم سار بعده مصغياً لأهله الذين يطالبونه بالإفصاح عن رغبته فيما يأكل وما يشرب وما يركب، وذلك بقوله المنشور في مجلة المقتطف المصرية في عدد أكتوبر سنة ١٩٣٠م:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال أهلي ماذا تأكل في غد

أكبيبة أم سمكة مشوية
أم لون أرز بالفراخ مزود

أم هل تروم السير في سيارة
تطأ الثرى في خفة كالهدهد

أما جوابه لأهله فهو يقول:

فما من لذة مذ مقلتي
حرمت قراءة كل سفر جيِّد

حسبي ضباب بالعيون مخيم
في كل آن بالظلام مهدِّدي

○ ○ ○ ○ ○

أم الذئب تقبل العزاء من الثعلب ولكن..!

هناك من الشعراء فئة مغرمة بإنشاء الشعر القصصي.. وغرامها بهذا اللون من الشعر جعلها بطبيعة الحال تبدع في سرد وقائع القصة التي يتناولها كل واحد منهم.. ونحن نرى أولئك الشعراء في كثير من القصص الخيالة يصورون ببراعة أبطالها تصويراً يكاد يكون معه القارئ معايشاً للحادثة أو مشاهداً لها.

وفي مجلة المعلم التي تصدر في دولة الكويت قرأت أبياتاً صور فيها الشاعر الذي لم يشر إلى اسمه ذئباً جائعاً وجد فريسة فأخذ يلتهمها بسرعة ونهم دون أن يلوك أو يمضغ، فصادف أن نشب في حلقه عظماً كبيراً فغص به ولم يستطع بلعه، أو إخراجه فمات بسبب ذلك العظم. وكان الثعلب ينظر إليه فلما رآه قد مات راح يعزي أم الذئب في ابنها، ويحثها على التزام الصبر والترحم له.

فقالت أم الذئب: كلامك صحيح وعزاؤك طيب ومشكور، ولكن ما الذي ستقوله عنا سائر الحيوانات إذا علموا أن ابني مات بسبب العظم الذي نشب في حلقه.. ثم تمنّت أنه مات بسب كثرة اللحم والتخمة كموتة أخيه.

أما الأبيات التي تصور هذه القصة فهي:

كـــان ذئـــب يـــتـــغـــذى
فـجـرت فـي الـزور عـظـمـه

ألـــزمـــتـــه الـــصـــوم حـــتـــى
فـجـعـت فـي الـروح جـسـمـه



فأتى الثعلب يبكي
ويعزي فيه أمه

قال: يا أم صديقي
بي مما بك غمه

فاصبري صبراً جميلاً
إن صبر الأم رحمه

فأجابت: يا ابن أختي
كل ما قد قلت حكمة

ما بي الغالي ولكن
قولهم: مات بعظمه

ليته مثل أخيه
مات محسوداً بتخمه

○ ○ ○ ○ ○

ربما مزق النهار نسيج الليل

ما من صاحب فكر وقلم إلا ويكون له في سكون الليل تجليات، فتراه يَمْضِي مع ساعات الليل يسجل أحلامه وخواطره.. قد عشق السكون واستقر باله مع وحدة الليل والتفرد بنسيمه.. وتراه أيضاً يستطيب همس الليل ووميض نجومه فيسرح بفكره مع ساعاته التي غفت عنها العيون فأخذت تمضي بلا رقيب وتقطع الوقت دونما سائل يسألها عن الزمن أو مستفسر يستوقفها ليعلم ما هو فيه من وقت.

وللشاعر مصطفى كامل الشاوي وقفة مع الليل وسكونه.. خلاصتها تُصوّرُ مضيّه مع الليل في حالة صفاء وهدوء فكر تموج في أرجائه مشاعر الشاعرية التي تأتي بكل بديع من كل معنى.. وتختال في ساحاته الخواطر الطرية التي ترسم الاتجاهات وتملي على النفس كل ما يروق لها ويبهجها.

ثم يصور النهار في صورة، خلاصتها أنه - وأعني بذلك النهار - يأتي بما ينقض ما غزل بالليل، وأنه ربما كان أداةً يمزق ما نسجه السامر مع ومض النجوم وهدوء الحركة.

ومن تلك الوقفة التي رسمها في لوحة شعرية بديعة أظهر فيها اطمئنانه إلى الليل وهدوئه.. وتخوفه من مفاجآت النهار وصخبه، والتي أطال فيها النفس حتى بلغ بها أربعاً وعشرين بيتاً.. قوله:

غدرات الليالي تأتي سراعاً
وسراعاً تمضي ليالي الهناء

رب ليل ظللت أرشف فيه
كل ما شئت من معاني الصفاء



ورأيت الغرام أيقظ مني
شعر نفس أشفت على الإغفاء

فخلقت البديع من كل معنى
وجلوت الجمال للشعراء

هكذا بتُّ لا فؤادي شاك
من هواه ولا حبيبي ناء

فأتى الصباح بالخطوب التوالي
من عذاب وفرقة وجفاء

فتساءلت كيف جرح قلبي
غصة البين بعد حلو اللقاء

أين قلبي فقدته في غرامي
أين عيني؟ أذبتها في بكائي

○ ○ ○ ○ ○

أبيات شعرية نبراس لعبد الملك ومعاوية

قرأت في العدد ٥٥٢ من مجلة الرسالة الصادرة بتاريخ ٥ صفر سنة ١٣٦٣ للهجرة وهي السنة الثانية عشر من عمر مجلة الرسالة، موضوعاً عنوانه «لامية شعية بن غريض أخي السموأل» تحت توقيع «ناقد». وقد أكد ذلك الناقد أن الأبيات:

إنـــا إذا جــارت دواعــي الــهــوى
وأنــصــت الــســامــع لــلــقــائــل

واعــتــلــج الــقــوم بــألــبــابــهــم
في الــمــنــطــق الــفــاتــل والــفــاصــل

لا نــجــعــل الــبــاطــل حــقــاً ولا
نــلــطُّ دون الــحــق بــالــبــاطــل

نــخــاف أن تــســفُــه أحــلامــنــا
فــنــخــمــل الــدهــر مــع الــخــامــل

من لامية شعية بن غريض أخي السموأل، وليست لسعيد بن غريض، وعن قيمة هذه الأبيات الأربعة قيل: أن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان يتمثل كثيراً إذا اجتمع الناس في مجلسه بهذه الأبيات الأربعة.

وقيل: كان عبد الملك بن مروان إذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه ينشد هذه الأبيات الأربعة، ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين. قال: الموقع تحت «ناقد»: والشعر من قصيدة أولها:

لـبـاب يـا أخـت بـنـي مـالـك
لا تـشـتـري الـعـاجـل بـالآجـل

لـبـاب هـل عـنـدك مـن نـائـل
لـعـاشـق ذي حـاجـة سـائـل

عـلّـلـتِـه مـنـك بـمـا لـم يـنـل
يـا ربـمـا عُـلّـلـتُ بـالـبـاطـل

لـبـاب داويـنـي ولا تـقـتـلـيـنـي
قـد فُـضِّـلَ الـشـافـي عـلـى الـقـاتـل

وأقول بهذه المناسبة كما قال المتقدمون ـ آفة الأخبار رواتها ـ فكم من قول نسب إلى غير قائله، وكم من شعر روي لغير شاعره.

وإذا ما أردنا البحث في أصل هذا الخلط أو الخطاء بالأصح، فإن هناك أسباباً كثيرة يمكن أن نرده إليها، أهمها أن الراوية يكون.. إما حاسداً للقائل فيسلبه قوله في حال غيابه أو موته، ويسلبه غيره ممن هو راضٍ عنه، وإما أن يكون هناك تشابه في الأسماء فلا يتورع الراوية من نسب القول إلى صاحب الاسم الذي يعرفه هو دون أن يلزم نفسه مشقة البحث الذي يحقق عدم تضارب الأسماء، وذلك بالقياس الزمني أو المواقع الجغرافية لمن تتشابه أسماؤهم، حتى يسند القول إلى قائله عن يقين ثابت، ولكن هذا لم يحصل من بعض الرواة هدى الله الأحياء منهم، وعفا عن الأموات.

○○○○○

الزهاوي يخاطب إبليس

كلنا نعرف أن إبليس اللعين واقف للإنسان بالمرصاد يهويه ويغويه، ويحمله على كل ما يشينه ويرديه، ويزين له كل ما يحبط أعماله ويخزيه.. ثم إذا أوقعه في المهالك تبرأ منه.

وكم له لعنه الله من نشاطات تسفك الدماء، وتوغر في الصدور العداء.. قال الله تعالى في سورة الأنفال آية ٤٨: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

والتنبيه إلى أخذ الحيطة من إبليس والاستمرار على مجاهدته وخذله لا يفتر عنه الدعاة والواعظون والمرشدون الذي يعظون الناس بما جاء في القرآن والسنة النبوية، ويذكرونهم بأفاعيل إبليس وألاعيبه وبما جاء من تحذيرات من الوقوع في حبائله، وخططه وأفخاخه وأباطيله.

وسيراً على هذا النهج الجهادي التحذيري مضى كثير من الشعراء في حث الناس على الاحتياط من وسوسة إبليس، وذلك باستمرار التعوذ منه بالله عند مباشرة أي عمل أو انتهاج أي طريقة.

أما الشاعر العراقي الفليسوف جميل صدقي الزهاوي فقد خاطب إبليس بقصيدة طويلة، منها قوله:

أسرفت يا إبليس في الوسواس

فأعوذ منك برب هذا الناس



أغويتني من بعد ما استدرجتني
مستحوذاً حتى على أنفاسي

حسّنت في عيني الشرور فجئتها
وضممتُ أرجاساً إلى أرجاس

ونفذت في أعماق قلبي فاتحاً
حتى ملكت منافذ الإحساس

ومنها قوله:

إبليس أنت وليُّ كلَّ ذوي الهوى
إبليس إنك في الولاية قاس

إبليس ما أشركتني في صفقة
إلا قضيتَ علي بالإفلاس

ومنها قوله:

تُلْقي العداوة موغراً بين الورى
فتثير أجناساً على أجناس

ومنها قوله:

تذكي الحروب وأنت منها سالم
مما يضر بأنفس الأحلاس

○ ○ ○ ○ ○

من الشعر ما يكون وثيقة

والذي يرسل فكره، ويجهد نفسه في البحث عن الشواهد من الشعر على أي حدث كان منذ وجد الشعر يجد بُغيته، لأن الشاعر لا يترك حادثة مُلْفتة للنظر تمر دون أن يقيدها في أبيات تكون في البداية تعبيراً عن شعور خالج نفسه، ثم تتحول فيما بعد لتكون وثيقة يُسْتَشْهَدُ بها على صحة وقوع ذلك الحدث.

ولقد كان لشعر الشعراء الذين شهدوا الوقائع الحربية وبناء القلاع وحفر الخنادق وبناء المدن والحصون والقصور وسجلوا مشاعرهم عن تلك الأحداث في قصائد احتفظت بها بطون الكتب، أثر عظيم في نفوس المحققين، حيث عدوها من المراجع التي يستند إليها في البحث عن صحة وقوع تلك النشاطات التي كانت مزدهرةً في القصور القديمة، ولم يبق منها الآن إلّا الأطلال والرسوم.

والشعراء المعاصرون الذين يسجلون الآن النهضة التقنية لهذا العصر، سيكون شعرهم بطبيعة الحال وبلا أدنى شك شاهداً على حضارتنا.. فالأنفاق التي تحت الأرض، والجسور المعلقة في الهواء، والسكك الحديدية، وجميع وسائط النقل الجوي والبري والبحري، وكل ما حققه الإعلام من وسائل مرئية ومسموعة ومقروءة وما إلى ذلك من أنواع التقدم الحضاري الذي ربما يكون تراثاً عندما يأتي العلم بما لا نستطيع تصوره ولا يخطر الآن ببالنا.. أو يكون هناك تراجع للوسائل التي نحن الآن نعدها تراثاً، وتصير نهضتنا العلمية القائمة الآن حديثاً يروى حينما يدمر العالم نفسه بنفسه ثم يبدأ من الصفر بإنشاء حضارة أخرى.

وقصيدة الشاعر فخري أبو السعود التي عنوانها «السكك الحديدية تحت الأرض» والتي سأقتطف منها أبياتاً تصور واقع الأنفاق التي تجري بداخلها القطارات وغيرها من وسائط النقل، وربما تكون بعد مئة عام سجلاً يحكي نهضة صناعية وحضارية أو وثيقة تراث علمي نسخه التطور الصناعي، يقول أبو السعود:

خلَصْت من زحمة الدنيا وضجتها
إلى طرائق تحت الأرض تنسرب

جرت مفاوزها في كل ناحية
فلم تزل تتلاقى ثم تنشعب

ومنها قوله:

تجري بها مركباتٌ ما يزال لها
تحث الثرى والدجى مسلك عجب

سرى بها دافع للكهرباء فلم
تقذف دخاناً ولم يزفر بها لهب

ومنها قوله:

يرمي بها نفق داج إلى نفق
وينطوي سرب من بعده سرب

كأنما هي سعلاة بها كلب
أو أنا طالب قد شفّه الطلب

تجري النهار وما تدري له وضحاً
وداجي الليل لا تبدو له شهب

تظل تقطع أنحاء المدينة لم
يشعر على الأرض من جاءوا ومن ذهبوا

الفصحى لغة الجمال والكمال

كل شعب من شعوب الأرض يعتدُّ بلغته، ويرى أنها هي اللغة التي لا تماثلها لغة.. ونحن لا نلوم أي شعب أو فرد يمتدح لغته، بل نرى في ذلك ما يدل على صدق مواطنته حتى وإن كانت لغته في آخر قائمة اللغات. لأن اللغة جزء لا يتجزأ من الوطن، بل هي الوطن نفسه، وبقاؤها يعني بقاء الوطن حراً كريماً يقي نفسه من المؤثرات والأساليب التي تأتي عن طريق تعشق لغة غير لغته من قبل أهله.

والشعب الذي يستبدل لغته بلغة أخرى يعدُّ شعباً عاقاً لوطنه ولا بدّ أن يبتلىٰ بالتشريد والضياع مثلما أضاع لغته.. وحريّ به أن يلاحقه صاحب تلك اللغة التي استبدل بها لغته، حتى لا يبقى له أثر، ولا لسان، ولا أدب، ولا تراث.

أما اللغة العربية فقد أثبتت أصالتها بحكم جمالها وكمالها وفصاحتها وقوتها وسعة آفاقها، أنها اللغة الحية التي يتكيف معها كل إنسان يجيدها، فهي في مجال الإعلام لغة إعلامية تخدم الإعلامي بأي أسلوب يريده.. وهي في مجال التأليف لغة علمية تكشف للمؤلف عن مخزون هائل من المفردات والمترادفات التي لم تحتويها أي لغة من لغات العالم، بدليل أننا نقرأ ما ألف بلسانها فنجد بين تلك المؤلفات فارقاً كبيراً من حيث الأسلوب والقوة والجزالة اللفظية، لأنها لغة لا تبخل على قلم أي كاتب، وكيف تبخل ولديها من الأساليب والتعبيرات ما يوافق كل مستوى ثقافي..

واللغة العربية تقابل من أبنائها بالتمجيد والتعظيم بدليل أنهم لا

يغفلون عن التنويه بالاعتزاز بها في كل مناسبة.. وهذا أحد أبنائها الشاعر محمد راجح الأبرش يدلي بدلوه في امتداحها بقصيدة طويلة تبلغ سبعة وعشرين بيتاً، نشرتها المجلة العربية في العدد ١٤٦ من سنتها الثالثة عشر.. منها قوله:

لُغتي وهل تدري عرائسها التي
تبدو فيزهو وجهها الفتان

عربية لا شك أن بيانها
عذب ويحلو بحرها الملآن

أم اللغات بلاغة وتألقاً
منها يشع النور والبرهان

أنسا بها محمودة ورجالها
معروفة ما عابها إنسان

ملكت من الشرف الرفيع صدارة
وتطلعت لعلوها الأكوان

لغة الكتاب عزيزة ومنيعة
ما نالها بغي ولا عدوان

حوت المعارف والعلوم ولم تزل
في كل فن مالها شطآن

ومنها قوله:

من ضيع الفصحى يضيع ذاته
أم اللغات بها الشعوب تصان

○○○○○

ليس هذا مثل ذاك

الناس ليسوا سواء في السلوك والخلق.. وليسوا سواء في الكرم والسخاء.. وليسوا سواء في الشجاعة والإقدام.. وليسوا سواء في العلم والمعرفة.. وليسوا سواء في الأخذ والعطاء.. وليسوا سواء في طلب المجد والعلا.. وليسوا سواء في صدق العقيدة واستشعارها.. وليسوا سواء في الصدق والوفاء، بل هم في كل أمر من الأمور درجات، وهناك فروق عظيمة بينهم في الهمم والسعي إلى الأهداف النبيلة، لا تظهر إلا لمن يقصد اختبارهم ويبلو أخبارهم.

ولقد أعجبتني أبيات من قصيدة للشاعر محمد مصطفى البلخي. صاحب ديوان «قنديل السعادة»، حيث وقف فيها وقفات جميلة تشير إلى الفروق القائمة بين الناس في إطار ينفي فيه تشبيه هذا بذاك ويبين الفارق بينهم، كأن يقول ليس المستقيم كالمعوج، ولا من يرفع القواعد ويبني كالذي يحمل في يده معولاً ويهدم، ولا الذي يرتدي لباس الوقار كالذي يجر أذيال الخيبة والخسران، يقول:

ليس من يلبس تاجاً من تقى
مثل من يلبس بين الناس عاره

ليس من يرضع من نبع الهدى
كالذي يخلع للفسق عِذارهْ

ليس من يرقي لسُدات العلا
مثل من يهدم بالشهوة دارهْ



ليس من يعمر صرحاً طاهراً
مثل من يحفر وكراً للدّعاره

إن يَسِرْ هذا بأبهى حلّة
فأخوه جرّ أذيال الخساره

ويعزو الشاعر البلخي هذا التباين وتلك الفروق التي تقوم بين الناس إلى المربي الذي يغرس البذرة الأولى في النفس الطرية التي تسمح لأي جذر أن يأخذ مكانه منها..

وفي كلام موجه من البلخي للنشئ الصغير ما يغني عن الإطالة في التعليق، إذ يقول:

أيها الأشبال يا نبت الرُّبا
أيها الأشراف يا رمز الطهارة

لؤلؤ أنتم وهذا صرحكم
لؤلؤ أنتم وما أزكى محارةْ

فإذا كان المربي دوحة
فلأنتم في خلاياه النضاره

○ ○ ○ ○ ○

حسم عداوة الأقرباء والرهط

لعل من أكبر المصائب التي يبتلى بها المرء هي عداوة قومه له لأن الرجل الحكيم لا يتمادى معهم في الأخذ والرد حينما لا يجد منهم أذناً صاغية، ولا قلباً واعياً ولا فكراً مدركاً لم يقوله، فيضطره أمرهم إلى ركوب كل صعب في سبيل السلامة من غوائلهم.. ويلتمس شتى الطرق التي تجنِّبُهُ مصادمتهم، وتقيه مناصبتهم العداوة والبغضاء.

ولعل أكثر الطرق التي يسلكها الحكماء لتفادي التطاول في ميدان النزاع الذي لا طائل لهم فيه، هو ترك الديار والمضي في الاغتراب عنها وأهلها.. وهذا هو ما نراه متخذاً لحل المشكلات التي تقع بين المرء وقومه.

وعمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة واحد من أولئك الذي أصيبوا بعداوة قومهم لهم، وهو أيضاً أحد الذين رأوا أن مقبرة عداوة قومهم هي الابتعاد عن الديار.

وإذا ما نظرنا في مفهوم اغتراب شاعر أو حكيم أو مفكر عن قومه ورهطه، وبلاده وجدنا أنه يعد منقصةِ لقومه لأنهم لم يستطيعوا التعامل معه فجفاهم، ونبذهم بترك ديارهم وأوطانهم لأنه بما يمتلكه من دبلوماسية يستطيع أن يتعايش مع أي قوم آخرين غيرهم.

ولعمرو بن قميئة قصيدة بهذا الصدد، منها قوله:

أرى جارتي خفتْ وخف نصيحها

وحب بها لولا النوى وطموحها



فبيسى على نجمٍ شخيس نحوسه
وأشأم طير الزاجرين سنيحها[1]

فإن تشغبي فالشغب مني سجية
إذا شيمتي لم يؤت منها سجيحها[2]

أقارض أقواماً فأوفي قروضهم
وعفٌّ إذا أردى النفوس شحيحها

على أن قومي أشقذوني فأصبحت
دياري بأرض غير دانٍ نبوحها[3]

تنفذّ منهم نافذاتٌ تسؤنني
وأضمر أضغاناً عليّ كشوحها

فقلت فراق الدار أجمل بيننا
وقد ينثني عن دار سوءٍ نزيحها

على أنني قد أدعي بأبيهم
إذا عمت الدعوى وثاب صريحها[4]

○○○○○

---

(١) الشخس: الاضطراب. وأمر شخيس: متفرق.
(٢) السجيح: اللين السهل. والأسجاح: حسن العفو وهو المراد هنا.
(٣) المشاقذة: المعاداة.
(٤) ثاب صريحها: كثر النداء بالصريح وذهب الذين ليسوا صرحاء.

القلب يكشف ما يتستر عليه اللسان

وما دام أن القلب رسول للقلب، فإن محاولة تستر اللسان على ما هو مخالف لواقع القلب يعد أمراً مكشوفاً، لكن هناك من يجهل هذه الحقيقة فيظهر خلاف ما يبطن ولكن هل يستطيع أن يخفي حقداً أو يتستر على شر يفيض به القلب؟، الجواب بالطبع.. لا.. أما لماذا؟ فلأن هناك جوارح تنطق بما يضمره، وحركات غير شعورية تشير إلى ما يخفيه..

ومهما أراد الحاقد التكتم على حقده فإنه لا بد باد للناس لأنه إن لم يُلَاحَظ ذلك الحقد في عينيه جاء على لسانه.. وإن لم يبرز في إشارته ظهر على ملامح وجهه.. لأن الأعين التي تراه تعتمد على دقة الملاحظة التي يبرمجها القلب الذكي، ويجعل منها رقيباً على كل جارحة لها علاقة بالتعبير أو الإشارة.. ونحن كثيراً ما نسمع قولهم: فلان عرف الشر في عيني فلان.. وقولهم: قرأ فلان الغضب على وجه فلان.. وأصحاب الفراسة يعرفون في وجوه الذين يبثون أخبار أناس ليسوا حضوراً هل هم من حزبهم وذويهم أم من أعاديهم لأنهم يقرأون لغة جوارح المخبرين.

والشاعر يزيد بن الحكم الثقفي يقول لشخص يريد أن يخدعه بأسلوب فيه شيء من النصح: إن في عينيك ما يدل على ما يكنه صدرك من حقد دفين:

تكاشرني كرهاً كأنك ناصح

وعينيك تبدي أن صدرك لي دوي



لسانك ماذي وغيّك علقم
وشرك مبسوط وخيرك منطوي

وقد تمنى الثقفي أن يحصل على الكفاف من بعضهم فلا يؤذي ولا يؤذى، لكنه لم يتحقق له ذلك بل قوبلت حسناته بالسيئات، ويقول لمن لم تصفو سريرته:

فليت كفافاً كان خيرك كله
وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

عدوك يخشى صولتي إن لقيته
وأنت عدوّي ليس ذاك بمستوي

تصافح منْ لاقيتَ لي ذا عداوة
صفاحاً وغيٌّ بين عينيك مُنْزَوي

ويمضي في رسم صورة ذلك الذي يتمادى في مخالفته، ويصمم على العناد الذي يغذيه الحقد وتنميه النفس الشريرة:

أراك إذا لم أهو أمراً هويته
ولست لما أهوى من الأمر بالهوي

أراك اجتويتَ الخير مني وأجتوي
أذاك فكل يجتوي قرب مجتوي

والحاقد لا يرضى بالخير لقريب أو بعيد حتى وإن يكن ذلك ابن عمه، فإنه لا يود له منفعة ولا يفرح له بحسن حال، وإنما يحسده على كل صغيرة وكبيرة من الخير:

إذا ما ابتنىٰ المجد ابن عمك لم تُعنْ
وقلت ألا يا ليت بنيانه خوي

○ ○ ○ ○ ○

القرضاوي والشعر

لقد وقف الشاعر الدكتور يوسف القرضاوي وقفة شجاعة.. ووضع قدمه على خط ثابت في ميدان الشعر، ثم أرسل قولاً يدحض به كل من يحاول التقليل من شأن الشعر وعدم أهميته في مجال الحياة الأدبية وغيرها.

والحقيقة أن أي شاعر مطبوع لا يدافع عن الشعر الذي يرقى بأسلوبه وبديعه وجمال صنعه إلى قمم الأدب لا يحسب شاعراً، ولا يعدّ في قائمة الشعراء، ولا في قافلة الأدباء، لأن الشعر جزء من روح الحياة العامة، بدليل أن له أثراً في كل ميدان من ميادين العلم والثقافة ومعظم أنواع المعارف العلمية منها والأدبية. وهو ـ وأعني بذلك الشعر ـ في كل موضوع يكتب، وكل بحث يدون كالملح في الطعام.. وهل يستساغ طعام بلا ملح؟، أو يكون له لذة وطعم!!، بالطبع.. لا.

وإثبات أهمية دور الشعر في الحياة العامة لا يحتاج إلى بحث لانتقاء دليل معين.. ولكن الذي يحاول أن يتجاهل هذا فعليه أن يعمد إلى أي مجلس من المجالس الأدبية أو إلى أي حلقة من حلقات تدارس العلوم الدينية، وأصول الدين، وسيسمع بأذنه شواهد من الشعر على أي بحث يدور في تلك التجمعات. والشاعر الدكتور يوسف القرضاوي قد أنصف الشعر حقه حينما قال قصيدته «أنا والشعر» والتي تضمنها ديوانه «نفحات ولفحات» وهي قصيدة تبلغ ستة وعشرين بيتاً منها قوله:

أريد له هجراً فيغلبني حُبّي

وأنوي ولكن لا يطاوعني قلبي



وكيف أطيق الصبر عنه وإنما
أرى الشعر للوجدان كالماء للعشب

فكم شد من عزم وبَصّر من عمى
وأيقظ من نوم وذَلّلَ من صعب

لقد بغّضت لي الشعر في مصر شلّة
يبيعونه بالمال للبغي والنهب

ومنها قوله:

ثلّة سوء ظنّتْ الشعر معدناً
يصاغ بجهد كالنحاس وكالصُّلب

فجاؤوا به وزناً أجفّ من الصفا
وأثقل من هجر على مهجة الصب

لئن نحتوه كالتماثيل هيئة
فمن لهمو بالروح، والروح من ربي

ومنها قوله:

وقفتك يا شعري على الحق وحده
فإن لم أنل إلّاه قلت لهم حسبي

○○○○○

التبرج فتق في الخلق والدين!!

إن الأخذ بزمام المبادرة في إصلاح كل شأن من شئون حياتنا الاجتماعية يعد عاملاً من العوامل التي تضمن البقاء على ما هو صالح.. ويشدُّ من العزيمة التي من شأنها إيقاظ النفس الغافلة التي ربما يتراءى لها في الزخرف الكاذب ما يحملها على التحول عن تقاليدها وعاداتها المتفقة مع عقيدتها إلى ذلك البهرج الغرور الذي يغوي كل من نظر إليه ويلقي به في عالم التقليد الذي ربما يكون وسيلة من وسائل التحلل عن العقيدة والمبدأ، وبالتالي يكون عربوناً للإفلاس من الدين والدنيا معاً، ويكون سلم هبوط إلى الحضيض.. والذي يحاول رفأ كل فتك يراه في أي جلباب قد تجلبب به أي فرد من أفراد مجتمعه، حتى لا ينفتق مرة ثانية.. يكون له دور قيادي في مجتمعه.

وإذا اعتبرنا سفور المرأة وعدم تحشمها وميلها إلى التبرج ومزاحمة الرجال فتقاً كبيراً في التقاليد والعادات وإخلالاً بمبادئ الدين فإن رجال الوعظ والشعراء يملكون وسيلة رفئ ذلك الفتق.. والغفلة عن ذلك تعني الإشارة للنساء بالدخول من باب التجاوز الذي يكمن فيه الخطر.. والحقيقة أننا نجد للوعاظ والشعراء تواجداً حول ذلك الباب، فمن الشعراء مثلاً، الشاعر أحمد بشار بركات الذي يحدد نقطة الخطر في التبرج فيحذر النساء من الاقتراب منها في أسلوب وعظي تضمنته قصيدة له نشرتها مجلة الرابطة التي تصدر من مكة المكرمة في عددها ٢٩٤، محرم عام ١٤١٠هـ منها قوله:

يا ابنة الإسلام كوني

قدوة في الصالحات



واحرصي أن لا تكوني
في عداد العابثات

وارتدي جلباب عزّ
بئس فعل العاريات

واحذري ناراً تلظت
واسلكي درب النجاة

واتركي عنك الغواني
ضل سعي المفسدات

هذه الدنيا سراب
فيه كل المغريات

فاقبلي نصحي فتاتي
واعملي فالموت آتٍ

وانشدي حقاً عزيزاً
وافعلي فعل الدعاة

○ ○ ○ ○ ○

بماذا ندرك اختلاف الظواهر؟!!

هناك أمور كثيرة تختلف بواطنها عن ظواهرها.. والعين ليست مقياساً حقيقياً لواقع طبع ما تراه أو تشاهده، فهي لا ترى إلّا ظاهر الأشياء، والرؤية وحدها لا تدرك جوهر ما تراه ما لم تطلب العون من الحواس الأخرى كأن تطلب إلى اليد معرفة الخشن من الأشياء والناعم منها والحرارة والبرودة وغير ذلك مما يميز طبعه اللمس باليد، وكأن تطلب إلى الفم معرفة حلاوة أو حموضة أو مرارة الأشياء التي يراد معرفة واقع حال طعمها، وكأن تطلب إلى الأنف معرفة روائح الأشياء والتمييز بين الطيب ونتن الرائحة. وكأن تطلب إلى الأذن معرفة الأصوات التي تستطيب سماعها النفس والأصوات التي تنفر من جعجعتها وضوضائها.

والعين ليست إلّا دليلاً يستدل به على الألوان والأحجام والهيئة البرّانية للأجسام. ولهذا فإن الاعتماد عليها قد يأتي بنتائج عكسية لأن كثيراً من الأشياء يكون باطنها مخالفاً لظاهرها، ومن منا لا يظن أن النعجة الصوفاء التي أعطاها صوفها حجماً كبيراً ممتلئة لحماً ومكتنزة شحماً، ثم يتحول عن ظنه إذا ما جستها يده وأدرك حجمها الحقيقي، كذلك الشأن في بقية الأشياء التي تختلف بواطنها عن ظواهرها، حتى بني الإنسان، فإنك ترى منه جسماً معتدلاً وتسمع منه كلاماً حسناً فتظنه أعطيَ بسطة في العلم والجسم، ولكنك إذا خالطته وتعاملت معه تكشف لك منه أشياء تخالف ذلك المظهر الذي رأيته، بل ربما لمست منه عكسها تماماً.

والشاعر قلاقس، واسمه نصر الله بن مخلوف المعروف بابن قلاقس، له وقفة أمام الأشياء التي ليست على ظواهرها، يقول في ذلك:

لا تـخـدعـنّ فـربـمـا تـبـع الـفـتـى
ظـنـاً يـضِـلُّ وجـانـب الـتـحـقـيـقـا

ولـقـد يـروعـك مـا يـروقـك بـهـجـة
كـالـسـيـف راع سُـطـى وراق بـريـقـا

ولـربـمـا شـام الـصـدى صـواعـقـا
تـسـطـو عـلـيـه فـخـالـهـن بـروقـا

وتـشـابُـه الأضـداد يـوهـم نـاظـراً
ولـو اسـتـبـانـهُـمُ أروه فـروقـا

وبـنـو الـزمـان وإن صـفـوا لـك ظـاهـراً
يـومـاً طـووا لـك بـاطـنـاً مـمـذوقـا

دوح يَـمِـرُّ لـك الـجـنـا أثـمـاره
ولـقـد تـمـر بـه الـريـاح وريـقـا

فـاعـلـق بـأطـراف الـوداد فـإنـه
مـن دافـع الأمـواج مـات غـريـقـا

وإذا انـتـهـى الإخـلاص أوجـب ضـده
إن الـتـجـمـع يـنـتـج الـتـفـريـقـا

○ ○ ○ ○ ○

قواعد حسابية وهندسية

يحاول العلماء والتربويون والمدرسون تيسير المناهج الدراسية وتبسيطها حتى يجد فيها الطالب مرتعاً خصباً، وينال منها حظاً وافراً.

ولعل من أشهر ما ألف في تبسيط المناهج التعليمية هو ألفية ابن مالك. حيث نظم فيها النحو وما يتعلق به من صرف ونحوه، وذلك في محاولة منه لتبسيط قواعد كل فرع من فروع النحو ليسهل حفظه على طالب العلم.

والذي دعاني إلى ذكر هذه المعلومة المفهومة لدى طلاب العلم والمعرفة هي استحثاث الشعراء الذي لهم باع في كل فن من فنون المعرفة والعلوم الإنسانية على نظم قصائد منهجية، كأن ينظموا قصائد جغرافية، وتاريخية.. وما إلى ذلك مما يكون منهجاً تعليمياً، لأن الشعر غالباً ما يكون سهل الحفظ، وإذا حفظ فهو طابع لا يغلب عليه النسيان ـ أقول لا يغلب عليه النسيان لأسباب هي من مميزات الشعر ومن خصائصه التي لا أرى داعياً لذكرها هنا، لأن البحث فيها يحتاج إلى إسهاب وإطالة ـ.

ولقد أعجبت بقصيدة نشرتها مجلة المعلم التي تصدر في دولة الكويت للشاعر عدنان مقدسي، وعنوانها «الرياضيات» وقد تناول بعض القواعد الحسابية والهندسية، وهي طويلة نسبياً تبلغ نحواً من ثمانية عشر بيتاً، أذكر منها هنا قوله:

إن تـوازىٰ مـسـتـقـيـمـان وكـا

ن هـنـاك الـمـسـتـقـيـم الـقـاطـع



طـــابـــقـــت زاويـــة زاويـــة

نـــاظـــرتـــهـــا ذاك قـــول شـــائـــع

وبعد أن ذكر الأعداد الأولية ذكر الجبر فقال:

عـنـد ضـرب الـسـيـن بـالـسـيـن تُـربّـ

ـعـهـا والاخـتـصـار الـرافـع

وبـتـكـعـيـب ومـا قـد زاده

مـن صـحـيـح الأسـى فـهـو الـرافـع

إنـنـا نـقـصـد ضـرب الـحـدّ بـالـ

ـحـدّ والـتّـعْـدَاد هـيّـا تـابـعـوا

سـيـكـون الأسـى قـد دلّ عـلـى

عـدد الـمـرات قـال الـواضـع

إذ بـهـذا عـرف الـرفـع وجـا

ءت قـوانـيـن فـهـذا الـواقـع

ثـم جـمـع الـحـد والـحـد الـشـبـيـ

ـه لـه فـي غـيـر هـذا مـانـع

○ ○ ○ ○ ○

العبارة والإشارة

إذا كان النحوي شاعراً فلا بدّ أن يكون في شعره أثر من صنعته وفنه ولمسة من علمه.. ففي كتاب «نحو القلوب» للإمام عبد الكريم بن هوزان بن عبد الله من طلحة بن محمد القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ ما يدل على ذلك.. وبحبكم أن القشيري يعشق الحكمة والإيجاز في القول فقد ظهر ذلك في تبسيطه لبعض قواعد النحو.. ومن نماذج تبسيطه المشوق نقل أقوال أهل العبارة وأهل الإشارة.. وإليك بعضاً من تلك العبارات والإشارات.. ففي باب، الإعراب والبناء يقول: لما كان الإعراب بالحركات الثلاث: الرفع، والنصب، والجر، والجزم، كان مدار أهل الإشارة برفع همومهم إلى الله تعالى ونصب أبدانهم في طاعة الله تعالى، وخفض نفوسهم تواضعاً لله تعالى، وجزم قلوبهم عما دون الله تعالى، وسكونهم إلى الله تعالى.. والمعرب هو المتغير من أصحاب التلوين، والمبني ما كان مستقيماً في حالة لا يتغير وهم أصحاب التمكين.

وفي فصل الأسماء يقول: الأسماء معارف ونكرات، وكذلك العباد منهم معروف له نصب مع القوم هو به معروف، ومقام في الصدق هو به موصوف، ومنهم منكّر لا نصيب له مع القوم ولا حظ له سوى الأكل والنوم.

ويقول في فصل المبتدأ: المبتدأ مرفوع لتجرده عن العوامل اللفظية.. والفقير المتجرد مرفوع القدر، وخبره مرفوع لانقطاعه عن العلائق، وتعلّقه بالحقائق الواردة من الخالق.



وفي فصل الأفعال يقول: الأفعال ثلاثة: ماض وحال ومستقبل.. وأحوال القوم مختلفة، فمنهم مَنْ فكرته في السابقة، ومنهم من فكرته في الخاتمة، ومنهم من اشتغل بإصلاح وقته الذي هو فيه عن الفكرة في مستقبله وماضيه.. ويقول في فصل النعت: النعت تابع للمنعوت، والوصف تابع للموصوف. كذلك أعمال العبد لا تفارقه، وما حصل من خير أو شر فهو لاحقه.. وفي فصل التوكيد يقول: التوكيد: هو التحقيق، والقوم أكدّوا إيمانهم بالتصديق، وعقدهم مع الله بالتوثيق، وشمّروا في ملازمة الطريق.. أما الشعر فيقول:

«نَحْو القلوب» عجيب
رفع وخفض ونصب

علامة الرفع فيه
روْح وأنس وقرب

وأحرف الخفض منه
حزن وقبض وحجب

والنفس حرف لمعنى
إسقاطه مستحب

والحال ينصب ما ليـ
ـس للفتى فيه كسب

هذا هو النحو لاما
قد قال عثمان حَسْب

لحن اللسان مباح
واللحن بالقلب ذنب

وأقبح اللحن عندي
كبر وتيه وعجب

آدم عليه السلام أول من نطق بالشعر

قرأت في مقدمة الحكمة الخالدة لمؤلفه أبي علي أحمد بن محمد مسكويه.. استغراباً واقعياً بل اعتبره استنكاراً لما ذكره أمير دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه الغازي السمرقندي في كتابه «تذكرة الشعراء» الذي ألفه سنة ٨٩٢ للهجرة، من أن أول من قال الشعر هو آدم عليه السلام.. وقد علق على هذا القول الدكتور عبد الرحمن بدوي محقق كتاب الحكمة الخالدة تعليقاً حذّر فيه من ذلك الاستدلال الوهمي الذي لا يستند إلى حقيقة، ولا يوثق لهم بنقل ولا رواية، ومشيراً إلى أنه قد انعدمت لديهم حاسة الضبط العلمي تماماً، فهم يضعون من الأخبار ما يشاؤون، ويخترعون من النوادر ما وسعهم الاختراع، يعينهم على هذا خيال جامح لا يردعه وازع العقل، ولا الضبط في التاريخ.

وقرأت في كتاب «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» لمؤلفه علاء الدين علي دده السكتواري قوله: أن أول من نطق بالشعر أبو البشر آدم عليه السلام. قال: ذكر ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: لما قتل قابيل أخاه هابيل، بكى آدم عليه السلام، وجزع وأسف على فقده، ورثاه بشعر يعزى إليه، منه قوله:

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون
وقلّ بشاشة الوجه الصبيح





وبـدّل أهـلـهـا أثـلاً وخـمـطـاً
بـجـنـات مـن الـفـردوس فـيـح

وجـاورنـا عـدوّ لـيـس يـنـسـى
لـعـيـن مـا يـمـوت فـنـسـتـريـح

وقـتـل قـابـيـل هـابـيـل ظـلـمـاً
فـوا أسـفـا عـلـى الـوجـه الـمـلـيـح

قال المسعودي وجدت في عدة من كتب التواريخ والسير أن آدم عليه السلام لما نطق بهذا الشعر أجابه إبليس حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه، وهو يقول:

تـنـحّ عـن الـبـلاد وسـاكـنـيـهـا
فقد في الأرض ضاق بك الفسيح

وكـنـت وزوجـك الـحـواء مـنـهـا
وآدم مـن أذى الـدنـيـا مـريـح

فـمـا زالـت مـكـايـدتـي ومـكـري
إلـى أن فـاتـك الـثـمـن الـربـيـح

فلما سمع آدم عليه السلام ذلك ازداد حزناً وجزعاً على الماضي والباقي، وعلم أن القاتل مقتول. فأوحى الله إليه، إني مخرج منك نوري الذي أريد به السلوك في القلوب الطاهرة، والأرومات الشريفة، وأباهي به الأنوار، وأجعله مجمع الأسرار ومطلع الأنوار، وأجعله خاتم النبيين، ورحمة للعالمين، وأجعل له خيار الأمة، وأخيار الأئمة الخلفاء الراشدين. أختم الزمان بمدتهم وأغص الأرض بدعوتهم، وأنيرها بشيعتهم.

○○○○○

وصية والد لابنه

ووصايا الآباء للأبناء كثيرة لا حصر لها، ولا غرو في ذلك لأن الابن فلذة الكبد كما يقولون، وإلى جانب هذا القول الذي يحقق الصلة التي ما بعدها من صلة.. فإن الآباء بحكم تجاربهم وطول ممارستهم للحياة يرون أن من الواجب عليهم أن يصفوا لأبنائهم تجاربهم، وأن يوصوهم بما يتفق ومصالحهم، وأن يحذروهم عما يرون فيه ضررهم.

ذكر أحمد زكي صفوت في كتابه «جمهرة خطب العرب» وصية الكاتب الشهير أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي لابنه أبي الحسن علي بن موسى العنسي الذي قال: لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة رأى أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربة فكتب شعراً ونثراً.. من نثره قوله: احتذ بأمثلة من جرّب واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يريحك ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستعن به ولا تضيع قوله ولا فعله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك وحثاً لك واهتداء.

وقوله: ومتى رفعك الزمان إلى قوم يذُمُّون من العلم ما تحسنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك وتزهيداً لك فيه، فلا يحملك ذلك على أن تزهد في عملك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشية الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه، ثم

أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه فبقي مُخَبَّلَ المشي.. أما شعره في تلك الوصية فمنه قوله:

أودعك الرحمن في غربتك
مرتقباً رُحماه في أوبتك

وقوله:

فللتجاريب أمور إذا
طالعتها تشحذ من غفلتك

فلا تنم عن وعيها ساعة
فإنها عون إلى يقظتك

وقوله:

ولا تجالس من فشا جهله
واقصد لمن يرغب في صنعتك

ولا تجادل أبداً حاسداً
فإنه أدعى إلى هيبتك

وامش الهوين مظهراً عفة
وابغ رضا الأعين عن هيئتك

وقوله:

ولا تكن تحقر ذا رتبة
فإنه أنفع في غربتك

وقوله:

واعتبر الناس بألفاظهم
وأصحب أخاً يرغب في صحبتك

القـــــبر

القبر هو ذلك الرمس الذي يدفن فيه الإنسان بعد موته حتى لا يتأذى من نتن رائحته الأحياء، وهو تلك الحفرة التي تتحول حينما ينصرف عن المدفون فيها دافنوه إلى روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، نعوذ بالله من النار وما يقرب إليها من قول وعمل، ونسأل الله الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل.

وقد ورد ذكر القبر في أحاديث شريفة. وورد ذكره في آيات كثيرة من القرآن الكريم. قال تعالى في سورة التوبة الآية ٨٤: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الحج الآية ٧: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾، وقال تعالى في سورة فاطر الآية ٢٢: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

ومن أسماء القبر: الجدث، وقد ورد ذكره بهذا الاسم في أكثر من موضع من القرآن الكريم قال تعالى في سورة يس الآية ٥١: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾، وقال تعالى في سورة القمر الآية ٧: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾، وقال تعالى في سورة المعارج الآية ٤٣: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقف على قبر فبكى،

فقيل له: إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي، أو تبكي من هذا الموقف؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه».

ولأحد الشعراء:

سلامي على أهل القبور الدوارس
كأنهمو لم يجلسوا في المجالس

ولم يشربوا من بارد الماء نهلة
ولم يطعموا من كل رطب ويابس

ولم يكن منهم في الحياة منافس
طويل المنى فيها كثير الوساوس

ألا ليت شعري أين قبر ذليلكم
وقبر العزيز الشامخ المتشاوس

لقد سكنوا في موحش الترب والثرى
فها هم بها ما بين راج وآيس

ولو عقل المرء المنافس في الذي
تركتم من الدنيا له لم ينافس

وقال آخر:

كم أخرس الموت في قبر وقفت به
عن الجواب لساناً ما به خرس

قد كان قصرك معموراً له شرف
فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

○ ○ ○ ○ ○



كاد الحجّام أن يقطع لسان ليلى الأخيلية

روي عن مولى لعنبسة بن سعيد بن العاص أنه قال: كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد بن العاص، إذ دخل علىٰ الحجاج يوماً فدخلت إليهما، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة، فأقعدني فجيء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني بن، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما، ثم جاء الحاجب، فقال: امرأة بالباب، فقال له الحجاج: أدخلها، فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت فإذا امرأة قد أسنّت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها، فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى، ما أتى بك؟ فقالت: إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد، فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: الفجاج مغبّرة، والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والهالك للقلّ، والناس مسنتون، رحمة الله يرجون، أصابتنا سنون مجحفة مبلطة، لم تدع لنا هُبْعاً ولا رُبْعاً، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال، ومزقت الرجال، وأهلكت العيال، ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يُفْلل سلاحك إنها المـ
ـنايا بكفّ اللّه حيث تراها

أحجاج لا تعطِ العصاةَ مُناهم
ولا اللّه يُعطىٰ للعصاة مُناها



إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة
تتبع أقصى داءها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها
غلام إذا هزّ القناة سقاها

سقاها فرواها بشُرب سِجاله
دماءَ رجالٍ حيث مال حشاها

إذا سمع الحجاج زِرّ كتيبة
أعد لها قبل النزول قراها

أعدّ لها مسمومة فارسية
بأيدي رجال يحلبون صراها

فما ولد الأبكار والعون مثله
ببحر ولا أرض يجفّ ثراها

قال: فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلها الله، والله ماأصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعدّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً، ثم التفت إليها فقال: حسبك! قالت: إني قد قلت أكثر من هذا، قال: حسبك ويحك! حسبك، ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فذهب بها، فقال: يقول لك الأمير اقطع لسانها فأمر بإحضار الحجام. فالتفتت إليه، فقالت: ثكلتك أمك.. أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة، فبعث إليه يستثبته، فاستشاط غضباً، وهمّ بقطع لسانه، وقال: ارددها، فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله أن يقطع مقولي.

○○○○○

موعظة في مطاردة الأمل

الأمل هو ذلك الشيء الذي يحسه الإنسان ولا يلمسه.. وهو يداخل النفس ويرتسم في صورة جميلة أمام إنسان العين، مما يجعل القدم تنساق نحوه، فإذا ما تحقق شيء مما كان يتراءى للعين وتطمع فيه النفس نقلها إلى مرحلة ثانية وعلى هذه الوتيرة يفعل الأمل بالإنسان، ويجعله يعيش طول حياته بين صور متتالية في البعد، لكنه كثيراً ما يورد الإنسان المهالك، ويجره ببريقه إلى مواطن الخسران، ومواقف الندم.

ولذا فإنه يجب أن يكون عليه ـ وأعني بذلك الأمل ـ رقيب من العقل حتى يعود بالمنفعة لصاحبه ويحقق له النصر تلو النصر، أما إذا لم يكن خاضعاً لسلطان العقل فإنه يكون متذبذباً فطوراً ينزع بصاحبه ويقوده إلى الفوز وحيناً يرده خائباً يجر أذيال الهزيمة.

ولقد قرأت لأحدهم قوله: ما أورد النفس الموارد وفتح عليها باب الحتف إلّا الأمل، كلما قوّمتها مثاقف الحدود فتح لها أركان الرخص، وكلما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور في أطباق: حتى، وإذا، ولكن، وربما، فأفرط القلب في تقليبها حتى أفطر.

ومما يناسب هذا الموضوع من الشعر قول أحد الشعراء:

ما أوبقَ الأنفس إلّا الأمل
وهو الغرور وما عليه عملُ

يفرض منه الشخص وهماً ماله
حال ولا ماض ولا مستقبلُ



والأمل من حيث هو موضوع تتناوله الأقلام، ولا ينتهي القول فيه إلى نقطة معينة، إذ أن لكل كاتب وشاعر رأيه فيه، وذلك حسب رؤيته الثقافية وحياته الاجتماعية، ومن الشعراء الذين تناولوا الأمل، الشاعر حيدر الغدير الذي نشرت له مجلة المجتمع في عددها ٩٣٨، ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ قصيدة طويلة بلغت ٢٥ بيتاً، منها قوله:

أورق وأشرق أيها الأمل
واصنع غداً بالنور يغتسل

أطياره بالشدو صادحة
لا الوهن يعرفها ولا الملل

والبسمة الزهراء في فمه
يستاقها التحنان والغزل

وقوله:

للناس فيه توبة وتقى
ونقاء قلب بالهدى خضل

أخلاقهم كالروض عطره
غب البكور المازن الهطل

وختمها بقوله:

الفجر بالإسلام مأملنا
أشرق سريعاً أيها الأمل

○ ○ ○ ○ ○

وقد تُهجى البلد بسبب أهلها

والشاعر لا يدع شيئاً تقع عليه عينه أو ينتهي إليه سمعه ويكون فيه ما يثير مشاعره إلا وينقل صورته في أبيات تجسد ذلك الشيء وتترجم واقعه مدحاً كان أو ذماً، أو شرحاً لحالة أو تبياناً لهيئة.

ونحن نراهم يسافرون من بلد إلى آخر، فيصفون معالم الطريق التي يسلكونها، والبلدان التي يمرّون بها أو يقيمون فيها، فتكوِّن قصائدهم سجلاً حافلاً بترجمة لواقع البلدة التي أقاموا بها، ولهذا نراهم في بعض الأحيان يذمون البلدة نفسها، لأنهم أصيبوا حين نزولهم بها بأسقام وعلل، قد يكون سببها عدم موائمة مائها أو هوائها لطبائع أجسامهم، وحيناً نراهم يسبُّون البلدة بسبب أهلها الذين لا يجدون في عاداتهم وتقاليدهم من السخاء والكرم ما يوجب مدحهم والثناء عليهم، وذلك بعكس ما يكيلونه من المدح والثناء للبلدة التي يجدون من أهلها السماحة والكرم وحسن الضيافة.

وهذا الشاعر أحمد النجفي يلقي باللوم على بلدة «عاملية» في قصيدة طويلة لأنها أقلت وأوت أناساً لم ير فيهم من معاني الرجولة ما يحميهم من هجائه، يقول من تلك القصيدة:

يا بلدة جمعت جهلاً وإرهاقاً
وما حوت أبداً علماً وأخلاقاً

من يشته الموت يدرك فيك بغيته
فإن فيك لروح الضيف إزهاقاً

وواضح أنه أبدى السبب الذي من أجله كره المقام في بلدة





«عاملية» ثم استطرد في ذم البلدة نفسها، وكأنه يقول لها: أذمك لأنك ضممت تلك الشرذمة من الناس:

لست المصيف ولا مشتىً ولا بلداً
ولا مقيلاً، ولا رأساً ولا ساقاً

سُوّاق دربك تكفي عنك معرفة
ألْعِنْ بهم بشراً نذلاً وسُوَّاقاً

طيش وكذب وتعطيل وثرثرة
حتى غدوا لانحطاط الخلق مصداقاً

أسواق أحزاب كل الأرض فيك غدت
وأنت أصغر كل الأرض أسواقاً

ويقول في موضع آخر من نفس القصيدة:

ما في مجالسك الرعناء من أدب
فذاك يحكي وذا تلقاه نعّاقا

ويؤكد حقيقة بأن الأرض تهجى بأهلها لأنهم يشوهونها بأفعالهم فيجعلونها بذلك موضع هجاء. أما هي فلا ذنب لها.

الأرض تهجىٰ بأهليها وليس لها
ذنب وكم شوه الأهلون آفاقا

○○○○○

المفاخرة بالوطن

حب الوطن يجري من كل مواطن مجرى الدم، ولا غرابة في أن يبلغ حب الوطن هذا المبلغ من الإنسان، لأنه تغذى بهوائه ومائه ونباته واستظل بسمائه، ودرج فوق أديمه واستقر على أرضه فصار قطعة منه، وإنكار حق الوطن يعد ضرباً من الجهل.. وجفوة أهله له يفسر بالجحود وبنقص في العقول. ولهذا درج على ألسن الناس القول المأثور «حب الوطن من الإيمان».

وعن الوطن والتفاخر به كُتِبَ الشيء الكثير، وقيلت الأشعار التي لا تحصى، ولا تحصر، إذ أن الكثير من حملة الأقلام قد مجدوا أوطانهم وأعلوا شأنها، ورفعوا مكانتها بين الأوطان.

وقد بلغ حب الوطن في نفوس المواطنين الحقيقيين مبلغاً جاد بالابتهال والتضرع إلى الله بأن يحفظه، وأن يجنبه كل مكروه، ويدفع عنه كل سوء وبلى، وأن لا يجعله هدفاً ليد باغٍ أو معتدٍ أو جائر يسومه وأهله سوء العذاب.

والمواطن الحق يفتدي وطنه بنفسه وماله ويبذل كل ما من شأنه استقراره وأمنه.

الشعراء هم أكثر الناس إشادة بالأوطان، وهم أكثر الناس تحمساً لها فتراهم يدفعون الناس بأقوالهم المؤثرة إلى الذود عنها والذب عن حياضها، والتشجيع على الصمود في مواجهة أي اعتداء تتعرض له، وإلى جانب ذلك نراهم يذكرون ما تتميز به أوطانهم عن غيرها، ويفاخرون بما تنتجه أرضها مما يستطاب ويستلذ أكله فضلاً عن المباهات ببروز رجالاتها.



يقول السلطان سليمان بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري ممتدحاً ـ الجريب ـ باليمن وهو مسكنه:

بلاد تساوى بردُها وحرورها
فنسيان كانون لها و«أبيبها»

غزيرة أنهار تفيض مياهها
وغير حرور حيث كان قليبها

وأعذب أرض اللّه ماء لشارب
وخص بها طيباً وبرداً «جريبها»

إذا كانت «العوا» وللشمس منزلاً
وقابل أيام الخريف ضريبها

رأيت بها الأعناب والخوخ دائماً
مع التين والتفاح يرضيك طيبها

من حلو رمان وتين ومشمش
وأصناف أرطاب كثير ضروبها

وأصفر كمثرى وإنجاص حمرة
كحمرة لون الشمس حان غروبها

وموز وأترج وليم جميع ما
أسميه موجود يراه طلوبها

وقوله: «أبيبها» يعني شهر آب من الأشهر الرومية.

○○○○○

بغل علاء الدين في ذاكرة الزمن

ماأكثر الأشياء التي تمتد إليها أيادي السراق، وما أكثر الأشياء التي تفتقد بأي عامل كان فيحصل للنفس من جراء ذلك ردود فعل مؤثرة، لكنه سرعان ما يطوي النسيان صفحة التأثر، ويصبح المسروق أو المفقود مع تقادم الزمن كأنه لم يكن، ولكن الأشياء التي تسرق للكاتب أو الشاعر أو كل صاحب قلم تبقى في الذاكرة، أما كيف تبقى فلأن حادث السرقة يثير غضبهم، ويحرك شعورهم فلا يجدون سوى القلم وسيلة لتفريغ ذلك الشعور الطافح بالغيظ، فيجرونه فوق صفحات الطرس ليسجلوا أوصاف ما سرق لهم، وإنّهم ليجعلون منه شيئاً ذا قيمة حتى يكون منه مبررٌ يدعو إلى ذكره، ووسيلة لتخليد اسمه، بالإضافة إلى تحصين أنفسهم من النقاد الذين ربما ينتقدونهم بسبب المغالاة في استمرار الأسى على ما سرق لهم من تافه الأشياء.

وهذا الشاعر علاء الدين بن مليك الحموي المتوفى سنة ٩١٧ هجرية، قد كان له بغل يحمله، وينتقل عليه من مكان إلى آخر، ويحمل عليه أشياءه، فلما سرق أنشأ قصيدة يذكر فيها شيئاً من حياة بغله المسروق، ويعدد منافعه ومناقبه، ويفتخر بامتلاكه له، ذلك الامتلاك الذي جعل له رتبة عالية بين مجتمعه، لأن امتلاك البغل في عهد الحموي يعني الأبهة والتميز، ثم يذكر شيئاً من صفاته التي يشهد بها له النقل والعقل كما يقول:

لقد كان لي بغل به رتبتي تعلو

فأصبحت أمشي لا حمار ولا بغل



وقد كان حراً طاهر الذيل ماشياً
له باختيار يشهد العقل والنقل

ويذكر مدى تحمله وقوّته على حمل الأشياء مع حمله هو، ويعرّج على ذكر نسبه فيشير إلى أنه من سلالة أصيلة، وأن أمه عربية تجللها فحل جيد:

وكان على حَمْلي وحملي مرابطاً
ويحمل بعض الكل عني بل الكل

وكان سليل الأصل من عربية
نتيجة فحل نعم ما ينتج الفحل

ثم يمضي في ذكر أوصافه فيذكر سعة صدره ومنكبه، وأنه لا أحد من بني فصيلته مثله، وأنه ما أتى قبله مثله ولن يأتي بعده مثله:

وكان له صدر وسيع ومنكب
فلا بعد ذا بعد ولا قبل ذا قبل

ويصف الذي قام بسرقته بأنه جني معاند قد تربص به حتى ظفر بسرقته في ظلمة من الليل:

فعاندني فيه من الجن سارق
كأن لديه العقد قد كان والحل

ومد إليه في ظلام الدجا يداً
بها كان يمشي حين تنقطع الرجل

ويصف حالته بعدما سرق بغله فيقول:

وأصبحت لا بغلي ولا وصله أرى
وقد ذهب المركوب واستغرق الرحل

○○○○○



شيء مما أورده ابن خلدون على بطليمس في النظر في الكواكب

في معرض رد لعبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون على بطليمس الذي يقر بقوى الكواكب وفعاليتها في حياة الناس ويرد كل أمر يحدث إلى قواها، يقول ابن خلدون في معرض رده: ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أنْ لا فاعل إلّا الله بطريق استدلالي كما رأيته، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنيٌّ عن البيان في أنّ الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل منهم على ما يُقْضى به فيما يَظْهَرَ بادئ الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف، والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربط جميع الكائنات علواً وسُفْلاً، سيَّما والشرع يردُّ الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى، ويبرأ مما سوى ذلك، والنبوءات أيضاً منكِرَةٌ لشأن النجوم وتأثيراتها، واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته»، وفي قوله في الحديث القدسي: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأمّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب، الحديث.

ويقول أيضاً: وإن نظر فيها ناظر ـ يعني الكواكب ـ وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر، فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها، فُقِدَ الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحلق لتعلُّمها، وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل، إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس، وتحت ربقَة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على

طائل؟ ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنيا، وسَهُلَتْ مآخذه من الكتاب والسنة، وعكف الجمهور على قراءته وتعلُّمه ثم بُعْدُ التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعدّدها، إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال، فكيف يُعْلَمُ مهجورٌ للشريعة مضروب دونه سدُّ الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حَدْس وتخمين.

وحول هذا الموضوع أورد ابن خلدون قصيدة طويلة لأبي القاسم الروحيّ من شعراء أهل تونس، منها قوله:

يا راصد الخنس الجواري
ما فعلَتْ هذه السماء

مرّ خميسٌ على خميس
وجاء سبتٌ وأربعاء

ونصف شهر وعُشْرُ ثان
وثالثٌ ضمه القضاء

ولا نرى غير زور قول
أذاك جهلٌ أم ازدراء

إنا إلى اللّه قد علمنا
أن ليس يُسْتدفع القضاء

رضيت باللّه لي إلهاً
حسبكم البدرُ أو ذكاء

ما هذه الأنجم السواري
إلا عبابيدُ أو إماء

يقضىٰ عليها وليس تقضي
وما لها في الورى اقتضاء

فلسفة الحرب في زمن ابن خلدون

حينما تكلم ابن خلدون واسمه عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون، عن الحروب وفلسفتها أشار إلى أن سبب قيامها في الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وأما غضب للمُلك وسعى في تمهيده، **فالأول** أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة، والعشائر المتناظرة.

والثاني وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر، كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذوه بالحرب، ولا بُغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونُصبُ أعينهم غلَبُ الناس على ما في أيديهم.

والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد.

والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها، فهذه أربعة أصناف من الحروب، الصنفان الأوّلان منها حروب بغي وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدلٍ، وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، والذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوّى كما تسوّى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك

تكون أثبت عن المصارع، وأصدق في القتال، وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يُطْمع في إزالته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات.

قال ابن خلدون: ووصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد فيها كثيراً من علم الحرب، ولم يكن أحد أبصر بها منه، قال في كلام له: قدّموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيف عن الهام، وقال: وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأمكن للقلب، وأخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، وأقيموا راياتكم فلا تُميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر، قال ابن خلدون: وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في قصيدة طويلة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف، ويصف ثباته في حرب شهدها، منها قوله:

وصددتمُ عن تاشفين وإنه
لعقابه لو شاء فيكم موضع

ما أنتم إلا أسود خفَيّة
كلّ لكل كريهة مستطلع

يا تاشفين أقم لجيشك عذره
بالليل والعذر الذي لا يدفع

أهديك من أدب السياسة ما به
كانت ملوك الفرس قبلك تولع

لا أنني أدرىٰ بها لكنها
ذكرى تحضُّ المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا ضربت محلة
سيّان تتبع ظافراً أو تتّبع

والوادي لا تعبره وانزل عنده
بين العدو وبين جيشك يقطع

واجعل مناجزة الجيوش عشية
ووراءك الصدق الذي هو أمنع

○ ○ ○ ○ ○

وعد بلفور يتحقق في أيار

في شهر أيار من عام ١٩٤٨م وضع الظالم قدم الاغتصاب على أرض فلسطين وثبتتها قوى البغي والطغيان حتى جعلت منها دولة اعترفت بها كثير من الدول التي رغبت في التخلص مما لديها من اليهود وتسهيل أمر ترحيلهم إلى فلسطين، بل تشجيعهم على الهجرة إليها، فأخذ أولئك الشذّاذ يتهافتون إلى فلسطين المغتصبة وينضوون تحت علم إسرائيل المشئوم مقدمة لهم حكوماتهم السابقة كل عون مادي يضمن عدم عودتهم إلى مساقط رؤوسهم من ناحية، واجتثاث سوء الأخلاق من وسط مجتمعات رعاياهم من ناحية أخرى، وتلك حقيقة سجلها التاريخ لأعداء الإسلام والعروبة، ووعاها العام قبل الخاص في أكثر أنحاء العالم فضلاً عن العالم العربي والإسلامي.

ويعزىٰ قيام دولة الصهاينة على أرض فلسطين إلى وعد قطعه بلفور وزير خارجة بريطانيا على نفسه لليهود بأن يجعل لهم وطناً يعيشون فيه ويتجمعون على أرضه، فساعد على تحقيق ذلك الوعد انقسام الدول العربية على نفسها وضعفها، وتشتت قواها وتمزق وحدتها، مما جعل بلفور يقدم على ارتكاب جنايته المتمثلة في تحديد فلسطين على خارطة العالم بأن تكون الموطن الموعود لليهود، وذلك لاطمئنانه بعدم المقاومة المسلحة.

فعرض الخريطة على مجلس الوزراء البريطاني، وطالبه بالموافقة على قيام دولة يهود على أرض فلسطين التي حددها بالقلم على الخارطة، فوافق المجلس على ذلك الرأي المتجني وتم الوعد المشئوم،



ونمت الجرثومة في الجسد العربي منذ ذلك الوقت وحتى يومنا، وذكرى أيار تجدد ببؤسها، يقول الشاعر السعودي عمران محمد العمران في إحدىٰ ذكريات أيار:

أيار.. يا صورة للشؤم ما فتئت
تدمي القلوب وتملي الحزن.. أيارُ

أيار.. يا صخرة الأقدار غاضبة
يا لوحة الجبن أودى دونه الثار

أيار.. يا سبَّة التاريخ قاطبةً
وغصة الدهر.. في معناك أسرار

أيار.. ذكراك، والذكرى تؤرقني
ليل من البؤس والأحزان.. جبار

نمت برحبك.. مأساةُ الضمير.. فما
أقساك ذكرى.. صداها الذل والعار

تآمرٌ، وخياناتٌ.. نتاجهما
ذلٌّ وسلب، وتشريد، وإعصار

أيار.. لا كنت من شهر به وُئِدتْ
دنيا الحياء، وعاشت فيه أوضار

ويقول العمران في موضع آخر:

أيار الأسْوَدُ ذكراه
تزعج دنيانا.. أيار

○ ○ ○ ○ ○

من أوصاف الربيع

طاف الشاعر السوري محمد محمود البزم بجنبات غوطة دمشق في فصل الربيع فأعجبه ما تفتح من الأزهار الجميلة العطرة الرائحة.. وأطربه ما تغنىٰ على أغصان أشجارها من الأطيار.. فراح يجيل الطرف يمنة ويسرة ليرى جمال الطبيعة في ألوان الأزهار التي تتراقص طرباً تحت وقع قطرات الندى، وليهتزّ طرباً لرؤية الأغصان المائسة التي تتحرك وريقاتها الخضراء تحركاً ينم عن صدق الرقة ولين الطبع وعشق المداعبة.. وليرى أيضاً كيف أخذت الأرض زخرفها واكتست من الجمال بثوب ربيعي أخضر وشتْ حواشيه أكف الديم فجاء مختلف الألوان، أخضره يناغي أحمره، وأبيضه يصافح أصفره، أما سوقه فتتمايل بعضها نحو بعض تثنيها الريح ذهاباً وتقيمها جيئةً.

ويدغدغ النسيم العليل أكمام كل شجيرة ربيعية بحركات تهمس في مسمع الأكمام همساً يقول في لهجة استحثاثية، تفتحي، وانشري روائحك، واملئي الدنيا عبيراً تستنشقه الأنوف وتنشرح له النفوس، تفتحي فالشتاء قد ولى صقيعه وانطوى برده الثلجي الذي عرَّى كل عود وسلبه جماله.

ولقد ولّد منظر الربيع الخلاب في نفس الشاعر محمد محمود البزم صدى كان رجعهُ قصيدة عنوانها «غوطة دمشق» منها قوله:

سقى الغوطة الغناء هاطلُ مزنة
ولا زال دفاق الزُّلال غديرها

مسارحُ آرام وفردوس أنفس
يباري بها حسن الأصيل بكورها





مقنعة بالحسن من كل وجهة
وما فتنة الأبصار إلا سفورها

تغير الغواني الحاليات غصونها
وأعيت فما في الغيد شيء يغيرُها

تفيضُ على المحزون أنساً وبهجة
وتغمرُه أعراسُها وحبورها

يُضاحكها برق الغمام مداعباً
فتفترُّ عن زَهر الدراري ثغورُها

إذا جُنّ نوّار بها هب ناسم
ورنّح أفناناً فغنت طيورها

إذا نزلت منها الحسان جميلةً
تنكر واستخذىٰ عليها حريرها

○○○○○

السّلبي

من الناس من يكون سبهللاً لا يساير ركب الحياة، ولا يرسم لنفسه خطة عمل ومنهج اكتساب، فكأنما هو مولود جامد لا يتحرك ولا تتداعى فيه همّة تجعل الحياة العلمية والعملية تتدفق في عروقه، وشمس الفكر تشرق في نفسه وتنتشر في كليته انتشاراً يجعله يعشق العمل ويواكب الحياة، وإنما هو يعيش عيشة خمول ويحيا حياة كلها كسل واتكال فلا يبالي أسار قطار الحياة بأترابه وأبناء عصره أم توقف لأنه ليس له نصيب في قيادته، فالسلبية قد فتت في عضده، وارتضاها منهجاً جعله في حالة لا يفيد معها ولا يستفيد، فكأنه بها أشبه ما يكون بأصبع الديك الخلفية التي لا يطأ، بها وهي محسوبة من أصابع رجله، وهذا النوع من الناس يسمى «العالة» والعامة في نجد يقولون أثناء تعريفهم له: شارب النقعة ومُضَيِّق البقعة.

ومثل هذا الإنسان نستطيع أن نقول عنه ـ الصحيح السقيم ـ فهو ليس بالمعتوه ولا الممروض ولا المصاب بالعوق فيعطف عليه، وإنما هو صحيح الجسم لكنه خامل الفكر والحركة يركن إلى الراحة ويفضلها ولو تضور جوعاً.

ويقف الفلاسفة والكتاب والشعراء على من هذه حالته وصفته من الناس فيمعنون النظر فيه إمعاناً يحقق نظريات تجمع معطياتها على أن هذا الإنسان قد استكملت فيه صورة السلبية التي لا تؤثر في الحياة.

والشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي قد ساهم في تصوير ذلك الموقف في قصيدة طويلة هجا بها بعض الكتاب منها قوله:

إذا لــم تــعــرف الــخــيــرا
فـــتـــأتـــيـــه ولا الـــشـــرا

ولــم تــقــصــد بــأفــعــالــ
ـك لا نـــفـــعـــاً ولا ضـــرا

ولــم يــعــدل بــك الــتــمــيــ
ـيــز لا يُــمْــنــى ولا يــســرى

فــأنــت الــمــاء لا يــعــدو
بــه تــيــاره الــمــجــرى

وأنــت الــســيــف لا يــفــري
إذا مــا لــم بــه يُــفْــرا

فــمــا حــقّــك أن تــســمــ
ـعَ لا ذمّــاً ولا شـــكـــرا

ولــكــن أنــت فــي جــهــلــ
ـك كــالآكــل مــا يــخــرا

ومنها قوله:

وكـــالـــتـــارك مـــا يـــجـــنـــي
وكـــالـــجـــاهـــل مـــا يـــقـــرا

○○○○○

هل يستوي الشعران؟!

لا أجد مثلاً أضربه للشعر الذي يبقى في سجل التاريخ لأصالته وقوة صنعه وعذوبة لفظه إلا بالشجرة الطيبة الثمر التي يحرص كل إنسان على غرسها.

كما لا أجد مثلاً يوافق للشعر الرديء الذي يأباه القلم المتذوق لبديع اللفظ وجمال المعنى إلّا بالشجرة الخبيثة التي يكون الحرص على اجتثائها أشد من الحرص على بقائها حتى وإن لم يكن لها بديل.

والذي يبحث عما يتعلق بجيد الشعر ورديئه يجد أن هناك اهتماماً بالغاً من قبل الرواة وعشاق التأليف والتصنيف، وأن ذلك الاهتمام قد خلّف وراءه أسماءً وأشعاراً هي ماثلة أمامنا رغم بعد المسافة الزمنية التي تفصلنا عنهم بمئات السنين فجعلوا الشعراء طبقات، وجعلوا منهم الفحول التي لا تضاهى في أشعارها ـ أما الذين لا يستحقون الذكر فقد أهملوهم حتى اندثرت أسماؤهم وأشعارهم ـ وهذا يعني أن البقاء للأجود وأن رديء القول سواء كان من الشعر أو من النثر وإن كثر أنصاره فإن التاريخ يرفض الاحتفاظ به إلّا من باب حفظه للسخرية والهزء به.

والباحث في موضوع الشعر يجد أن الشعراء أنفسهم قد حرصوا على تصنيف الشعراء ونقد الشعر وما زالوا يتوارثون الطريقة، فهذا الشاعر الفلسطيني المعاصر محمود مفلح يقول في عدم استواء الشعر والشعراء، بل يغمز النقاد والأدباء الذين تركوا الحبل على الغارب لرديء الشعر حتى أخذ في الظهور على صفحات الصحف، يقول:

شعر يموت وآخر يتسكّع
وإلى الفتات على الموائد يسرع
هذا يمدُّ على السحاب جناحه
وسواه في حما الرذيلة يرتع
هل يستوي السيف الذي هتك الدجى
والآخر المتزلّف المتصنّع
هل يستوي البحران هذا ماؤه
عذب وذاك الآسن المستنقع
ومن الغرابة أن هذا رائج
تغدو به صحف الزمان وترجع
وله من العشاق ألف قبيلة
وله من الأبواق جيش مفزع

وآفة الشعر وسوق كساده هو أن تتلقاه أذن لا تميز الزّبْد الطافح على اللبن من الغسر المتراكم على سطح البحر، وهذا هو ما كان يقصده الشاعر أحمد الصافي النجفي بقوله:

وجود النفيس بلا فاهم
بلاء على السوق والبائع
فقد ينكب المرء في مشترٍ
وقد ينكب الشعر بالسامع

○ ○ ○ ○ ○

من وفاء النساء لأزواجهن

حكى الأصمعي عن رجل من بني ضبة، قال: ضلت لي أبل فخرجت في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم فإذا أنا بجارية غشىٰ بصري إشراق وجهها فقالت: ما بغيتك فإني أراك مولهاً؟ قلت: إبل ضلت لي فأنا في طلبها، قالت: فتحب أن أرشدك إلى من هي عنده؟ قلت: نعم، قالت: الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن، فإن شاء ردهن، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار، فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقها، فقلت لها: هل لك من بعل؟ قالت: كان والله فدعي فأجاب إلى ما منه خلق ونعم البعل كان، قلت لها: فهل لك من بعل لا تذم خلائقه، ولا تخشى بوائقه؟ فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعاً فأنشأت تقول:

كنا كغصنين من بان غذاؤهما
ماء الجداول في روضات جنات

فاجتثّ صاحبها من جنب صاحبه
دهرٌ يكر بفرحات وترْحات

وكان عاهدني إن خانني زمن
أن لا يضاجع أنثى بعد موتات

وكنت عاهدته أيضاً فعاجله
ريب المنون قريباً مُذْ سُنَيْنَات

فاصرف عتابك عمّن ليس يصرفه
عن الوفاء له خلب التحيات



وقال الأصمعي: نزلت على صديق لي بالبصرة ثم بكرت أنا وهو إلى المقابر، فلما صرت إليها، إذا بجارية نادى إلينا ريح عطرها قبل الدنو منها، عليها ثياب مصبغات وحلى، وهي تبكي أحر بكاء فقلنا لها: ما رأينا أكثر من التفاوت بين زيك وحزنك فأخبري بشأنك، فأنشأت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان يؤنسني
حياً ويكثر في الدنيا مواساتي

أزور قبرك في حلْيٍ وفي حلَلٍ
كأنني لست من أهل المصيبات

فمن رآني رأى عَبرَى مفجعة
مشهورة الزي تبكي بين أمواتِ

فآليت على نفسي أن أغشى قبره إلّا في مثل هذا الزي، لأنه كان يحبه أيام حياته وأنكرتماه أنتما عليّ.

○ ○ ○ ○ ○

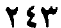
رأي النجفي في التقليد

والمنطقيون وأهل الفكر لا يبيحون التقليد إلّا للطفل لأنه فيما يجمعون عليه لا يملك التفكير الذي يستقل به عن التقليد ويهديه إلى الابتكار، ولأن التقليد بالنسبة له يعد وسيلة تنمّي فيه الحواس المسئولة عن الاستقلال بالرأي عند تجاوز مرحلة الطفولة، والدخول في المرحلة التي لا يُقْبَلُ منه فيها المضي في التقليد، بل يحاسب على انتهاج مبدأ التقليد الذي يحدُّ من فاعلية التفكير، ويحمل صاحبه على الاتكاء على مرئيّات وابتكارات غيره، ولا يكلف نفسه بالاستقلالية حتى في التهندم، فتراه يقلد الآخرين في لون اللباس والزي والهيئة، وربما المشية، وليس له ذوق مستقل به يتوافق مع مهنته وهيئته ولونه وطبعه وطوله وقصره.

وهذا الموضوع ـ وأعني بذلك التقليد ـ تناولته أقلام الكتاب والشعراء بالنقد وأجمعوا على أنه جانب سلبي بحت وليس فيه من الإيجابية ما يستوجب الإشارة، يقول أحمد الصافي النجفي: إن التقليد يعد في واقعه أسراً لمن يمارسه، ويظهر كرهه للتقليد حتى في شعره فهو يقول إن كل بيت آتي به لا بد أن يكون بكراً وليس تقليداً لما سبقه، ويرى أيضاً أن الحي المقلد «بكسر اللام» يكون في عداد الموتى. وإن طال عمره.

أنفت من التقليد عيشاً وفكرة
لأني أرى التقليد مهما يكن أسرا

وحتى قريضي لا يقلد نفسه
ففي كل بيت لي ترى عالماً بكرا





أرى الحيّ في التقليد ينكر ذاته
فحيا حياة الموت مهما يطل عمرا

بمقدار ما قلدت متّ وإن تعش
كما أنتَ زدت العمر والروح والفكرا

ويقول النجفي في نفس القصيدة: إنك إن قلدت شخصاً فإنك بتقليدك له تفنى، ثم يضرب مثلاً بالاعتزاز بالشخصية والانفراد بالسمة والطابع الخاص والاستقلالية الذاتية بالنبات، إذ ليس فيه ما يشبه بعضه بعضاً:

بغيرك تفنى إن تقلده فاجتنب
مسيرك خلف الغير تحيى امرءاً حرا

وهل بات من نبات بالنمو مقلد
سواه فرب العقل في ترك ذا أحرى

وللطفل في التقليد وما اقتفى
سواه كبير النفس، لا مدع كبرا

فعش حسب ما تهوى وفكر كما ترى
تكن فيلسوفاً، واحمل النقد والسخرا

○○○○○

الدنيا غدارة نكارة

كم حذر أهل النهى من سوء عاقبة الدنيا، وطالبوا الناس بالانتباه والالتفات إلى فعلها وتصرفاتها في أحوالهم.

وكم راح منها من هو مقيم على ما لا يرضاه الله!! راح وهو يحدث نفسه بالتوبة فعاجله الأجل وقصر له الأمل، والحقيقة أن التمادي في طول الأمل والرغبة في البقاء في ميدان الدنيا لا يحققه جهد يبذل، ولا عمل يعمل، فكم من متمني رسم الطريق لنيل أمنية تخالج نفسه فحال بينه وبينها الأجل.

ولعل الغفلة، وعدم الاتعاظ بما ينقل كل يوم إلى المقابر من جنائز، يكون السبب في شدة تمسك الناس بالدنيا وجعلها شغلهم الشاغل، ولو أنهم جعلوا للدنيا نصيباً من نشاطهم، وللتفكير فيما بعدها نصيباً آخر لأنصفوا أنفسهم وحققوا لهم بمشيئة الله نصيباً من الآخرة.

ومن جميل ما وقفت عليه من شعر وعظيّ فيه تزهيد بأمر الدنيا، وتحريض على أمر الآخرة والتقرب إلى الله، أبيات نسبها برهان الدين إبراهيم في كتابه «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لسيدي إبراهيم التازي، عندما ترجم له ترجمة أشرت إلى جزء منها في موضوع تحت عنوان «ذكر الله مرهم كل جرح».

ومن تلك الأبيات قوله:

صاح من رزق التقى وقلا الدنا

نال الكرامة والسعادة والغنى



فاصرف هوى دنياك واصرم حبلها
دار البلايا والرزايا والعنا
ووِدادها رأس الخطايا كلها
ملعونة طوبى لمن عنها انثنى
لا تغترر بغرورها فمتاعها
عرض معد للزوال وللفنا
لعب ولهو زينة وتفاخر
لا تخدعنك جناها مر الجنى
خداعة غدارة نكارة
ما بلّغت لخليلها قط المنى
اليوم عندك جاهها وحطامها
وغداً تراه بكف غيرك مقتنى
فاقبل نصيحة مخلص واعمل بها
يدنيك من رضوان ربك ذي الغنى

○○○○○

بعض الشعراء يضرب في كل شيء بسهم

من الشعراء من تمكنه حذاقته ونباهته من القدرة على تصوير الحالات التي لا يمارسها أصحابها إلا بالخفية لدناءتها ورذالتها، وهؤلاء الشعراء هم الذين نراهم دائماً يتصيدون أرباب الفواحش والخسائس والدناءات الذين يعيثون فساداً بأسلوب قد تخصصوا في تحويره وكيفية إلقائه، تخصصاً يتخذون منه بادئ ذي بدء الظهور أمام فريستهم من الناس بالمظهر الذي لايدل على فسادهم حتى يأمنهم الناس ويأنسوا بهم أنساً يجعلهم يصغون لأحاديثهم، فإذا ما تحقق لهم ذلك وامتزج فسادهم بصلاح غيرهم أخذوا في تلوين ما يقدمونه من أحاديث أو حكايات بألوان تحقق لهم استمالة من كانوا يستهدفونه، فيأخذون في جره بخيط مسموم إلى بؤرة فسادهم.

وتصوير حال أولئك الفسدة وتمثيل أساليبهم أمر يجب عرضه من كل ذي فكر سليم ومستقيم، كما يجب أن لا يتأفف منه أصحاب الأقلام، بل يجب عليهم أن يحذروا من خداع أولئك السفلة الفسدة الذين يفسدون على الناس أخلاقهم، ويقتلون فيهم كل شهامة وكرامة وأنفة.

وحتى لا يقع أولئك الذين يحملون الناس على حسن النية فإنه يجب تحذيرهم كيلا ينتهي بهم التعامل مع الفسدة إلى أمر لا تحمد عقباه.

ومن الشعراء الذين وصفوا أساليب الفسدة وكيفية محاولتهم في الوصول إلى فريستهم، الشاعر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي حيث صور نشاط قوادة في قصيدة له منها قوله:

قــوادة تــفــخــر بــالــعــار
أقْــوَدُ مــن لــيــل عــلــى ســار

وَلّاجــة فــي كــل دارٍ ومــا
يــدري بــهــا مــن حــذقــهــا داري

ظــريــفــة مــقــبــولــة الــمــلــتــقــى
خــفــيــفــة الــوطء عــلــى الــجــار

لــحــافُــهــا لا يــنــطــوي دائــمــاً
أقــلــق مــن رايــة بــيــطــار

قــد ربــيــتْ مــذ عــرفــتْ نــفــعــهــا
مــا بــيــن فــتــك وشُــطــار

جــاهــلــة حــيــث ثــوى مــســجــد
عــارفــة حــانــة خــمــار

بــسّــامــة مــكــثــرة بــرّهــا
ذاتُ فــكــاهــات وأخــبــار

ومنها قوله:

تــكــاد مــن لــطــف أحــاديــثــهــا
تــجــمــع بــيــن الــمــاء والــنــار

ooooo

الشعور عند افتقاد البصر

أن يولد الإنسان أعمى فذاك ما هو أهون عليه حينما تصل به السن إلى إدراك الأشياء التي يدخل بفهمه لها دائرة الثقافة والمعرفة لأنه يكون قد اعتاد، بل اعتمد على السماع في حفظ جميع المعلومات التي تطرق أذنه، أما أن يصاب بالعمى أو بالعمش بعد أن رأى الأشياء وفند الألوان واستمتع برؤية تمايل الأزهار، وتسامع السنابل وتشابك البراعم وتنقل الأطيار من ذؤابة إلى أخرى، وتلاحق قطع الغيم في قبة السماء وانعكاس المياه على ضوء القمر، وتلألئ النجوم في صفحة السماء، وغير ذلك من المناظر الطبيعية التي أودع الله فيها الجمال فصارت هدفاً يُسَرِّحَ فيها كل مبصر نظره، فذاك ما يؤلم نفسه، ويرهق شعوره، ويمرض إحساسه.

والشاعرة الدكتورة إخلاص فخري عمارة واحدة من الذين حرموا مما كانوا يستمتعون به من لذة النظر، فتألمت كثيراً بما منيتْ به من قصور البصر، فأودعت شعورها بما ألمّ بها في قصيدة طويلة بلغت تسعة وخمسين بيتاً، جاءت فيها بتعبير صادق، صور شعور وإحساس المرء بما يعانيه من جراء افتقاده لبصره الذي كان من أهم وسائل حياته وأساسيات تحركاته.

تقول الشاعرة إخلاص من قصيدتها التي وسمتها بـ«قصة الأحزان» والمدرجة ضمن قصائد ديوان شعرها «الطائر المهاجر»: بعد أن سمعت من الطبيب تقريراً عن قصر بصرها:

سمعت من الطبيب قرار حكم
أكاد لهوله أعيا بأمري



وبعده بأبيات استعرضت فيها مشاعرها وأحزانها على فقد بصرها.. تقول:

ويا ويلي غداة نفاذ حكمي
وعجزي أن أرى نفعي وضري
أمدّ الكف لكي أطهو طعامي
فأقلب دون قصد ما بقدري
وقد أحتاج للشيء القريب
أظل عليه في كرٍّ وفرّ
وألبث بانتظار العون دهراً
كما لو كان يبعد ألف متر
ولو أني ملكت بصيص ضوء
مددت الكف أمسكه بيسر
وأجمد في مكاني لست أخطو
وأخشى عثرةً في كل شبر
وأحذر مرة من بعد أخرى
كأني قد هممت بخوض بحر

والقصيدة كما أسلفت.. طويلة وكلها على هذه الوتيرة.

○ ○ ○ ○ ○

عروة بن الورد يندم على طلاق سلمى

أصاب عروة بن الورد امرأة من بني كنانة بكراً يقال لها سلمى وتكنى أم وهب، فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه وهي تقول له: لو حججت بي فأمرّ على أهلي وأراهم؟ فحج بها فأتى مكة ثم أتى المدينة.

وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير، فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم، وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم وهو عندهم فقالت لهم سلمى: إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب، صحيحته، سبية، وافتدوني منه، فإنه لا يرى أن أفارقه، ولا أختار عليه أحداً، فأتوه وسقوه الشراب.

فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة، وإن علينا سبة أن تكون سبيَّة، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا فإننا ننكحك، فقال لهم: ذاك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخيروها، فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها، قالوا: ذاك لك، قال دعوني الليلة وأفادي بها غداً، فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها، فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة، وشهد بذلك جماعة ممن حضر، فلم يقدر على الامتناع وفادها، فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها، ثم أقبلت عليه فقالت: يا عروة: أما إنني أقول فيك وإن فارقتك الحق، والله ما أعلم امرأة من

العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفاً وأقل فحشاً وأجود يداً وأحمى للحقيقة.. وما مر عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا إلّا سمعته ووالله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم، فما كان عروة بعد هذا التصرف الذي ندم عليه إلّا أن قال قصيدة، منها قوله:

سقى سلمى، وأين ديار سلمى
إذا حلت مجاورة السرير

إذا حلتْ بأرض بني علي
وأهلي بين زامرةٍ وكير

ذكرت منازلاً من أم وهب
محلَّ الحي أسفل ذي النقير

وأحدثُ معهد من أم وهب
معرَّسنا بدار بني النضير

وقالوا: ما تشاء؟ فقلتُ ألهو
إلى الإصباح أثر ذي أثير

بأنسة الحديث رُضاب فيها
بعيد النوم كالعنب العصير

سقوني النسئ ثم تكنفوني
عُداة الله من كذب وزور

وقالوا لست بعد فداء سلمى
بمغن، ما لديك ولا فقير

○○○○○

أبو الأسود الدؤلي يناظر زوجته في قضية طلاقها

طلق العالم اللغوي وواضع علم النحو أبو الأسود الدؤلي زوجته، وبينما هو ذات يوم عند معاوية وعنده أشراف الناس ووجهاء القوم إذ أقبلت امرأته، ثم ألقت السلام على معاوية وأخذت تتكلم بكلام عجب له الحاضرون وعرفه معاوية، إلّا أنه أراد أن يقيم بينهما وبين أبي الأسود مناظرة، فقال لأبي الأسود: ما تقول هذه الأمة؟ فقال أبو الأسود: أمّا ما تذكر من طلاقها فهو حق وما طلقتها عن ريبة ظهرت، ولا في هفوة حضرت، ولكني كرهت شمائلها فقطعتُ عني حبائلها، ولم يكتف معاوية بذلك بل طلب من أبي الأسود إيضاحاً أكثر مما ذكره.

فقال: إنها كثيرة الصخب، دائمة الذَّرب، مهينة والأهل، مؤذية البعل، مسيئة إلى الجار، إن رأت خيراً كتمته، وإن رأت شراً أذاعته، ثم طلب من المرأة أن تجيبه، فقالت يا أمير المؤمنين: هو ما علمته سؤول جهول مُلحّ بخيل، إن قال فشر قائل، وإن سكت فذو دغائل، ليث حيث يأمن، ثعلب حين يخاف، شحيح حين يضاف، ضيفه جائع، وجاره ضائع، لا يحفظ جاراً ولا يحمى ولا يدرك ثأراً، أكرم الناس عليه من أهانه، وأهونهم عليه من أكرمه، وعن أحقية أيهما بالابن، قال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، أنا أحق بابني منها، حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا الأب وإليَّ ينسب، فكان ردها على ذلك، يا أمير المؤمنين! حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً، ولم أحمله في غبر، ولم أرضعه غيلاً، فبطني له وعاء وحجري له وقاء، وقد رأى أبو الأسود أن هذا الجدل لا يحسمه إلا الشعر فقال:

مرحباً بالتي تجور علينا

ثم سهلاً بالحامل المحمول

أغلقت بابها علي وقالت

إن خير النساء لذات البعول

شغلت نفسها عليّ فراغاً

هل سمعتم بالفارغ المشغول

فاندفعت المرأة تجيبه شعراً من نفس البحر والروي إذ قالت:

ليس من قال بالصواب وبالحـ

ـق كمن حاد عن منار السبيل

كان ثدي سقاه حين يضحى

ثم حجري وقاءه بالأصيل

لست أبغى بواحدي يا ابن حرب

بدلاً ما علمته والخليل

فحاول معاوية أن يضمن حكمه في أبيات من نفس البحر والروي فقال:

ليس من قد غذاه حيناً صغيراً

ثم سقّاه ثديه بجدول

هي أولى به وأقرب رُحما

من أبيه وفي قضاء الرسول

ولما سمعت المرأة ذلك قامت وحملت ابنها ومضت به.

○○○○○

حسان بن ثابت يندم على طلاق زوجته عمرة

كان حسان بن ثابت رحمه الله قد تزوج امرأة من الأنصار من الأوس يقال لها عمرة - أو عميرة - بنت صامت بن خالد بن عطية من حوط بن حبيب بن عمرو بن عوف، وكان كل واحد منهما يحب صاحبه حباً شديداً، وقد قيل أن الأوس أجاروا مُخلّد بن صامت الساعدي، فتكلم حسان في أمره بكلام أغضب عمرة، فعيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس، وكان حسان يحب أخواله ويغضب لهم فطلقها، فأصابها من ذلك شدة وندم كما أصابه ذلك فقال معبراً عن ندمه وذاكراً القصة التي سببت طلاقه عمرة يقول:

أجمعتْ عمرة صَرماً فابتكر
إنما يدهنْ للقلب الحصر

لا يكن حبُّك حباً طاهراً
ليس هذا منك يا عمر بسر

سألتْ حسان أخواله
إنما يسئل بالشيء الغمر

قلت أخوالي بنو كعب إذا
أسلم الأبطال عورات الدُّبر

رب خال لي لو أبصرته
سَبِطَ الكفين في اليوم الخصر

عند هذا الباب إذ ساكنه
كل وجهٍ حسن النُّقْبَةِ حُر

يــوقــد الــنــار إذا مــا أطــفــئــت

يُــعــمِــل الــقــدر بــأثــبــاج الــجــزر

مــن يــغــرُّ الــدهــر أو يــأمــنــه

مــن قَــبــيــل بَــعْــدَ عَــمْــرٍ وحُــجُــر

والقصيدة طويلة وهي موجودة في ديوان حسان وكلها فخر وافتحار بأخواله.

○ ○ ○ ○ ○

أول من اختتن

يقول الدكتور عبد السلام السكري في كتابه «ختان الذكر وخفاض الأنثى من منظور إسلامي»، أنه من الصعوبة بمكان أن نستطيع تحديد بداية الختان، ومن الذي قام به من هذه البداية، لكن الثابت أن عادة الختان كانت ولا تزال ظاهرة إنسانية اشتركت فيها غالبية الأمم بما فيه ذلك القبائل التي تعيش في السهول والوديان في أرجاء شتى من الدنيا فما من أمة إلا وكانت فيها هذه العادة.

ويقول الدكتور السكري، وإذا نظرنا إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وقد كان نبياً مرسلاً فإننا نجد من يقول: الختان كان منذ عهده، وكان سنة له ولأولاده.

ونحن لا نستبعد أن يكون الختان بدأ مع بداية آدم عليه السلام لا بوصفه أباً للبشرية، وإنما بوصفه نبياً مرسلاً، ذلك أن الختان من الفطرة وهي السنة القديمة، التي اتفقت عليها الشرائع وهي سنة الأنبياء.

ومن ترك الختان كان آثماً مرتكباً لمعصية، واقعاً في الوزر والحرام، وفيه يتميز المؤمن عن الكافر.

وفيما روى القرطبي وغيرهم بسندهم إلى سعيد بن المسيب أن إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد وأول من قلّم الأظفار، وأول من قص الشارب وأول من شاب، ونقل القرطبي أيضاً الإجماع على أن إبراهيم أول من اختتن، أما السن الذي اختتن فيه إبراهيم فقد وقع خلاف بين المفسرين فيها، فمنهم من يقول: اختتن وهو ابن مائة وعشرين سنة، وأنه عاش بعد ذلك ثمانين،



وهذا ما جاء في الموطأ موقوفاً، وفي صحيح مسلم وغيره أنه اختتن وهو ابن ثمانين وعاش بعدها أربعين سنة، ولأهمية الختان نرى الشعراء ينتهزونه فرصة فيهنئون به آباء المختونين، فهذا ابن معتوق يغتنم فرصة ختان سبطي علي خان ولدي السيد الأوي سنة ١٠٧٩هـ فيصنع قصيدة طويلة.. منها قوله:

هُنّيت بالأفراح يا أسد الشرى
بختان سبط أكرم الأشبال

سبط تشرّف في أبيه وجده
ونجابة الأعمام والأخوال

بالمهد قد أتى الكمال وإنما
غلبت عليه عادة الأطفال

نور أتى من نيرين كلاهما
منك استفادا أي نور جلال

سَعْدَاهُما اقترنا معاً فتثلثا
بجبين أي فتى سعيد الفال

يجري الصبا في عوده فتظنه
نصلاً ترقرق فيه ماء صقال

ويلوح نور المجد وهو بمهده
فيه فتحسبه شعاع ذبال

فعساك تختن بعده أولاده
في أحسن الأوقات والأعمال

○○○○○

الختان في اللغة والشرع

ما من موضوع يرى الإنسان المعاصر ضرورة فصله وتوحيده في مؤلف مستقل به ليسهل الرجوع إليه والبحث فيه إلّا وجد الأدباء والعلماء المتقدمين قد بادروا إليه وألفوه في سفر مختص به، والختان واحد من تلك الموضوعات التي يضطر بعض الكتاب إلى البحث عنه لمعرفة نشأته ومشروعيته ومعناه وما قيل فيه.

وحينما أردت تضمين مؤلفي هذا بشيء عن الختان اتجهت للبحث عما يمكن الاستعانة به فوجدت في كتب التراث الأدبي مطلبي بل وجدت موضوعات مستقلة بالختان ـ ككتاب: «ختان الذكر وخفاض الأنثى من منظور إسلامي» للدكتور عبد السلام السكري ـ وفيه نقولات وآراء وتفسيرات كثيرة حول موضوع الختان، ما أورده عن معنى الختان لدى علماء الشريعة الذي عرفوه بقولهم: هو قطع جميع الجلدة التي تغطي الحشفة من الرجل، بحيث تنكشف الحشفة كلها، أما ختان المرأة فهو قطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى الفرج، وهو المعروف بالخفض، وفي هذه التّسمية إشارة إلى الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن تتم على أساسها عملية خفاض الإناث، والمراد بذلك قطع جزء يسير من المرأة دون أن يحف الخافض أو الخافضة على أنوثتها، وقد عرف علماء اللغة الختان بأنه من باب ختن الغلام والجارية يختنهما، والاسم الختان والختانة، وقيل الختن للرجال، والخفض للنساء، ويقال لصناعة الخاتن ـ ختانة ـ فالختن فعل الخاتن، والختان موضع القطع من الذكر، وموضع القطع من نواة الأنثى، كما يقال لختان الرجل إعذار، ولختان الأنثى خفض، وقالوا: وللختن معنى آخر غير هذا المعنى، حيث كانت

العرب يسمون زوج الابنة - ختن - كما جاء عن علي رضي الله عنه أنه ختن رسول الله ﷺ أي زوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

قال ابن معتوق واسمه شهاب الدين الموسوي مهنئاً السيد منصور بختان ولده راشد:

لقد غُبط العلا بختان شبل
أبوه أنت يا ليث النزال

شقيق الرشد تسْميَةً وفألاً
سليل المجد خير أبٍ وآل

نشا فنشا لنا منه سرور
يكاد يهزُّ أعطاف الجبال

وحَمْحَمَتِ الجياد مهللات
وصال مكبراً يوم القتال

وقرّتْ أعين البيض المواضي
ومسْنَ معاطف السمر الطوال

هو الولد الذي بأبيه نالتْ
خلودَ الأمن أفئدة الرجال

فدام ودمت ما اكتسبت ضياءً
نجومُ الليل من شمس النوال

ولا زالت لك الأيام تدعو
ولا برحت تُهنيك الليالي

○○○○○

فوائد الختان

والختان أمر من أمور السنة وهو إجراء شرعي شرع منذ عهد آدم عليه السلام، وقيل من عهد إبراهيم عليه السلام، وقد ذكرت هذا الخلاف في موضوع تقدم تحت عنوان «أول من اختتن»، وعليه فإن الشريعة لا تأتي، ولا تأمر إلّا بما فيه مصلحة للإنسان في دينه ودنياه.

واستعراض فائدة الختان بالنسبة للإنسان، قد كفاني مشقة البحث عن الشواهد لها، الدكتور عبد السلام السكري الذي ضمن كتاب «ختان الذكر وخفاض الأنثى من منظور إسلامي» ما فيه الكفاية، فتحت عنوان، أسباب الختان لدى الأمم المختلفة، قال:

كانت هناك اعتبارات معينة تجعل الناس على مر الزمان يختنون أولادهم، فقد كانت بعض القبائل ترى أن الختان علامة مميزة لأبنائها عن غيرهم، وكان لهذا أثر في أيام الغزوات، حيث كان المسلمون يختتنون، أما المشركون فلم يكونوا على هذا النحو من الاختتان، وبذلك تميز المسلمون في غزوة حنين التي كانت بين المسلمين والمشركين في زمكن النبي ﷺ حيث لم يكن نصارى العرب مختتنين، وترجع أسباب الختان في هذه الأعصر إلى أنواع منها:

١ ـ القربان حيث كان الختان نوعاً من أنواع القرب الذي يقدمه الإنسان لربه تعالى.

٢ ـ الختان للصحة وهذا عين ما مارسه القدامى من المصريين وغيرهم لهذا الغرض.

٣ ـ الختان لإطالة اللذة الجنسية حتى يستطيع كل من الزوجين أن يستمتع بالآخر على وجه الكمال.



٤ ـ الختان للتمييز بين الطوائف، كاختتان الكهنة في مصر في قديم الزمان.

٥ ـ الختان للطهارة من الأوساخ، وهذا كان ولا يزال لدى المجتمعات المسلمة، فالمسلمون يطلقون على عملية الختان اسم الطهارة.

٦ ـ الختان للزواج، حيث أن بعض الشعوب تمنع الزواج من شخص غير مختون، بل إنهم يفرقون بين الزوجين إذا لم يكن الزوج مختوناً وفقاً لبعض المذاهب الإسلامية.

وقال ابن معتوق قصيدة امتدح بها السيد بركة وهنأه فيها بختن سبطيه ولدى السيد حسن، وذلك سنة ١٠٨٢هـ منها قوله:

مولاي لا برحتْ تُهنّيكَ الورى
ولك الإلٰه بما تريد يوفِّق

بختان سبطك أحمد وشقيقه الـ
ـمحمود فاض على البرية رونق

والورق تصدح بهجةً وتطرّباً
والدوح في ورق الغصون يصفق

سبطين كالسمطين في جيد الملا
كل مناط فوقه ومعلّق

للمجد كالفرطين لا بل مَرْفعُ الـ
ـعينين أمسى فيهما يتحدق

قَبَسَيْن من نورين مشتقين كما
لنسْرين بين سناهما لا يفرق

كالفرقدين تلابسا فكلاهما
أسنى من القمر المنير وأوفق

دُرّين من بحرين كل منهما
لُجّ يتيه بخوضه المتعمق

الختان، من الكلمات التي ابتُلِيَ بها نبي الله إبراهيم

قال تعالى في سورة البقرة آية ١٢٤: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، ولقد اختلف المفسرون في المعنى المراد بهذه الكلمات التي ابتُلِيَ بها إبراهيم، فمنهم من قال أنه ابتليَ بسبعة أشياء: بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان في الكبر، والنار وذبح الولد، والهجرة إلى الشام.

أما القرطبي فقد ذكر ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن ابن عباس أن الله تعالى قد ابتلاه بالطهارة، وهي خمس في الرأس، وخمس في الجسد، فأما اللاتي في الرأس فهي، قص الشارب، والمضمضة، والاستشناق، والسواك، وفرق الشعر، وأما اللاتي في الجسد فهي: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء.

قال الدكتور عبد السلام السكري: وبناءً على هذه الأقوال يكون الختان قد بدأ منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وأن خصال الفطرة وإن جاز أن تكون منذ عهد آدم إلا أنه ربما أن الختان لم يرد فيها وأنها كملت به في عهد إبراهيم عليه السلام، فكان إبراهيم أول من مارس عملية الختان على هذا الاحتمال.

وروي عن الرازي قوله: إن هذه الخصال قد ثبتت من سنة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهي تقتضي أن التنظيف ونفي الأقذار



والأوساخ عن الأبدان والثياب مأمورٌ بها، وهي لا شك مستحسنة في العقول مستحبة في الأخلاق والعادات وقد أكدها التوقيف من رسول الله ﷺ.

وحول الشعر المتعلق بموضوع الختان نجد ابن معتوق وهو أكثر الشعراء ذكراً للختان يهنئ السيد محسن بختن ولده سنة ١٠٧٩هـ بقصيدة طويلة مطلعها.

أمن البروج تُعدّ أكناف الحمى
فلقد حوت منه الملاعب أنجما

ومنها قوله:

هنّيت بالولد السعيد وختنه
ورعاه خالقه الحفيظ وسلما

ولد تصوّر يوم مولده الندى
والمجد عاد إلى الشبيبة بعدما

حَمَلَتْهُ من قمر الدّجى شمس الضحى
نالتْ به نجلا تخيّله هُما

طهّرته بالختن وهو مطهّر
قبل الختان تشرّعاً وتكرُّماً

أنّى يُطهّر بالختان صبيكم
أو تنجسون وأنتم ماء السما

شهدت لكم آي الكتاب بأنكم
منذ الولادة طاهرون وقبل ما

أنتم بنو المختار أشرف عترةٍ
فعليكم صلى الإله وسلما

○○○○○

كيف اختتن إبراهيم عليه السلام

ذكرت في موضوع سابق، عنوانه «أول من اختتن» أن هناك خلافاً في تحقيق أول من اختتن، أهو آدم أم إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأشرت إلى أن بعض الأقوال تميل إلى أن إبراهيم أول من اختتن كما أشرت إلى الخلاف الذي وقع في تحديد سنّه يوم اختتن، في هذا الموضوع سألقي الضوء على كيفية اختتانه عليه السلام.

ذكر الحافظ ابن حجر عن أبي يعلى من طريق علي بن رباح قال: أمر إبراهيم عليه السلام بالختان فاختتن بقدوم فاشتدّ عليه، فأوحى الله إليه أن عجلت قبل أن نأمرك بآلته، فقال يا رب كرهت أن أؤخر أمرك، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم النبي عليه السلام، وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»، قال الشارح: رواة مسلم متفقون على تخفيف القدوم، ووقع في روايات البخاري الخلاف في تخفيفه وتشديده، قالوا: وآلة البخار يقال لها قدوم بالتخفيف لا غير، وأما القدوم مكان بالشام ففيه التخفيف والتشديد، فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ورواية التخفيف تحتمل القرية والآلة، والأكثرون على التخفيف، وعلى إرادة الآلة.

أما حكم الختان فهو سنة، فعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء»، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أسلم فليختتن وإن كان كبيراً».

ومما تقدم يتضح أن إبراهيم عليه السلام هو الذي ختن نفسه، لأن كلمة «اختتن» تفيد أنه هو الذي قام بالاختتان، ونص الحديث



واضح أنه فعل ذلك بالقدوم، وأن القدوم هي آلة النجارة وليست القرية التي بالشام، وأنه ربما كان اختتانه فيها.

ومما جاء في الختان من شعر قول ابن معتوق من قصيدة يهنئ فيها السيد عبد الله بن السيد علي خان بختن ولده السيد نصر الله سنة ١٠٨٥:

يا من يصول على الزمان ببأسه
ويجيب عند الحادثات ندائي

بختان نصر الله قرت أعين الدّنـ
يا وسرّت مهجة العلياء

والوقت راق ورقّ حتى صفّقت
ورق الغصون على غنا الورقاء

فتهنّ بالولد السعيد وختنه
وارشف هنيئاً شهدة السّراء

ولد به ما فيك من شرف ومن
فخر ومن بأس ومن أسطاء

في بيتك المعمور منذ ولادته
نشأ السرور به وكلُّ هناء

نجم أتى من نيرين كلاهما
وهباه أي سعادةٍ وضياء

خلع القماط ففاز في خلع العلى
وسعى فأدرك غاية العقلاء

○ ○ ○ ○ ○



الفرع منسوب إلى أصله

فعل امرئ دلّ على عقله
والفرع منسوب إلى أصله

هذا بيت من جملة أبيات نسبها صاحب كتاب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» برهان الدين إبراهيم، أقول نسبها إلى أحمد بن عبد الله بن عميرة المتوفى سنة ثمان وخمسين وستمئة للهجرة وقال عنه برهان الدين إنه صاحب مؤلفات، وأن له تعليقات على مؤلفات غيره، وأنه قد مال إلى الأدب وبرع فيه، وله نظم كثير، والحقيقة أن الأبيات التي ذكرها برهان الدين والتي سأوردها هنا إن شاء الله تعد من جيد الشعر وحسنه، إذ فيها تفنيدات أدبية مطعمة بأسلوب كله حكمة وبراعة منطق يطرب لها القارئ، ويقف أمامها وقفة المتأمل فيما تضمنته من واقع، وما حققته من معنى اجتماعي لا يلمسه إلّا من قد وعى اختلاف طبائع الناس وتنوع مشاربهم، وائتلاف تجانسهم، وتوافق أعمالهم وأفعالهم لمستويات عقولهم، ومداركهم.

كما أشار ابن عميرة إلى حقيقة ثابتة هي: أن طبع المرء لا بد وأن يظهر في فعله، وأن يعرف من خلال تصرفاته، يقول ابن عميرة بعد البيت المتقدم:

إن الذي يكرم في جنسه
هو الذي يكرم في فصله

والمرء لا يشكر عن بغيه
وإنما يشكر عن عقله

والخير والشر لهذا لذا
أهل يوم الخير من أهله

لا يترحك اللازم ملزومه
والشخص لا ينفك عن ظله

وكل مقصور على شيمة
لا بدّ أن تظهر في فعله

والناس أشتات وفي الطبع ما
قد يعطف الشكل إلى شكله

ما خطو من يعدو به سابح
كخطو من يعدو على رجله

❍ ❍ ❍ ❍ ❍

جحظة يؤكد أسباب قتل البرامكة

قرأت في كتاب «التحف والهدايا» لأبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابنيْ هاشم الخالديين، أن جحظة البرمكي، واسمه أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى خالد بن برمك، وقيل أن سبب تسميته بجحظة يرجع إلى نتوء في عينه، وكان الذي سماه بجحظة ابن المعتز، وجحظة هذا كان كثير الرواية للأخبار، وقد قيل عنه أنه مليح الشعر وأنه متصرف في فنون كثيرة، أما وفاته فكانت في أواسط سنة ٣٢٤ للهجرة، قال: وأعني بذلك جحظة: كان أوكد الأسباب في قتل عمي جعفر بن يحيى البرمكي وزوال النعمة عن أهله أبياتاً عملها بعض الشعراء لما بنى داره «بباب الشماسية» وألقاها في القصص، فوقعت في يد الرشيد وقد جلس للمظالم، فلما قرأها تغير وجهه، وأعاد النظر فيها مرات ثم ختمها ودفعها إلى بعض خدمه، وأمره بحفظها، فكان يدعو بها في كل يوم، وينظر فيها ويعيد ختمها، ويدفعها إلى الخادم إلى أن أوقع بالبرامكة، ثم أظهروا ما فيها من شعر يصور بطر يحيى البرمكي ومضاهاته بداره تلك لدار الخليفة هارون الرشيد، وفيها لفت نظر لهارون الرشيد إلى غطرسة جعفر بن يحيى ونواياه التي تستهدف الخلافة، من ذلك الشعر قول قائله:

قل لأمين الله في خلقه
من إليه الحل والعقد

هذا ابن يحيى جعفر قد غدا
مثلك ما بينكما حد



أمـــرك مـــردود إلـــى أمـــره
وأمـــره لـــيـــس لـــه رد

ونـــحـــن نـــخـــشـــى أنـــه وارث
مـلـكـك إن غـيـبـك الـلـحـد

وقـد بـنـى الدار الـتـي مـا لـهـا
شـبـيـه عـلـى الأرض ولا نـد

ومنه قوله:

الـدُّرُّ والـيـاقـوت حـصـباؤهـا
وتـربـهـا الـعـنـبـر والـنـد

سـاواك فـي الـمـلـك فـأبـوابـه
آهِـلَـة يـعـمـرهـا الـوفـد

ومـا يـبـاهـي الـعـبـد أربـابـه
إلّا إذا بـطـر الـعـبـد

○○○○○

قيمة المرآة في العصور الماضية

كانت المرآة في العهد السابق فيما يبدو لي نادرة الوجود، بل ربما عدت من التحف التي لا يمتلكها إلّا الأغنياء والوجهاء والأمراء والأعيان، وقد كانت حديث الناس عامة، أما الشعراء فقد بسطوها للوصف ومثلوا وجوه الحسان بها من حيث الصفاء والنعومة.

وقد استمر ندرة وجود المرآة في أيدي عامة الناس حتى جاء عصر الثورة الصناعية فأصبحت شيئاً أقل من العادي.

والمرآة تسمى السجنجل، وهو رومي معرّب هكذا قال الزبيدي في تاج العروس ـ وقد ذكرها امرء القيس في وصف بياض من كان يتغزل فيها، فقال عجز بيت له ـ ترائبها مصقولة كالسجنجل، وصدر البيت «مهفهفة بيضاء غير مفاضة»، ومما يستدل به على قيمة المرآة وندرة وجودها أنها كانت تهدى للكبراء والوزراء وأصحاب الشأن، ذكر صاحب كتاب التحف والهدايا أن أبا النصر أسباط المصري قال: أهدى المريميّ وهو القاسم بن يحيى بن معاوية الذي كان مختصاً بخدمة خمارويه إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون في يوم عيد مرآة، وكتب معها أبياتاً منها قوله:

ولما أتى عيد عليك مبارك
تُقابل فيه طالع السعد لا النحس

ولم أرض مدحي وحده لك تحفة
وإن كان وشياً لا يدنس باللبس



بعثت بأخت البدر والشمس والتي
رأيت لها فضلاً على البدر والشمس

بأحسن مرآة لأحسن طلعة
غدت طينة للمجد في صورة الإنسي

وقوله:

بحيرة نور موجها متدافع
وليس لها غير التألق من حس

لها نور إفرند ورونق جوهر
يكدّره أدنى التنفس واللمس

وقوله:

أتتك مُحلّاة تُزَفُّ كأنها
عروس توافي بعلها ليلة العرس

ولم أهدها إلّا ونفسي تحبها
ولكن نفسي آثرتك على نفسي

○○○○○

النجفي يحذر شعراء عصره

أنشأ الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي قصيدة جعل عنوانها «أوراق الشعر» وقد اتسمت جميع أبياتها بطابع النقد الموجه لشعراء عصره كما ضمنها شيئاً من الازدراء حيث لم يرض عن أساليبهم الشعرية، بل اتهمهم بالجمود وعدم مواكبة التطور الحضاري الذي يجب أن يقرأ في أشعارهم حتى يستدل منها على جميع النشاطات التي سادت في عصرهم، ويكونون بذلك مرآة زمانهم.

ويشير إشارة خفيفة إلى أن معنى الشعر لا يكمن في ما تسطر عليه الأبيات من مصقول الورق وإنما روح الشعر وعنصره الحقيقي، هو ما يبثه الشاعر بالمعنى الصحيح ولو على ورق أصفر بالي، وكأنما هو بذلك يشير إلى أصالة الشعر القديم الذي تحتويه الكتب الصفراء، أو أنه يشير إلى أن جمال الورق لا يكمل نقص الشعر ولا يقوي رديئه أو يُحسّن قبيحه:

أهـيّـي أوراقـاً لـشـعـري أنـيـقـةً
فـيـهـرب مـني الـشـعـر مـزدريـاً أمـري

وآتـيـه بـالأوراق صـفـراً عـلـيـلـة
فـيـأوي لـهـا جـذلان يـطـفـح بـالـبـشـر

فـشـعـري كـروحـي فـائـق في تـواضـع
يـمـيـل إلى كـوخ ويـنـأى عـن الـقـصـر

يـشـاهـد في الـطـرس الأنـيـق تـصـنّـعـاً
فـيـشـعـر في ذاك الـتـصـنّـع بـالأسـر



والنجفي وإن كان يتحدث عن نفسه في تلك الأبيات إلّا أنه كما يقول المثل «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، ثم يشير في نفس القصيدة إلى عدم التجديد في الشعر فيأتي بصريح العبارة في النقد الازدرائي الموجه إلى شعراء عصره، بقوله:

بنوا شعرهم بيتاً على بيت آخر
فلاحت لنا الأشعار قبراً على قبر

ثم راح يكيل لنفسه المديح ويفتخر بأنه قد واكب العصر بشعره وشعوره، وأنه قد طوّع القوافي فنطقت بكل ما هو جديد في عصره، والحقيقة أن الذي يستعرض أشعار النجفي يلمس فيها الجمع بين أسلوب العصر المستوعب لما فيه من نشاطات، وبين المحافظة على سلامة اللغة.

ولست بنظام لدرّ أصوغه
ولكنني أرنو لمنتظم الدر

فأنقله خمراً لروح ومسمع
تخالف خمر الناس في طعمه السكر

بدنٍّ من الإخلاص خمرت شهدها
فدع لابن هاني خمرة الدن والعصر

○ ○ ○ ○ ○



ديك الجن يندم على قتل زوجته ورد

أحب ديك الجن، واسمه أبو محمد عبد السلام بن رغبان الحمصي فتاة نصرانية جميلة تدعى ورد ـ أو دنيا ـ بنت الناعمة، ثم دعاها إلى الإسلام فلبت نداءه وأسلمت على يده لعلمها برغبته فيها فتزوجها، وكان ديك الجن قد أعسر فرحل قاصداً أحمد بن علي الهاشمي، وأقام عنده مدة طويلة، ثم إن ابن عمه أبا الطيب أبغضه بعد مودته له وإشفاقه عليه بسبب هجائه له، وحمله بغضه على أن أذاع على ـ ورد بنت الناعمة ـ أنها تهوى غلاماً له وقرر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه وشاع ذلك الخبر حتى أتى ديك الجن فرجع إلى حمص.

ولما علم ابن عمه أبو الطيب برجوعه قرر الفرار لكنه أرصد له قوماً يعلمونه بموافاته باب حمص، فلما وافاه خرج إليه مستقبلاً ومعنفاً على تمسكه بهذه المرأة بعدما شاع ذكرها بالفساد، وأشار عليه بطلاقها وأعلمه أنها قد أحدثت فيه مغيبه حادثة لا يجمل به معها المقام عليها، ودسّ الرجل الذي رماها به وقال له: إذا قدم ديك الجن ودخل منزله فقف على بابه كأنك لم تعلم بقدومه وناد باسم ـ ورد ـ فإذا قالت: من أنت؟ فقل: أنا فلان.. فلما نزل ديك الجن منزله وألقى ثيابه سألها عن الخبر وأغلظ عليها فأجابته جواب من لم يعرف من القصة شيئاً.. فبينما هو كذلك إذ قرع الرجل الباب فقالت: من هذا؟ قال: أنا فلان، فقال لها ديك الجن: يا زانية، زعمت أنك لا تعرفين من الأمر شيئاً، ثم اخترط سيفه فضربها به حتى قتلها، ثم بعد حين انكشف له وجه الأمر فندم على ذلك فقال قصيدة منها هذه الأبيات:

أساكن حفرة وقرار لحد
مفارق خُلّه من بعد عهد

أجبني إن قدرت على جوابي
بحقِّ الود كيف ظللت بَعْدي

أما والله لو عاينت وجدي
إذ استعبرتُ في الظلماء وحدي

وجدَّ تنفسي وعلا زفيري
وفاضت عبرتي في صحن خدي

إذن لعلمتَ أني من قريب
ستحفر حفرتي ويشق لحدي

ويعذلني السفيه على بكائي
كأني مبتلىً بالحزن وحدي

يقول قتلتها سفهاً وجهلاً
وتبكيها بكاءً ليس يجدي

كصياد الطيور له انتحاب
عليها وهو يذبحها بحدِّ

○○○○○

الفرزدق يندم على طلاق زوجته نوار

رُويَ عن أبي شفقل راوية الفرزدق أنه قال: كنت أكتب شعراً ذات ليلة فدخلت نوار زوجة الفرزدق وقالت لي: يا أبا شفقل قد ترى ما أنا فيه من هذا الشيخ وسوء خلقه وشره، وقد أردتُ فراقه فكلمه في ذلك، فقلت لها، سميعاً «أي كلمت سميعاً»، فكلمته في ذلك فقال: لا حتى أشهد الحسن البصري، فقلت: اذهب بنا إليه، فأتيناه، فلما رآنا مقبلين قال: إيه أبا فراس: قال الفرزدق: اشهد يا أبا سعيد أني قد طلقت النوار ثلاثاً، فقال الحسن: شهدنا، ثم ندم على طلاقها فرجع وهو يقول:

ندمت ندامة الكسعي لما
غدت مني مطلقة نوار

فكانت جنتي فخرجت منها
كآدم حين لح به الضرار

وكنت كفاقئ عينيه عمداً
فأصبح ما يضيء له النهار

ولا يوفي بحب نوار عندي
ولا كلفي بها إلا انتحار

ولو رضيتْ يداي بها وقرّتْ
لكان لها على القدر الخيار

وما فارقتها شبعاً ولكن
رأيت الدهر يأخذ ما يعار

وآخر طلق زوجته ثم ندم على طلاقها وأتاه الخبر بأنها قد تزوجت من شخص آخر فزاد ندمه ندماً وحسرته حسرة وراح ينشد متمنياً أن يبشر بطلاقها ويقول:

لأن كان يُهْدِي برد أنيابها العُلا
لأفقر مني إنني لفقير

لقد كثر الإخبار أن قد تزوجت
فهل يأتيِنِّي بالطلاق بشير

ooooo

مروان بن الحكم
يفرض على أعرابي طلاق زوجته

نظر معاوية بن أبي سفيان إلى رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك في يوم شديد الحر، فقال معاوية: لم يخلق الله ممن احتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم، ثم قال: فوالله لئن كان فقيراً لأغنينَّه ولئن كان شاكياً لأنصفنّه، ولئن كان مظلوماً لأنصرنّه، ولئن كان غنياً لأفقرنّه، فلما وقف بين يديه عرّف نفسه فقال: أنا رجل أعرابي من بني عذرة، ثم قال شعراً ونثراً خلاصته أنه شكا إلى مروان بن الحكم عامل معاوية في المدينة أبا زوجته الذي حال بينه وبينها وأنكر أنه قد زوجه إياها، فدعا مروان بالجارية لسؤالها ولما حضرت وقعت منه موقع الإعجاب لجمالها فصار خصماً لزوجها وأمر به إلى السجن، ثم قال لأبيها هل لك أن تزوجها مني وأنفدك عشرة آلاف، وأنا أضمن طلاقها، فقال أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوجتها لك، فما كان من مروان إلّا أن طلب من العذري أن يطلقها، وكان اسمها سعدى، فرفض فضربه وهكذا كان يفعل به كل يوم إلى أن جاء اليوم الرابع فأحضر السيف والسياف والنطع ثم قال: يا أعرابي وجلالة ربي وكرامة والديّ لئن لم تطلق سعدى لأفرقن بين جسدك وموضع لسانك، فخشي على نفسه القتل فطلقها، ثم أمر به إلى السجن فحبس حت تمت عدتها فتزوجها فبنى بها، ثم أطلق العذري، فلما سمع معاوية القصة واستغاثة العذري به وطلبه الإنصاف من مروان فقال معاوية للعذري بعد أن استرجع، والله يا عذري لقد أتيتني بحديث ما سمعت مثله: يا غلام علي بدواة وقرطاس، فكتب إلى مروان: «أما بعد فإنه

بلغني أنك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين، وانتهكت حرمة لرجل من المسلمين، وفي نهاية الخطاب كتب أبياتاً منها:

وُلِّيت ويحك أمراً لست تحكمه
فاستغفر اللّه من فعل امرئ زاني

قد كنت عندي ذا عقل وذا أدب
مع القراطيس تمثالاً وفرقان

حتى أتانا الفتى العذري منتحباً
يشكو إلينا ببث ثم أحزان

طلق سعاد وعجلها مجهزة
مع الكميت ومع نصر بن ذبيان

ثم ختم الكتاب وأعطاه صاحبي البريد الكميت ونصر بن ذبيان، فلما قرأ مروان الكتاب، قام ودخل على سعدى وهو باك فقالت له ما الذي يبكيك؟ قال: كتاب أمير المؤمنين يأمرني فيه بطلاقك وأجهزك وأبعث بك إليه، ثم طلقها وجهزها وكتب إلى معاوية بأبيات منها:

لا تعجلن أمير المؤمنين فقد
أوفي بنذرك في رفق وإحسان

وما ركبت حراماً حين أعجبني
فكيف أُدعى باسم الخائن الزاني

أعذر فإنك لو أبصرتها لجرت
منك الأماقي على أمثال إنسان

لولا الخليفة ما طلقتها أبداً
حتى أضمن في لحد وأكفان

وعند قدومها نظر إليها معاوية فوجدها رعبوبة لا تبقي لناظرها

عقلاً من حسنها وكمالها، فقال معاوية للعذري: هل لك سلو عنها وأعوضك عنها ثلاث جوار أبكار وأخلع عليك الخلع، فرفض العذري ذلك فقال له معاوية: أنت مقر بطلاقها وقد بانت منك ومن مروان، ولكن نخيرها بيننا، ثم قال لها: يا سعدى أينا أحب إليك؟ فأشارت إلى ابن عمها العذري، فعجب معاوية لذلك وأمر لها بعشرة آلاف درهم وألحقها بصدقات المسلمين.

○ ○ ○ ○ ○

فروة علاء الدين

والفقر وقلة ما في اليد، والضوائق المالية كلها أمور تكاد تكون ملازمة لأصحاب الأقلام من الأدباء والمفكرين والشعراء.. ولعل الشعراء هم أصحاب النصيب الأوفر منها، والذي يستقرئ هذه الظاهرة يتحقق له صحة هذه المقولة إلّا ما شذ منها، والشاذ كما يقولون لا حكم له.

والبحث في سر وجود هذه الظاهرة يرجع فيما أعلم إلى عوامل نفسية لدى أولئك الفقراء من أصحاب الأقلام، تميل بهم إلى استقطاع جزء كبير من وقتهم لمزاولة مهنهم، وبالتالي لا يجدون وقتاً ينصرفون فيه إلى الكسب المادي الذي يطرد عنهم الفقر ويقيهم الفاقة.

واعترافات الأدباء والكتاب والشعراء بملازمة الفقر لهم كثيرة جداً، وأكثرها مبثوثة في مؤلفاتهم ودواوينهم.

ولعل الشعراء هم أكثر بوحاً بالفقر، وأجرأ على الإعلان عن ملازمته لهم، وهم أيضاً ألطف أسلوباً في عرض حالتهم على الناس.. إذ أكثرهم يعرض ما مني به من فقر في أسلوب فكه يجد أذناً صاغية من لدن الأسخياء وأهل الجود والكرم والبذل والعطاء، فينالون منهم بجاذبية ذلك الأسلوب الشعري الفكه ما يعينهم على مواجهة الحياة ومتطلباتها.

والشاعر علاء الدين بن مليك الحموي المتوفى سنة ٩١٧هـ واحد من أولئك الشعراء الذين يجيدون صياغة الشكوى من الفقر في أسلوب يمتزج فيه الهزل بالجد.. من ذلك ما جاء في قصيدته الطويلة التي امتدح بها قاضي القضاة ابن فرفور، والتي منها قوله:

مولاي حاشاك لقد مال بي
دهري وقد جار علي الزمانْ

والفقر بي أفضىٰ إلى بيع ما
فوقي وتحتي بالهوى والهوانْ

وبعت حتى بغلتي والكسا
وجرّت القافية الطيلسان

ولم يكن عندي سوى فروة
تعدّ سبعاً وقروناً ثمان

قد طار من طول المدى صوفها
وعاف منها كل قاص ودان

وقد وهى جسمي وقلّ القوى
وكنت من قبل قوي الجنان

وجا زاحفاً جيش فصل الشتا
محارباً بالبرد لا بالسنان

واشتد حتى أنّ من برده
لم يدف مني فيه غير اللسان

○ ○ ○ ○ ○

قيس بن ذريح يفرض عليه أبوه طلاق لبنى

قال الأصفهاني في كتابه ـ الأغاني ـ مرَّ قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر لبعض حاجة بخيام بني كعب بن خزاعة، فوقف على خيمة لبني بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماء فسقته، فلما رآها وقعت في نفسه وشرب الماء فقالت له: انزل وتبرد فنزل، وجاء أبوها فنحر له وأكرمه ثم انصرف قيس وجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورويَ ثم سأل قيس أباه أن يزوجه إياها فأبى عليه وقال يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك فاستعان بأمه على أبيه فلم يجد عندها ما يحب فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب فشكا له ما به وما رد عليه أبوه.

فقال الحسين: أنا أكفيك ذلك، ثم قام بإقناع ذريح والحباب وتم له الزواج من لبنى فألهته عن بره بأمه، وقد مرض مرضاً شديداً فلما برء من علته قالت أمه لأبيه، لقد خشيت أن يموت قيس وما ترك خلفاً وقد حرم الولد من هذه المرأة، ويصير مالك إلى الكلالة، فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه بولد، فطلب منه أبوه أن يتزوج غيرها أو ينسرَّ بالإماء فرفض ذلك وقال: لا أسوءها بشيء أبداً.

فقال أبوه: إني أقسم إلا طلقتها، فأبى وقال الموت والله علي أسهل من ذلك، ولكن أخيّرك في خصلة من ثلاث، قال ذريح ما هي؟ قال تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولداً غيري، قال: فما فيَّ فضلة لذلك، قال فدعني أرتحل عنك بأهلي واصنع ما كنت صانعاً لو مت في علتي هذه، قال: ولا هذه قال: فأدع لبنى عندكم وأرتحل عنكم

فلعلي أسلوها، فإني لا أحب بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالي، قال: لا أرضى أو تطلقها، وحلف لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلقها.

فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظله بردائه ويصلي هو بحر الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى، فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول يا قيس لا تطع أباك فتهلك وأهلك معك، فيقول ما كنت لأطيع فيك أحداً أبداً، إلّا أنه بإلحاح أبيه طلقها ولما علم الحسين بن علي بن أبي طالب بطلاقها قال مؤنباً لذريح: إني سمعت عمر بن الخطاب يقول: ما أبالي أفرَّقت بين الرجل وامرأته أو مشيت إليها بالسيف.

قيل: فلما بانت لبنى لم يلبث قيس حتى استطار عقله وندم، ولقد قيل أنه توجه نحوْ الطريق الذي سلكته يوم رحيلها يتنسم روائحها فسنحت له ظبية فقصدها فهربت منه فقال:

ألا يا شبيه لبنى لا تراعي
ولا تتيممي قلل القلاع

قال الأصفهاني وهي قصيدة طويلة يقول فيها:

فواكبدي عاودني وداعي
وكان فراق لبنى كالخداع

تكنفي الوشاة فأزعجوني
فيا للّه للواشي المطاع

فأصبحت الغداة ألوم نفسي
على شيء وليس بمستطاع

كمغبون يعض على يديه
تبين غبنه بعد البياع

بدار مضيعة تركتك لبنى
كذاك الحين يُهدَىٰ للمضاع

وقد عشنا نلذ العيش حينا
لو أن الدهر للإنسان داعي

ولكن الجميع إلى فراق
وأسباب الحتوف لها دواع

○○○○○

ورقة طلاق

طلق القاضي أبو البركات محمد البلفيقي زوجه بما نصه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على محمد وآل محمد، يقول عبد الله الراجي رحمة محمد المدعو بأبي البركات ابن الحاج، خار الله له ولطف به: إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة، وغرائز شتى، ففيهم السخي والبخيل والشجاع والجبان والغبي والفطن، والكيس والعاجز، والمسامح والمناقش، والمتكبر والمتواضع، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العشرة لا تستمر بينهم إلّا بأحد أمرين: إما بالاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإما بصبر أحدهما على صاحبه، إذا عدم الاشتراك، ولما علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه من عيل صبره على صاحبه، توسعة عليهم، وإحساناً منه إليهم، فلأجل العمل على هذا طلق كاتب هذا عبد الله محمد المذكور زوجه الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني ثم المغيلي، الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر، طلقة واحدة ملكت بها أمر نفسها دونه، عارفاً قدره، قصد بذلك إراحتها من عشرته، طالباً من الله أن يغني كلاً من سعته، مشهداً بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره، يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمائة.

ولعمري إن هذا لهو الأسلوب الذي يجب أن يتبع في حالات الطلاق، لا أساليب المشاحة وعبارات التنابز التي كثيراً ما يتم الطلاق بها.

والقاضي أبو البركات شاعر وناظم مجيد.. وقد كان بنّاءً وحفار آبار، وفي ذلك يقول:



فـي احـتـفـار الأسـاس والآبـار
وانـتـقـال الـتـراب والـجـيّـار
وقـعـودي بـيـن رمـل وآجـ
ـرٍ وجـص والـطـوب والأحـجـار
وامـتـهـانـي بُـرْدَيَّ بـالـطـيـن والـمـا
ءِ ورأسـي ولـحـيـتـي بـالـغـبـار
نـشـوةٌ لـم تـمـرَّ قـط عـلـى قـلـ
ـب خـلـيـع ومـا لـهـا مـن خـمـار
مـن غـريـب الـبـنـاء إنَّ بـنـيـه
مـتـعـبـون يـهـوون طـول الـنـهـار
يـبـتـغـون الـوصـال مـن صـانـعـيـه
والـبـدار إلـيـه كـلّ الـبـدار
فـإذا حـلّ فـي دارهـم تـراهـم
يـشـتـهـون مـنـه بـعـيـد الـمـزار
مـن عـذيـري مـن لائـمٍ فـي بـنـائـي
وهـو لـي الـتـرجـمـان عـن أخـبـاري

والقصيدة طويلة، وهي موجودة في الجزء الخامس من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

○ ○ ○ ○ ○

الشماخ يضرب زوجته وينكر

قال الأصبهاني في الأغاني: نقلت من كتاب محي بن حازم هذا الخبر، قال القاسم بن معن: كان الشماخ تزوج امرأة من بني سليم فأساء إليها وضربها وكسر يدها، فعرضت امرأة من قومها يقال لها أسماء ذات يوم للطريق تسأل عن صاحبتها، فاجتازت الشماخ وهي لا تعرفه فقالت له: ما فعل الخبيث الشماخ؟ فقال لها: وما تدرين منه؟ قالت: إنه فعل بصاحبة لنا كيت وكيت، فتجاهل عليها وقال: لا أعلم له خبراً ومضى وتركها، ثم دخل المدينة في بعض حوائجه فتعلقت به بنو سليم يطلبونه بظلامة صاحبتهم فأنكر، فقالوا: احلف... فجعل يطلب إليهم ويغلظ عليهم أمر اليمين وشدتها عليه ليرضوا بها منه، حتى رضوا فحلف لهم وقال:

ألا أصبحت عرسي من البيت جامحاً
بـخـيـر بـلاء أي أمـر بـدا لـهـا

على خيرة كانت أم العرس جامح
فكيف وقد سقنا إلى الحي ما لها

سترجع غضبىٰ رثة الحال عندنا
كـمـا قـطـعـت مـنـا بـلـيـل وصـالـهـا

فذكر بعد هذه الأبيات قوله: أتتني سليم قضها وقضيضها، إلى آخر الأبيات، ولم أجد الأبيات التي أشار الأصبهاني إلى آخرها، ورجعت إلى ديوان الشماخ فوجدت القصيدة بما فيها الأبيات المتقدمة باختلاف بسيط في بعض الألفاظ، ووفقاً لما شرطت (أي ثمانية أبيات

لكل حكاية) سأنقل ما يتمم الأبيات السابقة حتى تبلغ في مجموعها ثمانية من نفس القصيدة يقول:

ولـم تـدر مـا خُـلْقـي فـتـعـلـم أنـنـي
لـدى مُـسْـتَـقَـرَّ الـبـيـت أنـعـم بـالـهـا

وجـاءت سـلـيـم قـضَّـهـا بـقـضـيـضـهـا
تـمـسِّـحُ حـولـي بـالـبـقـيـع سـبـالـهـا

يقولون لي: احلف فلستُ بحالف
أخـادعُـهُـم عـنـهـا لـكـيـمـا أنـا لـهـا

ففرجت كرب النفس عني بحلفة
كـمـا شـقـت الـشـقـراءُ عـنـهـا جـلالـهـا

فقالوا: أعدها نستمع كيف قلتها
فـقـال كـثـيـرٌ: لا نـحـل عـلالـهـا

واتفق شارح الديوان وأبو فرج الأصبهاني على أن كثيراً الذي أشار إليه الشماخ هو كثير بن الصلت، وكان الخليفة عثمان بن عفان قد أقعده للنظر بين الناس.

○○○○○

مكافحة الفقر

قال أكثم بن صيفي: ما يسرني أني مكفىً كل أمر الدنيا، فقيل: وإن أسمنت وألبنت؟ قال: نعم أكره عادة العجز، وكان يقال: عيب الغنى أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يورث الفكرة، وقيل: الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة، وكان يقال: من غلى دماغه في الصيف غلت قدره في الشتاء، وهذا يعني أن الإنسان إذا ضاعف جهده في الصيف حيث الوقت يكون مناسباً للكد والعمل، وفَّر شيئاً يقتاته في الشتاء حيث البرد والمطر وقلة فرص العمل، ويقال حفظ المال أشد من جمعه، قال ﷺ: «الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة»، وقيل: التدبير نصف الكسب، وقال ﷺ: «ما عال امرؤ عن اقتصاد»، وقال سقراط: لتكن عنايتك بما اكتسبت كعنايتك باكتسابه.

روى أنس أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ وقال: أتيتك من أهل بيت لا أراني أرجع إليهم من الجوع فقال ﷺ: «أما عندك شيء؟»، قال: لا. فأعطاه درهمين وقال له: «اذهب فابتع بإحداهما طعاماً وبالآخر فأساً واحتطب وبع»، فغاب خمسة عشر يوماً ثم جاء فقال: بارك الله لي فيما أمرتني به، أصبت عشرة دراهم فابتعت لأهلي بخمسة طعاماً وبخمسة كسوة، فقال ﷺ: «هذا خير لك من المسألة، إن المسألة لا تحل إلّا لأحد ثلاثة، دم موجع، أو غرم مفظع، أو عدم مدقع».

وقال إبراهيم عليه السلام: يا رب استحييت من كثرة تصرفي في طلب الرزق، فأوحى الله إليه، ليس طلب المعيشة من طلب الدنيا.

ورويَ أنه لما أقبل النبي ﷺ من غزوة تبوك، استقبله معاذ

فصافحه، فقال كبنت يداك، فقال نعم، أحترثُ بالمسحاة وأنفقه على عيالي فقبله، وقال: لا تمسهما النار.

رويَ عن محمد بن الخطاب الكلابي أن فتى من الأعراب خطب ابنة عم له، وكان معسراً وأبى عمه أن يزوجه، فكتب إلى ابنة عمه هذه الأبيات:

يا هذه كم يكون اللوم والفند
لا تعذلي رجلاً أثوابه قَدَد

أن يمسي منفرداً فالبدر منفرد
والليث منفرد والسيف منفرد

أو كنت أنكرتِ طمريه وقد خلقا
فالبحر من فوقه الأقذار والزبد

أو كان صرف الليالي رثّ بزته
فبين ثوبيه منه ضيغم لبد

قال فدخلت بالأبيات على أبيها فقال لها: ما نريد لك صداقاً غيرها، فدعاه فزوجها إيّاه، وقال المعلوط:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى
ولكن أحاظ قسمت وجدود

فكم قد رأينا من غني مذمم
وصعلوك قوم مات وهو حميد

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً
فمطلبها كهلاً عليه شديد

ويقول آخر:

لحفظ المال خير من ضياع
وطوف في البلاد بغير زاد

الخطاط ابن مقلة

أخذت العناية بالخط العربي مكانها منذ عهد بعيد، ولا أشك في أن يكون البحث عن جمال الخط قد بدأ بصورة واضحة منذ أن أمر الحجاج أبا الأسود الدؤلي بوضع النقاط على الحروف وتشكيل الكلمة، وإن كان لا يستطيع أحد أن يقف وقفة واضحة أمام تاريخ معين لبداية تحسين الخط، فإن لموع اسم ابن مقلة كخطاط قبل أن يكون وزيراً للمقتدر العباسي يعطي دليلاً على أن الخط العربي قد أخذ فَنيّته في آخر الدولة العباسية، ولقد ضرب المثل بخط ابن مقلة، فقال الثعالبي:

خط ابن مقلة من أرعاة مقلته
ودت جوارحه لو حولت مقلا

فالبدر يصفرّ لاستحسانه صدأ
والنور يحمرّ من نواره خجلا

وابن مقلة هذا هو أبو علي بن الحسن بن مقلة الكاتب، قيل كتب يوم كان وزيراً للمقتدر كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطه، فهو عندهم إلى اليوم في كنيسة قسطنطينية يبرزونه في الأعياد، ويعلقونه في أخص بيوتهم للعبادات، يتعجبون من فرط حسنه، هكذا قال صاحب كتاب نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس، ومن عجيب خبر ابن مقلة أنه كتب المصحف ثلاث مرات، وسافر ثلاث مرات، وتوزر لثلاثة من الخلفاء هم: المقتدر، والقاهر، والراضي، ودفن بعد موته ثلاث مرات، وذلك أنه لما قطعت يده ومات في السجن دفن في دار السلطان، ثم سأل أهله بعد مدة تسليمه إليهم فنبش وسلم إليهم ودفن في دار ابنه



الحسين، ثم نبشته زوجته المعروفة بالدينارية، ودفنته في دارها بقصر أم حبيب.

وكثير ما يلجأ الشعراء في تغزلاتهم إلى التشبيه بالحروف وذلك لما يرون فيها من جمال مطابق لما يريدون وصفه.

يقول أحدهم: وأحسبه السنجاري، أبو السعادات أسعد بن يحيى بن موسى المنعوت بالبهاء السنجاري:

كتب الوقار على صحيفة خده
نوناً وأعجمها بنقطة خاله

فسواد طرته كليل صدوده
وبياض غرته كيوم وصاله

ويقول عماد الدين الدنيسري واسمه محمد بن عباس بن أحمد بن صالح.

ولقد سألت وصاله فأجابني
عنه الجمال إشارة عن قائل

في نون حاجبه وعين جفونه
مع ميم مبسمه جواب السائل

ويقول التّلّعْفَري، واسمه محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة:

منازل للصبا ما زال شملي
له فيها بمن أهوى اتصال

دموعي بعده دال وميم
على خدي له ميم ودال

○○○○○

أصالة الخط العربي

الخط العربي له هيئة خاصة به لا يشاكله فيه أي خط، كما أن الحرف العربي له انحناءات وتعرجات وانكسارات بديعة تحكمها أصول ثابتة تسهل أمر قراءته وقد تختلف في وضع الهيكل العام للحرف وفقاً لمدارس ذات قاعدة تتفق في أصولها مع الأصول الثابتة للإطار العام، وتختلف في فروعه التي تمثل في معظمها الشكل الجمالي للخط الذي لا يحول دون تهجيته وقراءته قراءة واضحة، وقد كان لتلك المدارس تلامذة ذهبوا في التفنن في رسم الحروم مذاهب عدة، منها خط النسخ، والرقعة، والديواني، والفارسي، والكوفي، وغير ذلك من أنواع الخطوط والمذاهب الخطية التي أخذ أصحابها يتسابقون في زخرفة الحروف زخرفة توجد له جاذبية وتجعله معشوقاً.

قال الدكتور صلاح الدين النجد في كتابه «أشهر الخطاطين في الإسلام»: عَرَفَ تاريخ الخط العربي أربعة من كبار الخطاطين تشاركوا في اسم واحد هو «ياقوت» وكانوا في عصر واحد، هو القرن السابع وهم: ياقوت بن عبد الله الرومي، ولقبه ـ أمين الدين ـ وتوفى سنة٦١٨هـ، والثاني: ياقوت بن عبد الله الرومي، ولقبه: ـ مهذب الدين ـ وتوفى سنة ٦٢٢هـ، والثالث: ياقوت بن عبد الله الرومي، ولقبه ـ شهاب الدين ـ وتوفى سنة ٦٢٦هـ، والرابع: ياقوت بن عبد الله المعروف بالمستعصمي نسبة إلى الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس، المقتول على يدي التتار سنة ٦٥٦هـ وهذا الأخير من اليواقيت هو الذي كان موضوع كتاب الدكتور صلاح الدين المنجد: قال عنه المنجد: لقد انتهت الرئاسة في الخط إليه وتوفى سنة ٦٩٨هـ ببغداد، وكان يلقب ـ جمال الدين ـ.

ولقد تغنّى الشعراء بجمال الخط وذهبوا في وصفه مذاهب متعددة، فشبّهوا النونات، والألفات، واللامات، والصادات وغيرها، بالعين والخد وحبة الخال والعذار، ورشاقة الجسم وغير ذلك مما له وجه شبه بالحروف، ولقد وقف الكثير منهم أمام الخط العربي الجميل وأبدى إعجابه شعراً ونثراً وغالى في تمجيد صاحبه.

ولقد قرأت لشاعر مصري معاصر هو ناصر عبد العليم نور مقطوعة شعرية في الخط العربي، منها قوله:

أوتيتَ خطاً ليتني أوتيته
ليت الأصابع بالدراهم تشترى

خط أراني لو أتِيتُ سماتُه
لعلت يداي فوق نجم المشترى

ولصرت قمراً في السماء أنيرها
ولكنت نوحاً في سفينته جرى

سيظل خطي خالداً رغم أنني
قد ضمني ثوب الفناء كما ترى

تبكي الحروف وتنتحبْ من فرقتي
لا تأسفي فبذا قضى رب الورى

ويراني قلمي ذاهباً فيشدُني
ودموعه فوق الصحائف أنهرا

ويناديني ومن المداد أرى دماً
قد صار نهراً فوق خديه جرى

ويقول لما للرحيل تأهبوا
لا تذهبنّ فبعد كفك لن أرى

الممرضة

التمريض خدمة إنسانية نبيلة، وهي من أهم الخدمات التي تقدم للمريض، والتمريض بخصائصه ومفهومه يلائم طبيعة النساء أكثر من طبيعة الرجال، وذلك لأن النساء أرق قلوباً من الرجال بطبيعة الحال، ولهن أسلوب في تقديم الخدمة التمريضية لا يستطيع الرجل التعامل به، وذلك لأنهن مطبوعات على الرقة والحنان والعطف والتلطف والرفق، وهذه الأمور وغيرها مما تسعد به نفس المريض، لا تتوفر جميعها في الرجل كتوفرها في المرأة، بالإضافة إلى أنها شرط من شروط التمريض.

ولقد أثبتت التجارب بأن المرأة في مجال التمريض أنجح من الرجل للأسباب التي ذكرتها، والتي هي في الحقيقة عامل نفسي يساعد على إدخال السرور على نفس المريض مما يرفع من معنوياته النفسية، ويساعد بالتالي على الاستجابة للعلاج، والخضوع لتعليمات الطبيب التي يطبقها تحت إشراف الممرضة.

وخدمات الممرضة وفعاليتها، بل تأثيرها على حالة المريض ليست مفهوماً حديثاً بل هي قديمة جداً، فنحن نقرأ أن النساء يكون لهن صحبة مع الجيوش المتقاتلة، حيث تلقى عليهن مهمة سقي الجرحى ومسئولية تضميد جراحاتهم، وما إلى ذلك من الخدمات التي لها شأن بحالة الجندي الجريح.

وللشاعر إبراهيم طوقان قصيدة وصف بها حمامات بيضاء، لكنه في نهاية القصيدة شبه الممرضات برقتهن وزيهن بتلك الحمامات البيضاء، فراح يصفهن ويذكر طبيعة عملهن وعطفهن ولطفهن في



أسلوب هو غاية في الإبداع، يقول بعد أن انتهى من وصف الحمام:

المحسنات إلى المريـ
ض غدون أشباهاً لهنهْ

الروض كالمستشفيا
ت دواؤها إيناسهنهْ

ما الكهرباء وطبُّها
بأجلَّ من نظراتهنهْ

يشفي العليل عَناؤهن
وعطفهن ولطفهنهْ

مُرُّ الدواء بفيك حلـ
ـو من عذوبة نطقهنهْ

مهلاً فعندي فارق
بين الحمام وبينهنهْ

فلربما انقطع الحما
ئم في الدجى عن شدوهنهْ

أما جميل المحسنا
ت ففي النهار وفي الدجنهْ

○○○○○

فقد النديم

يعانق شوق الحياة كل متصافيين تسفر أسارير الدنيا في وجهيهما كلما التقيا ولو بعد انقطاع للقائهما بسويعات..

والسعادة هي أقل ما توصف به حالة نديمين متصافيين، وصديقين متوافقين، كيف لا ونحن ندرك أن اطمئنان المنادم لنديمه وسيلة للبوح بما هو مكتوم عن سائر الناس لسبب أو لآخر.

والواقع أن نفس المنادم الحقيقي لا تتردد في المضي في أي درب طال أم قصر، طالما أنها بصحبة نديم يجعل من الوحشة أنساً، ومن اللقاء مسرة تطرد السأم والملل، أما حصر الكلام عن النديم فغير ممكن، وتحديد اتجاهه غير متيسر حيث أن ذلك لا يخضع لصفة أو حركة أو مواصفة معينة.

والنديم يطلق بصفة عامة على كل مجالس ملازم مؤانس لكنها تختلف هويته باختلاف طبيعة المجالس التي تنعقد من أجل المنادمة، فهناك منادمة لمجالس اللهو واللعب، وهناك منادمة لمجالس الأدب والعلم والبحث عن المعرفة، وهناك منادمة لمجالس الذكر والعبادة والبحث فيما يتعلق بتوطيد الصلة في جنب الله وهي من أفضل المنادمات على الإطلاق، ولما تقدم يختلف وصف المنادمة وطبيعة النديم، والشاعر له رأي كما للناثر رأي في صفة النديم وتأثير المنادم على نديمه، والتأثر بفقدانه

والشاعر خليل فواز يمضي في قصيدة طويلة مبيناً فيها ما حلّ به بسبب فقده لنديمه، منها قوله:



إذا ما فقدت نديم الحياة
تساوت لعينيَّ ألوانها
وما أنت إلا مناط الفؤاد
ونبع الحياة وشريانها
مضيت فكنت الصبا فانطوت
حياتي، وإنك ريعانها

ومنها قوله:

مضيت وصارت حياتي خراباً
كأن بقاءك عمرانها
كأن السما غادرتها النجوم
وغاب عن الأرض سكانها
فلا نضبت من عيوني دموع
ولا فارق النفس أشجانها
سأبكيك مهما تطول الحياة
فأنت الحياة وأحيانها

ومنها يقول:

أودع فيك زمان المعاني
فأنت المعاني وتبيانها

○ ○ ○ ○ ○

ما أقسى لحظة الوداع!!!

الوداع له طعم مُرٌّ، تستدر مرارته الدمعة، وتستجلبه العبرة، ويهيجه البكاء، خاصة إذا كان الوداع وداع محبوب ستطول غيبته.

ولحظات الوداع التي تحصل بين المتحابين يتخللها شعور لا يستطاع وصف تأثيره على القلب، والنفس، سواء من المودع ـ بفتح الدال ـ أو من المودِع ـ بكسر الدال ـ إلّاأن تأثير الوداع يكون أشد وأقسى على المقيم لأسباب كثيرة لعل أهمها، الخشية من مشقة السفر على المودع ـ بفتح الدال ـ وانقطاع أخباره، وتركه مكان الائتلاف واجتماع الشمل، وغير ذلك من الأمور التي تخضع للقواعد الاجتماعية التي لها مساس بطباع النفس.

ولو أردت أن أحصر ما قيل عن الوداع وما وصف به من أوصاف صعبة لطال بي الوقوف عند ذلك.

والشعراء لهم عبرات وتعبيرات مثيرة تصوّر لحظات الوداع وما يصاحبها من ألم وحسرة تصيب قلب المودع ـ بكسر الدال ـ للأسباب التي تقدم ذكرها، وغيرها من علاقات المحبة وروابط الإلفة، والذي استعرض شيئاً من شعر الوداع، ومرَّ بقصيدة ابن زريق البغدادي، الذي سيكون لي معها وقفة في موضوع يلي هذا الموضوع إن شاء الله، يقف مبهوتاً لما فيها من تعليلات مؤلمة تمثل صورة حية لواقع الفراق، وحيث أن لي رغبة في الاستشهاد بشعر الشعراء المعاصرين، فها أنذا أقف مع ستة عشر بيتاً للشاعر أحمد عبده عبد الله الظرافي، حيث أفرغ فيها تعبيرات عن لوعة الفراق وأحاسيس لحظة الوداع، التي يحاول

تخفيفها بتعليل واقعي يتمثل في طلب الرزق، من تلك الأبيات قوله:

ألا قاتل اللّه الوداع فإنه
على قلب من تهواه سيفاً مشهرا

تجمع فيه الخوف والحزن والرجاء
ومنه الفؤاد المستهام مكسرا

لن أنسى في يوم الوداع كلامها
وقد سبقتني بالبكاء تأثرا

تسألني باللّه أن لا أنسى عهدها
وألّا أفارقها سنين وأشهرا

مسحت دموع العين منها برقة
وعاهدتها باللّه ألّا أغدرا

شقيقة عمري ما تركتك راغباً
ولكني على هذا التفرق مجبرا

ولوكتب الرحمٰن رزقي ببلدتي
لعشت قرير العين أرضى وأشكرا

ولكن حكم الإله وما لنا
إذا حكم الرحمٰن إلّا التصبرا

نشرت هذه الأبيات مع بقيتها في مجلة الوطن العدد السادس من السنة الثانية عشر، عدد ذي الحجة عام ١٤٠٩هـ.

○○○○○

ابن زريق وقصيدته «لا تعذليه!»

ابن زريق هو أبو الحسن علي بن زريق البغدادي، سافر من بغداد لطلب الرزق حيث أصيب بفاقة شديدة وقد ترك في بغداد ابنة عمه التي كلف بحبها أشد الكلف، وقصد أبا الخير عبد الرحمٰن الأندلسي بالأندلس فمدحه بقصيدة بليغة فلم يجزل له أبو الخير العطاء، فاغتم ابن زريق واعتل وضاق به الأندلس ذرعاً، ثم أراد أبو الخير أن يزيد من هبته له ويجزل له العطاء فأرسل إليه من يتفقده في الخان الذي كان فيه فوجده ميتاً وعند رأسه قصيدته «لا تعذليه» تلك القصيدة التي لا يعرف متى قالها، هل هو قالها عند توديعه ابنة عمه، أم أنه شرع فيها عند لحظة الوداع وأتمها في الأندلس، أو في أثناء طريقه إلى الأندلس، وسواء كان هذا أم ذاك فليس من المهم أن نعرف متى قالها، لكن المهم أن نعرف أن تلك القصيدة سارت بها الركبان كما يقولون، ودوّتْ بحسن أسلوبها وتناسق عباراتها وجودة سبكها وبصدق أحاسيس قائلها، في أرجاء الدنيا، وحفظها الناس، وتعشق أسلوبها الشعراء فعرضها الكثير منهم.

والذي لفت نظري أن أحد المعاصرين وهو الدكتور محمد بن سعد بن حسين الذي ألف كتاباً بحث فيه القصائد المعارضة، وأشار إلى معارضيها، ولم يتطرق لقصيدة ابن زريق رغم وجود معارضات لها لا يمكن حصرها في مثل حجم مؤلف الدكتور ابن حسين الذي سماه «المعارضات في الشعر العربي» وهذا المسمى يوحي إلى أن هناك اشتمال لكل المعارضات، أقول هذا لأن الدكتور ابن حسين فقّطه ولم يجعل له جزءاً أولاً ليحتمل إضافات فيما يليه من أجزاء.

وأعود إلى قصيدة ابن زريق التي تبلغ واحداً وأربعين بيتاً لأقتطف منها وفق منهج تأليفي الأبيات التالية:



المطلع:

لا تعذليه فإن العذل يولعه
قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه

ومنها قوله:

ما آب من سفر إلّا وأزعجه
عزم إلى سفر بالرغم يزمعه

يأبى المطالب إلا أن تكلفه
للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه

ومنها قوله:

استودع اللّه في بغداد لي قمراً
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه

وكم تشفع بي أن لا أفارقه
وللضرورات حال لا تشفعه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
وأدمعي مستهلات وأدمعه

ومنا قوله:

عل الليالي التي أضْنَتْ بقرقتنا
جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

○○○○○

لون من ألوان الوداع

لو شبه الوداع الذي يجري بين الراحل والمقيم لكان أشبه بالبواب الذي يقف بوابة يخرج منها المسافر فيكون هو آخر من تقع عليه عينه ممن انتقل عنه.

والوداع بأسلوبه الأدبي ومعناه الصحيح لم يكن مقصوراً على فئة دون أخرى، بل هو أسلوب يخضع لجميع الظروف التي تحيط بكل من المودع والمودّع ـ بكسر دال الأولى وفتح دال الثانية ـ، فهناك وداع غرامي يخضع في أسلوبه الأدبي وفي تأدية طقوسه إلى لغة العشق وعبارات التوله، وما إلى ذلك من الألفاظ التي يحيط بها قاموس الحب، وتتسع لها حاشية الغرام.

وهناك وداع تغرق عباراته في بحيرة التآخي والتواد، وتخفت الأصوات لهول ما تحمله لحظات فراق زوج أو أب أو أم أو أخ أو ما إلى ذلك ممن تربطه بالمودَّع ـ بفتح الدال ـ صلة وشيجة وعلاقة قربى.

وهناك وداع تلفظ كلماته شفاه الأصدقاء وتروض أساليبه العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة عن طريق التعامل التجاري أو التجاور السكني أو التعارف العادي أو ما إلى ذلك مما يوجد الصلة بين شخص وآخر.

وهناك وداع شبه إجماعي لكل غريب يقيم في بلدة إقامة يثبت أثناءها لأهل تلك البلد أنه الرجل المؤدب، وأنه الرجل الخلوق، وأنه الرجل الذي يحترم مشاعر الآخرين، وأنه الرجل الذي يفعل أفعالاً توجب على الناس احترامه وتقديره، وإجماع أهل البلد أو المدينة على

توديع مثل ذلك الرجل يعني التأسي على فراقه، ومثل هذا التوديع الذي يفيض بالأسى والحرقة قد حصل من قبل أدباء وشعراء بغداد لعبد العزيز بن إبراهيم الثعالبي، عندما قرر العودة إلى بلده تونس في ١٦ يوليو ١٩٣٧م بعد إقامة طويلة في بغداد، ومن أولئك الذين ودعوه الشاعر محمد الهراوي، الذي قال بتلك المناسبة أبياتاً منها قوله:

خذو معنى الوداع من الوفيّ
إذا عزم الحبيب على المضيّ

وضعت يدي على قلبي لأني
أودعه من القلب الشجيّ

وقد بلغ التشوق منتهاه
ولما ينتقل قدم المطيّ

دعوت الشعر فاستعصى وشعري
على ما أنشدت لم يك بالعصيّ

ولكن موقف التوديع يعيي
بيان اللوذعي الألمعيّ

فيا عبد العزيز وليس قلبي
بحبك من عرفتك بالخليّ

لئن قصَّرت في شعري فعذراً
فما أنا في وداعك بالقويّ

إذا استعصى قصيدي في وداع
فما يعصي على العود الهنيّ

○○○○○



فهرس الجزء الثاني